وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة بغداد

كلية التربية (ابن رشد)

قسم اللغة العربية

التَّطور الدَّلالي للألفاظ في النَّصِّ القُرآني

(دراسة بلاغية)

أطروحة تقدمت بها

جنان منصور كاظم الجبوري

إلى مجلس كلية التربية / ابن رشد

وهي جزء من متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة

في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأُستاذ الدكتور

قيس اسماعيل محمود الأوسي

١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م

المحتويات

المقدمة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي هدى أولياءَه نهجَ الهُدى، وأَجرى على أَيدِيهم الخيراتِ ونَجَّاهُم مِنَ الرَّدى، وأُصَلّي وأُسَلّم على سيِّدنا المُنقذِ مِنَ الضَّلالة والعَمَى ، محمَّدٍ المُصطفى ﷺ ، وعلى آلهِ الطَّاهِرينَ، وصحبهِ أَعلامِ التُّقَى.

وبعدُ .. فلقد أَحدثَ القرآنُ الكريم تَغَيُرًا كبيرًا في الحياة العقلية والاجتماعية والدينية للأمة العربية، وماكان ذلك إلاَّ بتأثير لغته العالية في نفوسهم، فأَعجزتهم عن مجاراته والإتيان بمثله رغم أَنَّهم أَئِمَّةُ البيان.

لِذا فقد شَغلتنِي بلاغةُ القرآن الكريم في أيام دراستي الجامعية لنيل شهادة البكلوريوس، وأَثارت اهتمامي أَكثر في دراستي لنيل شهادة الماجستير، وأَنا أَنهلُ من القرآن الكريم، والكتب التي أُلِّفَتْ لخدمتهِ، وبيانِ إعجازهِ، فكانَ مِن ثمرتِها علمُ البلاغة العربية.

فكانت الرغبةُ في دراسةٍ بلاغيَّةٍ تطبيقيَّةٍ لدلالة الألفاظ التي تحمل أكثر من معنى، ولِلتَّغَيُّر الدّلالي عبر السياق القرآني، لما في التَّعبير القرآني من ميزة جمالية فنية خاصة، مَكَّنته من إعطاء الألفاظ لونًا برّاقًا، وطعمًا لذيذًا، ولحنًا خالدًا. كانت هي الدافع وراء اختياري لموضوع دراستي الموسوم بـــ (التَّطَوُّر الدَّلالي للألفاظ في النّص القرآني – دراسة بلاغية) ، في محاولة جادّة لنهل شيءٍ من لغة القرآن العظيم ، الذي يُعدُّ ينبوعًا ثرًّا تستقي منه الدراسات ، التي يُكملُ بعضُها البعض، فكلَّما جاءت دراسة تفتَّقت أزاهير دراسة أخرى. فمن الدراسات السابقة التي اعتمد عليها البحث في انطلاقاته:

- التَّطوّر الدَّلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن – عودة خليل ابو عودة .
- البحث الدَّلالي في تفسير الميزان – مشكور كاظم العوّادي .
- الدَّلالة الصوتيَّة في القرآن الكريم – كريم مزعل محمد اللامي .
- الألفاظ العقليَّة في القرآن الكريم (دراسة دلالية) – روعة محمود الزرري.
- التَّراكم الدّلالي في النَّصِّ القرآني – مجيد طارش عبد .
- الدّلالة النَّفسيَّة للألفاظ في القرآن الكريم – محمد جعفر محيسن .

وفضلاً عن هذه الدراسات ، كانت أُصولُ اللغةِ والبلاغةِ ومعاني القرآن وتفسيره أصلاً لدراستي الدلاليّة البلاغيّة، ومنها : (لسان العرب) ، و(المفردات في غريب القرآن) ، و(التبيان في تفسير غريب القرآن) ، و(الكشاف)، و(تفسير النسفي)، و(روح المعاني) ، و(الاتقان في علوم القرآن) ، وكتب البلاغة التي أَخذت على عاتقها تبيان جماليَّة المفردة ، والتقاط المعاني الدقيقة التي جاء بها النَّظمُ القرآني ، وهناك عدد غير قليل أيضًا من المصادر والمراجع والأطاريح والدوريات التي أغنت البحث بمادة غزيرة جزلة.

اقتضت خُطّة البحث أَن تكون الاطروحة في ثلاثة فصول، يسبقها تمهيد تناول بالدراسة مفهوم التطور الدَّلالي وروافدَه ، وأثر القرآن العظيم في تطور البحث الدّلالي.

وجاء الفصل الأول بعنوان (التَّطَوُّر الدّلالي لأركان البلاغة العربية في القرآن الكريم) ، درستُ فيه (تطوُّرَ المجاز في القرآن الكريم ، وتطوُّرَ التَّشبيه في القرآن الكريم، وتطوُّرَ الاستعارة في القرآن الكريم، وتطوُّرَ الكناية في القرآن الكريم) .

ودرستُ في الفصل الثاني (ظواهر التَّطَوُّر الدّلالي في ألفاظ القرآن الكريم)، وهي : (تطوُّرُ الدّلالة الصَّوتيَّة، وتطوُّرُ الدَّلالة الاجتماعيّة، وتطوُّرُ الدّلالة الايحائيّة، وتطوُّرُ الدّلالة الهامشيّة) .

ودرست في الفصل الثالث: (وظيفةَ التَّطَوُّرِ الدّلالي في أَلفاظ النَّصِّ القرآني) ، وهي (وظيفتُه الفَنِّيَّة، ووظيفتُه العقليَّة ، ووظيفتُه النَّفسيَّة) .

وخَتمتُ البحثَ بتسجيل أَبرز النتائج التي توصَّلتْ إليها دراستي للموضوع.

ولاَبُدَّ هنا من الإشارة إلى أَنَّ معاني الأمانة والوفاء تقتضيني أن أبقى دائمة الشكر والتقدير والامتنان لأستاذي الذي أشرف على دراستي هذه (الأستاذ الدكتور قيس اسماعيل الأوسي)، لجهده المتميَّز في الإشراف العلمي الدّقيق على البحث في مراحل إعداده جميعًا، بدءًا بوضع خطته، ومرورًا بجمع مادّته، وكتابة فصوله، وطبعه ، وقد تفحَّص فصوله بقراءته العلميّة النّاقدة، فَقَوَّمَ ما اعوجَّ منها، وجَبَرَ عَثَراتِها ، وعالجَ ما أصابَها مِن وَهْنٍ، يَدفعُه إلى ذلك كُلّهِ إيمانُه الرَّاسخُ بأنّ البحث عملٌ مُشترَكٌ بين الطالب والأستاذ، والمشرف عليه ، يشتركانِ في المسؤوليّةِ عنه نجاحًا وتفوُّقًا، أو إخفاقًا. وهكذا تَعَلَّمْتُ منه دِقَّةَ البحثِ، وإتقانَه، والصَّبْرَ عليه ، فأَسألُ اللهَ تعالى أن يَمُدَّ في عمره لِينفعَ به أَجيالاً من الباحثين بِالتَّتلمذِ له ، والتَّخَرُّجِ على يديه.

ولايفوتني أَن أَشكرَ كُلَّ مَن مَدَّ إِلَيَّ يدَ العَونِ، وأَسهمَ في تيسير الصُّعوباتِ التي واجَهها البَحثُ .

وأَرجو أَن أَكون قد قَدَّمتُ أُطروحةً ذات منهجٍ سليم، فإِنْ وُفِّقتُ إلى ذلك فَبِفَضلِ مِنَ اللهِ تعالى وتَوفيقهِ، وإنْ كانتِ الأُخرى، فَلِي مِن حُسنِ النِّيَّةِ ما أَعتذرُ به إِليكم.

ومَا تَوفيقِي إلاَّ باللهِ العَلِيِّ العظيم، عليه تَوَكَّلْتُ وإليه أُنيب، وهو حَسْبِي ونِعْمَ الوكيل.

الباحثة

جنان منصور كاظم الجبوري

قسم اللّغة العربيّة بكليّة التربية (ابن رشد)

جامعة بغداد
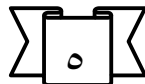
التمهيد

التطوّر الدَّلالي (مفهومه وروافده) وأثر القرآن العظيم في تطوُّر البحث الدَّلالي

أ - التطوّر الدَّلالي مفهومه وروافده.
ب - أثر القرآن العظيم في تطوُّر البحث الدَّلالي .

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

التَّطور الدَّلالي (مفهومه وروافده) ، وأثر القرآن العظيم في تطور البحث الدَّلالي

أ - التَّطَوُّرُ الدَّلالي (مفهومُه وروافدُه):

(التَّطَوُّرُ) لغةً : ما عاكسَ الجُمودَ والسُّكونَ، بل هو التَّحَوُّلُ إلى الأَفضلِ[1]، جاء في القرآن الكريم ﴿ ***وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا*** ﴾ [2] .

و(التَّطَوُّرُ الدَّلالي) يعني : " تغييرَ معاني الكلمات . وإِطلاقُ لفظِ (التَّطَوُّرِ) على هذه الحالة، لأنَّه انتقالٌ بالكلمة من طورٍ إلى طور " [3]. وظاهرةُ التَّطَوُّرِ لاتَقتصِرُ على لغةٍ دونَ أخرى، بل هي ظاهرةٌ عامَّةٌ ، تكادُ تشملُ جميعَ اللغات في العالم ، وسبب ذلك يعود إلى كونِ اللغة ظاهرةً إجتماعية ، تخضع لما تخضع له الظواهرُ الاجتماعية من عوامل التَّطوُّرِ، فجميع اللغات مشمولة بهذا القانون ، وقد لاحظنا ذلك واضحًا عند مجيء الإسلام ، فقد استبدل كثيرًا من الكلمات التي لايحسنُ ورودُها على الأَلسن، واستعمل أَيسرَها على النُّطقِ، وأَبينَها في الدَّلالة

---

(١) ينظر : الجامع الصغير ٢٠٧/١.

(٢) سورة نوح ١٧ . وقد جاء في كتب التفسير : إنَّ (أطوارًا) تعني : تَاراتٍ وكَرَّاتٍ، ينظر: تفسير النسفي ٢٨٣/٤ ، أَيْ: نُطفةً، ثمَّ عَلَقَةً ، ثم مُضْغَةً .. ينظر: الدر المنثور ٢٩٠/٨ ، وروح المعاني ٧٣/٢٩.

(٣) فقه اللغة وخصائص العربية ٢٠٧.

على المعنى، وحرصَ على مُطابقةِ القَولِ لِمُقتضى الحال. وهذا ما تتوخَّاهُ الفصاحةُ والبلاغةُ في الاعرابِ عَنِ القَصدِ وبيانِ المعنى. والصِّلَةُ ما بينَ المعنى والدَّلالةِ وطيدةٌ جدًا، فالمعنى هو الموضوع الأساس لِـــ(علم الدَّلالة) ، الذي يُعَرِّفُهُ العلماءُ بأَنَّه : " العِلمُ الذي يَدرسُ المعنى " [٤] فَالدَّلالةُ " هي:المعنى، ودلالةُ أَيِّ لفظٍ هي: مَا يَنصرِفُ إليه هذا اللَّفظ في الذِّهنِ من معنى مُدْرَكٍ أَو محسوس . وَالتَّلازُم بينَ الكلمةِ ودلالتِها أَمرٌ لاَ بُدَّ منه في اللغةِ لِيَتُمَّ التَّفاهمُ بينَ الناس" [٥] .

ويمثِّل التَّطَوُّرُ الدَّلالي ، الذي هو تغيير معاني الكلمات ، ظاهرةً شائعةً في جميع اللغاتِ، فقد أَكَّدَ الدَّارسون هذه الحقيقةَ، إذ يُشَبِّهونَ اللغةَ بالكائنِ الحيِّ الذي ينمو ويتطوَّر [٦] .

ولَمَّا كانتِ اللغةُ ظاهرةً اجتماعية، فهي عرضةٌ لِلتَّطوُّرِ في مختلف عناصرِها : أَصواتِها، وتَراكيبِها، ودلالالتِها، وإنَّ تطوُّرَها هذا يجري وفقًا لاتجاهات عامّةٍ رئيسة، وذلك لأِنَّ اللغة ليست جامدةً بحال من الأحوال ، على الرَّغم مِن أَنَّ تطوُّرَها قد يبدو بطيئًا في بعض الأحيان .

وتغيُّرُ المعنى ليس سوى جانبٍ من جوانب التَّطَوُّرِ اللغوي ، الذي يتمُّ ضمن طبيعة اللغة الخاصَّة، فلا شيءَ ثابت أو مستقرّ فيها بصورة تامَّة، فكُلُّ صوتٍ ، وكُلُّ كلمةٍ أَو تعبيرٍ أَو أُسلوب ، يُكَوِّنُ شكلاً أَو صورةً متغيِّرةً بِبُطءٍ

---

(٤) لحن العامة والتطور اللغوي ٣٠ ، وينظر: علم الدَّلالة والمعجم العربي ٦٥.

(٥) دور الكلمة في اللغة ١٥٣.

(٦) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية ٣٢.

وبقوَّةٍ غيرِ مرئيَّةٍ أو مجهولةٍ ، وتلكَ هي حياةُ اللغة[٧]. وإنَّ التَّطَوُّرَ في اللغة يمكنُ أَن يسيرَ في إحدى طرائقَ كثيرة لايمكنُ حصرُها، ذلك أَنَّ العواملَ المؤثِّرةَ في تطوِّرَ اللغةِ لايمكنُ أَن تُضْبَطَ وتُحصرَ ، بل إنَّ بعضَها غيرُ قابلٍ للحصرِ بطبيعتهِ الخارجةِ عن النِّطاق اللُّغوي، فَلِلحوادثِ التأريخيةِ ، والعوامل الدينيَّةِ والاجتماعيَّةِ، أَثَرٌ كبير في توجيه هذا التَّطورِ وجهةً دونَ أُخرى[٨]، كما إِنَّ الالفاظَ تتبدَّلُ معانيها قليلاً أو كثيرًا خلالَ الزمن. وعلى ذلك فإنَّ سائرَ عناصرِ اللغة ، مِن أَلفاظٍ وتراكِيبَ وقوالِبَ ومعانٍ ، لاتبقى ثابتةً على مَرِّ الزمنِ، بل تَتحَّولُ وتَتبدَّلُ ، لِذلكَ فإنَّ البحثَ في اللغةِ لايكُونُ بِالنَّظرِ إلى وَضعِها في عصرٍ من العصور، بل بالنَّظرِ إلى المراحل التي مرَّت بها خلال العصور، من جوانبِها كافَّة كالأَصوات، والصِّيَغ، والمعاني، وطرائق تراكيب الكلام، والتَّعبيرِ عن الزمنِ ، أَو العددِ (الجمع والمفرد) ، أو الجنسِ (المذكَّر والمؤنث) . وطالَما أَنَّ اللُّغةَ ، كسائر الظَّواهر الاجتماعية، يَطرأُ عليها التَّبَدُّلُ والتَّغَيُّرُ، لذا تَجِبُ مُراعاةُ فكرةِ التَّطَوُّرِ في سائر البحوث اللغوية [٩] ، ولاسَّيما في بحوثِ التَّطَوُّرِ الدَّلالي وتاريخِ الالفاظ ، إِذ تَخضعُ عمليَّةُ البحثِ لِسُبُلٍ لا يَسهلُ حَصرُها لِتَشَعُّبِها ، ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ الدارسينَ قد سعوا إلى وضع ترتيب يَنتظِمُ أَسبابَ تطوُّرِ الدَّلالاتِ والعواملَ المؤثِّرَةَ فيها، وعلى الرَّغمِ مِن كثرةِ تَفاصيلِها، يُمكِنُنا أَن نُجمِلَها في قسمينِ:

---

(٧) ينظر: دور الكلمة في اللغة ١٥٣.

(٨) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية ٣٢.

(٩) ينظر: المصدر نفسه ٣١.

(الأول): أسبابٌ خارجيَّة : تهتمُّ بدراسةِ التَّطوُّرِ في اللغات في كلِّ بيئة تبعًا لِلمتغيِّراتِ الاجتماعيَّةِ والدِّينيِّة والنَّفسيَّةِ، فالتَّطوُّرُ الاجتماعي في أَغلبِ الأحيان يؤدِّي إلى تطوُّرٍ لغويّ، فَتموتُ أَلفاظٌ ، وتُبْعَثُ أُخرى، وتَتَبَدَّلُ معاني بَعضِها، فَالأَلفاظُ تُستعمَلُ عبرَ الاجيالِ ، ونتيجةً لاستعمالِها يُغرَمُ أُناسٌ بمعاني الألفاظِ الهامشيَّة، ويبقى معظمُ النَّاسِ يَشترِكونَ في استعمالِها بمعناها المركزي، ويَرِثُ الجيل التَّالِي ماشاعَ مِن دلالاتٍ هامشيَّةٍ ومركزيَّة ، ومعَ توالي الأَيَّامِ يَتضخَّمُ الانحرافُ، وتصبحُ الدَّلالةُ الهامشيَّةُ شائعةً، ويبدو لِلجيلِ الوارثِ أَنَّ للكلمةِ معنيينِ أَو دلالتينِ، مع أَنَّ الرَّبطَ بينَهما ضعيفٌ [١٠] . وقد يَقترِنُ التَّطَوُّرُ بِظُهورِ مُفرداتٍ لغويَّةٍ جديدة دلالةً واشتقاقًا، وتُعدُّ في هذا الجانبِ أَلفاظٌ كثيرة قد ظهرت بدلالاتٍ جديدة بظهورِ الاسلام، كالصَّومِ والصَّلاةِ والحَجِّ والزَّكاةِ والجِهَاد ، تُدْعَى بـــ(الألفاظ الاسلامية) ، وفُرِضَ على المُسلمِينَ أَن يَعْمَدُوا إلى كتابِ اللهِ فيفسروه، يَتَعَقَّبُوا أَلفاظَه. وكانتِ الحاجةُ إلى معرفةِ لُغةِ القرآنِ وغريبِهِ سببًا في بحوث لغوية عن المعنى والدَّلالة [١١] .

وقد تدعو أَسبابٌ نفسيَّةٌ متنوِّعَةٌ إلى تجنُّبِ كثيرٍ من الألفاظ، والعُدولِ عنها إلى غَيرِها، حياءً ، أو خوفًا ، أو دفعًا لِلتَّشاؤمِ ، ولها أَمثلةٌ كثيرة، كالعُدولِ عن التلفُّظِ بِمُفرداتِ الأَمراضِ والعاهاتِ والمَوتِ، إلى مُفرداتٍ أُخرى قد تَدلُّ على

---

(١٠) ينظر: علم الدَّلالة والمعجم العربي ٨١ ، وعلم اللغة ٢٢٨-٢٣٠، ومعجم مقاييس اللغة لإبن فارس (دراسة دلالية في ضوء علم اللغة الحديث) ٨٨.

(١١) ينظر: دراسات في اللغة ١٤٤.

نَقيضِها، وفي العربيَّةِ الفُصحى استعمالاتٌ من هذا النَّوعِ، فقد أَطلقَ العربُ على الأَعمى تسميةَ (البَصيرِ) ، وعلى الصَّحراءِ تسميةَ (المَفازةِ).

ومن هذه الأسباب أَيضًا قَصدُ المُتكلِّمينَ باللغةِ إلى تَبديلِ الأَلفاظِ الدَّالَّةِ على المعاني ، لأَسبابٍ مذهبيَّةٍ أَو سياسية ، وكثيرًا مايُعَدُّ العُدولُ عن المواضعات الدينية والسياسية ، في الاصطلاحاتِ الخاصَّةِ بها، تعبيرًا عن الخروج على الموقف العدائي[١٢] .

(والآخر): أسباب داخلية: وهي المتَّصِلَةُ بالصِّيَغِ والأَشكالِ اللغويةِ وعَلاقاتِها في لُغَةٍ من اللغات [١٣] ، ومَرَدُّ ذلك إلى حاجة النَّاطقينَ بها ، لأنَّ اللُّغةَ أَداةٌ لِلتَّعبيرِ عن أفكار الناس وحاجاتهم، ولأَنَّ الأفكار والحاجات في تطوُّرٍ مستمر، فالدَّعوةُ إلى التَّجديدِ في التَّعبيرِ يُقصَدُ اليها قَصدًا، وتَتمُّ عن عَمدٍ في أَلفاظِ اللُّغةِ، والسُّبُلُ إلى التَّجديدِ كثيرةٌ ، منها : التَّخصيصُ ، والتَّعميمُ ، وانتقالُ الدَّلالةِ ، والنَّحتُ، والاشتقاقُ ، و(التَّعريبُ) ، أيْ : إخضاعُ الألفاظِ الأجنبيَّةِ للعربيَّة [١٤] .

ب - أثر القرآن العظيم في تطوُّر البحث الدَّلالي

يُقَدِّمُ علم التفسير ، والبَحثُ في غريبِ القرآنِ وإعجازهِ ، أمثلةً رائعةً لِلُغَوِيَّاتِ النَّصِ التَّطبيقيَّةِ في تَحليلِ النُّصوصِ ، ورَبطِها بِوَقائعِ حياةِ المُتعامِلينَ بها، كما تُمَثِّلُ بعضُ مباحثِ علمِ أُصولِ الفقهِ عِلْمَ الدَّلالةِ الإسلامي التَّطبيقِي [١٥] .

---

(١٢) ينظر: مقدمة لدراسة التطور الدَّلالي في العربية الفصحى في العصر الحديث ٣٠.

(١٣) ينظر: الجوانب الدَّلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ٢٠٣.

(١٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة (دراسة دلالية في ضوء علم اللغة الحديث) ٩٢.

(١٥) ينظر: نحو علم خاص بالعلوم الشرعية ٢٠ .

فاللُّغةُ ، وكما ذكر ابنُ جنِّي (٣٩٢هـ) ، " أصواتٌ يُعَبِّرُ بها كُلُّ قومٍ عن أَغراضِهم" [١٦] ، إلاَّ أَنَّ هذهِ الأصوات قد تَكونُ واحدةً في اللَّهجات العربيِّة، ولكنَ ماتَرمزُ إليه يكون مختلفًا، وهذا ، مِن غيرِ شَكٍّ ، مِن مَظاهرِ اختلافِ اللَّهجاتِ، لذا عُدَّتِ المعرفةُ اللغويةُ مِن أَهمِّ الأَدواتِ التي استعانَ بها العلماءُ في فَهمِ النُّصوصِ القرآنية [١٧] ، فَفرضَتْ علومُ القرآنِ على المُسلمينَ أَن يَعْمَدُوا إلى كتابِ اللهِ فَيُفَسِّرُوه، ويتعقَّبُوا أَلفاظَه، وكانتِ الحاجةُ إلى معرفةِ لُغةِ القرآنِ وغريبهِ سببًا في خوضِهم في بحوثٍ لغويَّةٍ عن المعنى والدَّلالة، مثل تسجيل معاني الغريب في القرآنِ الكريمِ والحديث، وعن مَجازِ القُرآنِ، والتَّأليفِ في الوُجوهِ والنَّظائرِ في القرآنِ الكريم ، وتأليفِ المَعاجم، وحتَّى ضَبْطُ المُصحفِ بِالشَّكْلِ يُعدُّ في حقيقتهِ عَمَلاً دلاليًّا؛ لأنَّ تغييرَ الضَّبطِ يُؤدِّي إلى تَغييرِ المعنى [١٨] .

ولعلَّ مسائلَ نافعِ بنِ الأَزرق المُوَجَّهَةَ إلى ابنِ عبّاس (رضي الله عنه) هي الخطوةُ الأُولى في تَفسيرِ غريبِ القرآن، والاستدلالِ على الأَلفاظِ الغَريبةِ بِالشِّعرِ العربي ، الذي أَلِفَهُ العَربُ قبلَ نزولِ القرآنِ الكريم فيهم، فكان سجِّلَ حياتِهم ولُغَتِهم[١٩] . ثم توالى التَّأليفُ في هذا المجال، فَأَلَّف الفرّاءُ (٢٠٧هـ) كتابه "معاني القرآن " وأَلَّفَ أبو عبيدة (٢١٠هـ) كتابه " مجاز القرآن" ، وغيرهم كثيرٌ ممَّنْ وَضَعُوا تصانيفَ تَدورُ في فَلَكِ الغَريبِ وإيضاحهِ ، حتى إذا وصلنا إلى ابن

---

(١٦) ينظر: الخصائص ٣٣/١.

(١٧) ينظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ٢٣٩.

(١٨) ينظر: دراسات في اللغة ١٤٤.

(١٩) ينظر: الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ٢٨٩.

قتيبة الدّينوري (٢٧٦هـ) وجدناه يَضَعُ كتابينِ مُهِمَّينِ في هذا المجال ، أَوّلُهُما وأَوْسَعُهُما " تَأويلُ مُشكلِ القُرآن " ، ثم أَردفَهُ بكتابهِ الآخر " تفسير غريب القرآن " تَكْمِلَةً لكتابهِ الأَول [٢٠] .

ولَّما كانَ القرآنُ الكريم ، الذي يُمَثِّلُ الذُّروةَ البيانيَّةَ في المَوروث البلاغي عند العرب ، يَبتعِدُ عَنِ النَّمَطِ الجاهلي في أَلفاظهِ، ويَستقِلُّ بِمَدلولاتِهِ ، ولا أَثَرَ فيهِ لبيئَةٍ اقليميَّةٍ أَو زمنيَّةٍ، فقد أَصبحَ المحورَ الرَّئيسِ للبحثِ الدَّلالي ، إِذْ يُعَدُّ نصًّا عربيًّا ذا طابع اعجازي، وكتابًا الهيًّا ذا منطق عربي، فأَفاضَ الباحثونَ الحديثَ في جوانبِ العَظَمَةِ البلاغيَّةِ، والسُّموِّ الأدبي ، في أُسلوبِ القرآنِ الكريم ، لأَنَّ للقرآنِ الكريم سُلطانًا على القُلوبِ لايُغالَبُ، وحُكْمًا لايُرَدُّ ، ذلكَ أَنَّ القُرآنَ الكريمَ يُخاطِبُ قوى الإدراكِ في الإنسانِ مُجتمِعَةً، سَواءٌ أَكانتْ قوًى مُفَكِّرةً، أَم قوًى وجدانيَّةً ، أَم قوًى مُلْهِمَةً ، وبتعبيرِ آخر: إِنَّ القُرآنَ الكريمَ يُخاطِبُ العقلَ والرُّوحَ والقلبَ في آنٍ واحد.

لقد شَغلتْ قضيَّةُ الإعجازِ القُرآني العُلماءَ، فَأَفردوا لها مؤلَّفاتٍ مستقلَّةً تبحث في الاعجازِ وأَسبابهِ، وتبيانِ مزايا التَّنوعِ في أَساليبِ القرآن، والكَشفِ عن الأسرارِ اللغويَّةِ والبلاغيَّة فيه ، ككتاب " نظم القرآن" للجاحظ (٢٥٥هـ) ، إلاَّ أَنَّه لم يَصِلْ إلينا، وإنَّما ذكره الجاحظُ في كتابه " حجج النُّبُوَّةِ" ، وأَشارَ إليه الباقـلانيُّ (٣٠٤هـ) في كتابه " إعجاز القرآن" . وكتاب " إعجاز القرآن في نَظمهِ وتَأليفهِ" للواسطي (٣٠٦هـ)، ورسالة الخطابي (٣٨٨هـ) في إعجاز القرآن [٢١] .

---

(٢٠) ينظر: منهج النسفي في الكشف عن دلالة الألفاظ من خلال كتابه (طلبة الطلبة) ٥٤.

(٢١) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الازرق ١٦-١٨.

فعمليَّةُ مُقابلةِ الأَلفاظِ بِما تَعنيهِ أَصواتُها من المعاني ، بابٌ عظيمٌ واسع، ولو تَأَمَّلْنا كتابَ (معجم مقاييس اللغة) لابنِ فارس (٣٩٥هـ)، لَوَجَدْنا هذا الرجل صاحبَ نظريَّةٍ في دلالةِ الألفاظِ ، فكتابُه يُعْنَى بِالكَشفِ عن الصِّلاتِ القائمةِ بينَ الألفاظِ والمعاني في أَكثر مِن وجه ، ويُشيرُ إِلى تقلُّباتِ الجذورِ في الدَّلالةِ على المعاني، فهو يُعَدُّ مِنَ الأوائلِ الذين اهتمُّوا بإيجادِ صِلَةٍ بينَ المَدلولاتِ المُختلفةِ للكلمةِ الواحدة، ومُحاولةِ إِرجاعِها إِلى أُصولِها، وتوضيحِ تلكَ الصِّلَةِ، وإِن لم تخلُ المعاجمُ السَّابقةُ مِن مثلِ هذه الإشارات، إذ يُعَدُّ الخليلُ بنُ أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ) الرَّائِدَ الأولَ في هذا المجال في معجمه الأَصيل " العين " ، حينَ بحثَ في تراكيبِ الكلماتِ مِن مواردِها الأوَّليَّةِ في الجَذرِ البنيوي الحرفي، ومِن ثَمَّ تَقسيمه على مايتحمَّلُه من أَلفاظٍ مُستعملَةٍ وأُخرى مهملة ، لدى تَقَلُّبِ الحرف في التَّركيب. ويُشيرُ ابنُ فارس في كتابه " الصَّاحِبي في فقه اللُّغةِ " إِلى أَنَّ الأسماءَ علاماتٌ دالَّةٌ على مُسَمَّياتِها، فيحدِّد مرجعيَّةَ الدَّلالةِ بثلاثة محاور ، هي : (المعنى) و(التفسير) و (التأويل)، فالكلمة في الأصل تدلُّ على معنًى واسعٍ يَجمعُ المدلولاتِ المتنِّوعةَ أَو المتفرِّقةَ، فلَيستِ المدلولاتُ المتنوِّعةُ إلاَّ دلالاتٍ هامشيَّةً أو ظِلالَ معنى للمعنى المركزي [٢٢] .

وهذا مانجدُه عندَ عبدِ القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) في كلامه على الدَّلالةِ مِن خلالِ نظريَّةِ النَّظمِ، فهو يتكلَّمُ على الصِّيغةِ الفَنِّيَّةِ التي خَلَصَ إِليها في شَأنِ الدَّلالة، إِذ يقول: "وَجَبَ أَن يُعْلَمَ أَنَّ مدلولَ اللَّفظ ليس هو وجودُ المعنى أو عدمُه،

---

[٢٢] ينظر: الصَّاحبي في فقه اللغة : ٨٨-٨٩ ، وتطور البحث الدَّلالي ٣٤-٣٨ ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (دراسة دلالية في ضوء علم اللغة الحديث) ١٠٧-١٠٨.

ولكن الحكم بوجود المعنى أو عدمه" [٢٣] .فالألفاظ دالة على المعاني لاشك ، ولكن الحكم القطعي عقليًا بوجود المعاني التي تدلُّ عليها الألفاظُ هو الأمرُ المبحوثُ عنه وجودًا أو عدمًا، فدلالةُ الالفاظ لديه مرتبطةٌ بما تُفِيدُ مِن معنًى عند التركيب، فجماليَّةُ المعاني تعودُ إلى حسن التَّأليف ورقَّة التَّركيب، فالدَّلالة عندَه فيما انتظم فيه الكلامُ، فدلَّت أَلفاظُه على معانيه جُمليًّا[٢٤] .

وفضلاً عن دراسات البلاغيين التي تناولت جانب المعنى، نجد دراسات الأصوليين التي سبقت ، في كثير من نتائجها ، دراسة المعنى في العصر الحديث، ضمَّت هذه الدراسات موضوعات ، مثل دلالة اللَّفظ من حيث العموم والخصوص، والمشترك، والمترادف، وتقسيم المعنى بحسب الظهور والخفاء، وطرق الدَّلالة، والتغير الدَّلالي ، والحقيقة والمجاز. إذ ينتج عن اعتبارِ السِّياق أو عدمهِ في فَهمِ النُّصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، اختلافٌ في الأحكام الفقهية والمفاهيم العقائدية. لذا فإنَّ المعرفةَ اللغوية العربية من أهمّ الأدوات التي استعان بها الأصوليون في فهم النصوص القرآنية والأحاديث النبوية واستنباط الأحكام الشرعية منها، وقد جُعل العلم بأسرار العربية شرطًا أساسًا من شروط الاجتهاد ، وتحتلُّ المباحث اللغوية حيزًا ملحوظًا في مباحث العلوم الشرعية الفقهية والعقائدية، فإنَّ الحاجة ماسَّةٌ إلى تطوير منهجية البحث اللغوي فيها، وتجديد الأداة اللغوية لها، ولعلّ ما وضع من كتبٍ في تفسير النصوص في الفقه الإسلامي،

---

(٢٣) دلائل الإعجاز ٢٣٤.

(٢٤) ينظر: تطور البحث الدَّلالي ٤٥.

وسبل الاستنباط من الكتاب والسنة، يشهد بأهمية توسيع آليات فهم نصوص القرآن والحديث، لتشمل مباحث مفيدة من العلوم الاجتماعية والتشريعية واللغوية [٢٥].

وتتضح أهمية تطوير الأسس اللغوية في العلوم الشرعية، في الآراء المتعلِّقة بالقياس، والمعهود ، والسياق، والمجاز ، وغيرها ممِّا يؤدِّي اليه اختلاف المواقف منها في فهم النصوص الشرعية، واستنباط الأحكام والمفاهيم [٢٦]. فإنَّ لغة المتكلِّم من البشر تحيط بها قرائن، منها لغة النَّصِّ الشرعي، فينبغي أن نكشف معانيها من خلال قوانين لغة هذا النَّصِّ ذاتِها. ويؤدِّي التعاملُ الظَّاهري مع النصوص إلى استثمار المجالات الدَّلالية للألفاظ ؛ لكي يتم إدراجُ المفاهيم التي تستند إلى العودة إلى وقائع استعمال الألفاظ، والفحص في مدى انطباق دلالة الألفاظ على هذه الوقائع، من غير البناء على القياس الافتراضي في توسيع دلالات الألفاظ أو فهم الدَّلالات المستجدة، ومن غير ربط فهم الواقع باللَّفظ ، بل يربط اللَّفظ بالواقع الذي يردفه ، من غير اللُّجوء إلى القول بالتَّضمين في تحديد معاني الألفاظ العامَّة أو الوظيفية ، وباستبعاد القول بالتَّضمين تزداد الدِّقَّةُ في تحديد دلالة الألفاظ، وَيزيدُ التَّمَسُّكُ بما ورد بهِ السَّماعُ عن العرب [٢٧] . فقد أَكَّدَ الشَّافعيُّ (٢٠٤هــ) ، ومِن بَعدهِ الشاطبيُّ (٧١١هــ)، وغيرُهما من العلماء ، أهميةَ الالتزامِ بمعهود العرب في تلقِّي الخطاب الديني ، عند محاولة الوقوف على معانيه

---

(٢٥) ينظر: القاموس الفقهي: لغة واصطلاحًا ١٥.

(٢٦) ينظر: المستصفى في علم الاصول ٢/٢٥٦-٢٨٧.

(٢٧) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام، مج٢، ٧/٥٧-٥٨.

وبيانه[٢٨].ويقتضي ذلك أن يُحمل النَّصُّ على معهود المُتَكَلِّمِ به قُرآنًا وسُنَّةً ، وهو مَعهودٌ يُستفادُ من النُّصوصِ الشَّرعيَّة مجتمعةً ، طبقًا لكلام العرب الذين تلقوا هذه النصوص. والمعلوم أنَّ هنالك معهودين في التعامل مع الخطاب الشرعي: معهود شرعي ، وآخر عرفي لغوي عام [٢٩] ، ويدخل فيه ماوصف ابن السِّيد البطليوسي من الخلاف العارض من جهة اشتراك الألفاظ واحتمالها للتَّأويلات الكثيرة، في هذا الباب ، إذ يُقَسِّمُهُ على ثلاثة أقسام ، (أحدها): اشتراكٌ في موضوع اللَّفظة المُفردة، (والثاني) : اشتراكُ في أَحوالِها التي تَعرِضُ لها ، من إعرابٍ وغيرِه، (والثالث): اشتراكٌ يُوجِبُهُ تركيبُ الألفاظِ وبناءُ بعضها على بعض. فأَمَّا الاشتراك العارض في موضوع اللَّفظة المفردة فنوعان: اشتراكٌ يجمع معاني مختلفةً متضادَّةً، واشتراكٌ يَجمعُ معانيَ مختلفةً غير مُتضادّةٍ [٣٠] .

كما اتَّضح الاهتمام بالمعنى في دراسات الفلاسفة المسلمين ، كابن سينا (٤٢٨هـ) ، والغزالي (٥٠٥هـ) ، وابن رشد (٥٩٥هـ) ، وغيرهم ، فقد حصر ابن رشد الأسباب المؤدِّية إلى الاختلاف بين الفقهاء في تحديد معاني الألفاظ التي تُبنى عليها الأحكام، في تَردُّد الألفاظ بين العموم والخصوص، ودلالة الخطاب، والاشتراك الحاصل في الألفاظ المُفردة والمُركَّبَةِ، والإختلاف في الإعراب، لأهَمِّيَتهِ في التَّمييز بينَ المعاني التَّركيبيةِ، وَتَردُّد اللَّفظ بينَ حملهِ على الحقيقة أو

---

(٢٨) ينظر: الرسالة ، للشافعي ٥١-٥٢ ، والموافقات في أصول الشريعة ، للشاطبي ٦٥/٢.

(٢٩) ينظر: سبل الاستنباط من الكتاب والسُّنَّة - دراسة بيانية ناقدة ٣٨-٤١.

(٣٠) ينظر: الانصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الخلاف ٣٦-٣٧.

على المجاز، واطلاق اللَّفظِ تارةً وتَقييده تارةً أُخرى [٣١] . وبذا يكون أَثَرُ القُرآنِ في اللُّغةِ أثرًا عظيمًا يمكن أن نُجمِلَهُ في نوعينِ: الأَثَرِ العام، والأَثَرِ الخاص، أَمَّا الأَثَرُ العام فيَتَّضِحُ في تَمَكُّنِ العرب من الاختلاط بغيرهم من الأُمَمِ ذواتِ الحضارةِ العريقةِ، فَأَكْسَبَ الاختلاطُ لُغَتَهم غِنًى وثروةً، واصبحت اللُّغَةُ مُلكَ المُسلمين ، بعدَ أَن كانت مُلْكَ العرب. فليسَ من شكٍ في أنَّ القرآنَ هو الذي مَكّنَ العرب مِن أن يختلطوا بغيرِهم من الأُمَمِ، وبذا يكون أَثَرُ القرآن في اللغة بِحِفْظِها مِنَ الزَّوال الذي تَهَدَّدَ غيرها من اللُّغات. فالقرآن هنا قد أثَّر في اللُّغة ، ولكن بطريقةٍ غير مباشرةٍ. وإذا أَنْعَمْنا النَّظَرَ في الأَثَرِ الخَاّص، وَجَدْنا القرآنَ قد أَثَّرَ في اللغة بطريقةٍ مباشرة، وذلك بِما جاء بهِ مِن جديد اللَّفظ والمعنى والغرض والاسلوب [٣٢] . ففي مجال الالفاظ وردت في القرآن الكريم ألفاظٌ معروفةٌ لدى العرب بدلالاتٍ، إلاَّ أَن القُرآنَ مَنَحَها دلالاتٍ غير التي كانت لها مِن قَبْلُ، أَمثال : (الزَّكاة، والحَجِّ، والصلاة، والإيمان، والنِّفاق، والكُفر) وغيرها. وهذه الالفاظ أصْبَحَت يُطْلَقُ عليها مصطلحُ (الالفاظِ الاسلاميَّةِ) ، وهذا النَّهج في استعمال الالفاظِ يُعَدُّ بدايةَ التَّطَوُّرِ الدَّلالي ، فَضْلاً عنِ النَّظْمِ القُرآني وتَركيبِ آياتهِ التي جَعَلَتْ أُسلوبَهُ مُعجِزًا.

---

[٣١] ينظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٦/١-١٥، نحو علم خاص بالعلوم الشرعية١٧.

[٣٢] ينظر: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية ٢٦-٢٧.

الفصل الأوّل

التطوّر الدّلالي لأركان البلاغة العربيّة في القرآن الكريم

المبحث الأول: تطوّرُ المجازِ في القرآن الكريم

المبحث الثاني : تطوّرُ التشبيهِ في القرآن الكريم

المبحث الثالث: تطوّرُ الاستعارةِ في القرآن الكريم

المبحث الرابع: تطوّرُ الكنايةِ في القرآن الكريم

الفصل الأول

التطوّر الدلالي لأركان البلاغة العربية في القرآن الكريم

يُعدُّ القرآن الكريم أنموذجاً جديداً لهذه اللغة الكريمة ، إذ أن تطـور اللغـة العربية في هذا الأنموذج جعلها خليقة بأن تكون مُعربَةً عن دين جديد، ومن ثَمَّ عن حضارة جديدة [١] . وقد بُهِرَ العرب بجمال القرآن وروعته، وبالتغيير الذي أضفاه على النظم البياني ، فضلاً عن أثره في تغيير العادات والمفاهيم والتقاليد، فنظـر العرب إلى لغتهم وهي تتألّف في ردائها الذي أُحكم نسجه ، فحدبوا علـى عطـاء هذه اللغة يختزنونه، وعمدوا إلى مرونتها يستغلُّونها، فكان هذا المخـزون جمـالاً بلاغياً لايبلى [٢] . وفرضت علوم القرآن على المسلمين أن يعمدوا إلى كتـاب الله يفسِّرونه، ويتعقَّبون ألفاظَه، وكانت الحاجة إلى معرفة لغة القرآن وغريبـه سـبباً لخوضهم في بحوث لغوية عن المعنى والدلالة، فكوَّنت تلك الدراسـات موروثـاً بيانياً لايفنى [٣] . والقرآن الكريم ، بأساليبه في التعبير وفنونه في القول، خلّـص اللغة من الوحشيِّ والغريب، وهذَّب طبع ألفاظها من التنافر والتعقيد، فعمد العرب إلى الكشف عن خبايا هذا الكتاب وكنوزه، وكان الكشف منـصبًّا علـى بلاغتـه؛ لروعته وحسن بيانه، فوقفوا على جزئياته البلاغيّة ، واستعذبوا نوادر اسـتعمالاته في فنِّ القول، مِمّا طوَّرَ عندهم ذائقةً لغويَّة متأصِّلة ، وأمدّهم بحاسّةٍ نقديَّة متمكِّنة، تتَّجه بالبيان العربي إلى موكب الزحف الدّلالي المتطوِّر ، وتدفع بالمنهج البلاغي

---

(١) ينظر: التطور اللغوي التاريخي ٤٣.

(٢) ينظر : أصول البيان العربي ٤٧.

(٣) ينظر: دراسات في اللغة ١٤٤.

إلى المناخ الموضوعي المطمئن [1] . فكان من ثمار هذا الجهد المتواصل البنّـــاء، رصد المخزون الحضاري في تراث القرآن البلاغي واللغوي، وبدأ التصنيف في هذا المخزون يتحدّد، والتأليف بين متفرّقاته يأخذ صبغة الموضوعيّة، فنشأ عن هذا وذاك حشدٌ من المؤلَّفات، ابتداءً بمدارس التفسير الأوَّلي، في كُلٍّ من مكّة والمدينة والبصرة والكوفة، التي رفدت العالم الإسلامي بسيل من المعارف لاينضب، حتى اتّسع التفسير، وتعدّدت مناهج التأويل [2] . فكان جهابذة العربية وفحولها يتَّبعـــون تفسير ماجاء في القرآن ، من خلال الاستشهاد بالموروث المثلي عند العرب، وهذا ماحملهم على التنقُّل في بوادي جزيرة العرب، يـــسألون ويـــدوِّنون ويـــصنِّفون ويقارنون ويوازنون ويقعِّدون، كلٌّ ذلك كان بهدفٍ الإعتداد بـــالقرآن وتراثيّتـــه، فضلاً عن قدسيَّته وعظمته. كان هذا في القرنين الأول والثاني الهجريين، وما أن أطلَّ القرن الثالث الهجري، حتى انصبَّ الجُهدُ على خدمةِ لُغَةِ القـــرآن ، وبيـــان معاني مُفرداتهِ وألفاظهِ، فكانت هذه الدائرة متشعِّبةً في بدايات مسيرتها التصنيفية ، وإن كانت متّحدةً في مظاهرها الدَّلالية. فالاسماءُ مختلفةٌ، والانجـــازاتُ متقاربـــةٌ، حتى كأنَّ العطاءَ واحدٌ في جوهرهِ، وتأتي في مقدِّمتها كتبُ (معـــاني القـــرآن) ، ومنها : (معاني القرآن) للكسائي (١٨٩هـ)، و(معاني القرآن) للفرّاء (٢٠٧هـ) ، و (معاني القرآن) للأخفش (٢١٥هـ)، و(معاني القرآن) للزَّجّـاج (٣١١هـ)، و(معاني القرآن) لأبي جعفر النحاس (٣٣٨هـ). وكتب (مجازِ القرآن) و (تأويـل مشكلِهِ)، ومنها : (مجازُ القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى الليثي (٢١٠هـ)، و(تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة (٢٧٦هـ). وكتبُ (غريبِ القـــرآن)، ومنهـــا:

---

[1] ينظر: مجاز القرآن وخصائصه الفنية ١١-١٢.

[2] ينظر: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم (مراحل التفسير) ١٣١-١٤١.

(غريبُ القرآن) لابنِ قتيبة (٢٧٦هـ)، و(غريبُ القرآن) لمحمد بن سلاّم الجمحي (٢٢٣هـ)، و(غريب القرآن) للسجستاني (٢٣٠هـ)، و (الغريب في القرآن) لأبان بن تغلب الكوفي (١٤١هـ).

وهذه الكتبُ ، على وَفرتها ، تتحدَّث عن مسار اللَّفظِ القرآني، ودلالتهِ لُغةً ، وتبادره مفهوماً عربيًّا خالصاً، فكان ذلك معنى (مجازِ القرآن) و(غريبِه) ومعانيه في سيرورة مؤدَّى الألفاظ في حنايا الذهن العربي ، دونَ إرادةِ الاستعمالِ البلاغي، ودونَ إرادةِ (المجازِ) أو (المعاني) بالمعنى الاصطلاحي أو الحدودِ المرسومةِ لدى علماء المعاني والبيان، إذ امتازت هذه الحقبة بالتَّدوين المنظَّم لغريب القرآن وشوارده، وأثْرَتْ فيما بعد، الحركة التأليفية المنفتحة على اللغة والمجاز القرآني بمئات المصنَّفات القيِّمة ، ولكن بالمعنى المُشار اليه، دون المعنى البياني [١] .

وكانت دراسةُ القرآن والنَّظرُ في إعجازه شغلاً شاغلاً للمسلمين ، وقد عَدَّ أبو عمرو بن العلاء، أحد علماء العربية الأوائل، دراسةَ لغة القرآن ومعاني ألفاظهِ هدفاً لكلِّ مسلم [٢] . ومن هنا كانت دراسة العربية غايةً ووسيلة، فهي غاية ممثّلة في هذه اللغة الجديدة في كلام الله ﷻ وكلام نبيِّه الأمين (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي وسيلة لفهم ماوراء هذه الألفاظ واستعمالاتها كما وردت في آي الذكر الحكيم.

ومن جملة تلك الدراسات التي تُعدُّ ينابيع ثرَّة في تأصيل البحث الدلالي عند العرب : (معجم العين) للفراهيدي (١٧٥هـ)، و(البيان والتبيين) للجاحظ

---

(١) ينظر: مجاز القرآن وخصائصه الفنية ١٤-١٥.

(٢) ينظر: مجاز القرآن ٨/١.

(٢٥٥هـ) ، و(الخصائص) لإبن جنِّي (٣٩٢هـ)، و (معجـم مقـاييس اللغـة) و(الصاحبي في فقه اللغة) لإبن فارس (٣٩٥هـ)، و (تلخيص البيان فـي مجـاز القرآن) للشَّريف الرَّضي (٤٠٦هـ) ، و(دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجـاني (٤٧١هـ)، وغير ذلك الكثير مِمّا عُني بدراسة الكلمة ودلالتها في النَّص . فدلالة الألفاظ لديهم مرتبطة بما تفيده من معنًى عند نظمها في الكلام، فللكلمة قيمة كبيرة، فهي تحيا حياة متطوّرة متجددة، وهي دائماً متغيِّرة في دلالاتهـا، وفـي طرائـق استعمالها، إذ إنَّ الألفاظ تتطوَّر ، فتكتسب من المعاني أشباهً جديدة لم تكن لهـا . وليست العربيَّةُ بنجوةٍ من التَّطوّر، فالألفاظ العربية ، كما يدلُّ البحث التـاريخي ، كانت عرضةً للتبدُّل، فحدث توسع كبير في دلالات الألفاظ عن طريـق المجـاز وفنونه، وكذلك عن طريق استعارة ألفاظ لمعانٍ استحدثها القرآن الكريم ، بحيـث أصبحت الدّلالة المُستحدَثَةُ ، فيما بعد ، هي الدّلالة الشائعة التي اقتضاها الزمـان وتقلُّب الأحوال والنظم الإجتماعية ، فالألفاظ الاسلامية تُعَدُّ لوناً من ألـوان هـذا التّطور الذي عَرَضَ لِلَّفظة البدويَّة القديمة، فاستحالت شيئاً آخرَ يقتـضيه الـدِّينُ الجديد والبيئةُ الجديدة [1].

وبما أنَّ الألفاظ لاتكون حيَّةً الا في نصوصها، إذ لاتعيش منعزلةً ، بل في مُتونِ النُّصوصِ، مجتمعةً مركَّبةً مع غيرها من الالفاظ، ليتسنَّى للمتذوِّقِ الحصولُ على معانٍ متعدِّدةٍ متناوبةٍ في الظهور بحسب سياق الكلام ، وما يُلقيه الإسـتعمالُ على اللَّفظ من ظلالٍ وألوانٍ، وما يتعاقبُ عليه خلالَ العصورِ من معانٍ [2] . وفي

---

(١) ينظر: دراسات في اللغة ٤٠.

(٢) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية ١٦٠-١٦٤.

الوقت ذاته تتَّصلُ دراسةُ الآية اتصالاً مباشراً بدراسة المفردة، لأنّها أساسُ الآيــةِ ومنها تركيبها. والذي نعنيه بــ (الآية) مانعنيه بِنَظم الكلام ونَسْجِهِ.

فالبلاغةُ الحقَّةُ تكون في اختيار اللَّفظةِ الخاصَّة بالمعنى الذي يقتضيه نظــمُ الكلام، قال الخطابي (٣٨٨هــ) في إعجاز القرآن : " وَاعلم أنَّ القرآنَ إنَّما صار مُعجِزًا لأنّه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التــأليف ، متــضمِّنًا أفــصحَ المعاني "[١].

وطالما أنّ المفردةَ هي التي تُكَوِّنُ الجملةَ، فقد تميَّــزت المفــردةُ القرآنيــةُ بميِّزات ثلاث ، هي :

١- جمالُ وقعِها في السَّمعِ.

٢- اتِّساقُها الكاملُ مع المعنى.

٣- اتساعُ دلالتها لِما لاتتَّسع له عادةً دلالاتُ الكلماتِ الأُخرى، فالمفردةُ القرآنية ترسم صورة الموضوع إمّا بجَرسها الموسيقي ، وإمّا بظِلالها التي تُلقيهــا في الخيال [٢] . لذا تجلّى جمالُ لغةِ القرآن، حين خرج إلى الناس، في هذه المجموعة من الميِّزات على وجه دقيق مُحكَم ، وضع كُلاًّ من المفــردات وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان ، حتى تألّف مــن المجمــوع قالــبٌ مدهش، وقشرة سطحية أخّاذة، امتزجَتْ فيها البداوةُ في غير خشونةٍ، برقّةِ الحضارة من غير مُيوعةٍ، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربيَّــة ، علــى اختلافها ، بكل يُسرٍ وسهولةٍ.

---

(١) بيان إعجاز القرآن ، للخطابي ٢٧.

(٢) ينظر: التعبير الفني في القرآن الكريم ١٨٥-١٨٦.

ولاغرابةَ أن يكونَ للقرآنِ الكريم أُسلوبُهُ الخاصّ، فإنّ لكلِّ كلامٍ الهـــي أو بشري أُسلوبَه، والقرآن لم يخرجْ عن معهود العرب في لغتهم: مُفرداتِها، ونَظمِها، وقواعد صوغها، فَمن حروفِ العرب تألّفت تراكيبُه، وعلى قواعدهم جاء نَـــسجُهُ وتأليفُه، ومع هذا فقد أعجزَهم أُسلوبُه الفَذّ ومذهبُه الكلامي المُعجِز. لـــذا تعـــدَّدت الدراسات في الكشف عن دلالات القرآن الأدبية وفنونه القولية، التي خلَّصت اللغة من الألفاظ الغريبة والوحشية، ومن كُلِّ ماينبو عنه الطَّبعُ والذوقُ السليم، فدرستُ الفنون البديعية، كالجناس، والالتفات، والسجع، والفواصل ، ودرستُ فنـــون علـــم البيان، كالتشبيه، والاستعارة، والكناية ، ودرستُ فنون علـــم المعـــاني، كالفـــصل والوصل، والتَّقديم والتأخير، والتَّعريف والتنكير، والحذف والتقدير، وما إلى ذلك ، إلاّ أنَّ دائرة الجهد كانت ولازالت مُنصَبَّةً في استجلاء مجازاته وطرق استعمالها، والتَّشبيه ووجوهه ، والاستعارة وضروبها، والكناية ومجال إيرادها.

المبحث الأول
تطوّر المجاز في القرآن الكريم

كثيرٌ من الألفاظ توسَّعت دلالاتُها أو تغيَّرت بمرور الزمن، بعضُ تلك الدلالات يعرفه العرب وقتَ نزول القرآن، وبعضُها الآخر لا علمَ لهم به وقتَ نزوله ، إذ جاء به الاستعمالُ القرآني. ويُعدُّ هذا المبحثُ دراسةً تطبيقيَّةً لفنٍّ بارزٍ من فنون البلاغة العربية، وأَحَدَ الأَركان المهمّة في علم البيان، والركنِ الأساس في التَّطور الدلالي، وهو المجاز، الذي يُعدُّ من الموضوعات التي أَثْرَتِ الدراساتِ القرآنيَّةَ بكثير من الاهتمام والتَّمحيص والتدقيق. إذ قدَّمَ موضوعُ (المجاز) في البلاغة العربية خدمةً للقرآن الكريم ، في معرفة أسراره الخفيَّة ، ودلائله الاعجازية ، وكنوزه البلاغية، بمعرفة المعاني التي يرمي إليها.

كان للمجاز دور مهم في معالجة المسائل والقضايا التي وقفت عندها الفرق والمذاهب الاسلامية واختلفت فيها، ولاسيَّما (الصفات الالهية) ورؤية الله، ومشاهد اليوم الآخر، ووصف الجنة والنار، وغيرها من المسائل التي أثارها التفسير الظاهري أو الباطني للقرآن الكريم.

فالمجاز ركن أساسي في اللغة العربية، وليس عارضاً فيها ، فهو أحد شِقَّي الكلام : (الحقيقة والمجاز) [(١)] ، والعرب كثيراً " ماتَستعملُ المجاز وتعدُّه من مفاخر كلامها، فإنّه دليلُ الفصاحة ورأس البلاغة" [(٢)] والمعنى الإصطلاحي للمجاز مستمَدٌّ من المعنى اللغوي للكلمة، قال ابن جني (٣٩٢هـ) في حَدِّ (الحقيقة) و (المجاز) : " (الحقيقة) : ما أُقِرَّ في الاستعمال على وضعه في اللغة،

---

(١) ينظر: مجاز القرآن وخصائصه الفنية ٤٩.

(٢) العمدة ١/٢٦٥.

و(المجاز) : ماكان بِضدِّ ذلك " [1] . وجاء في (لسان العرب) في معنى (المجاز): (جزتُ الطريق) و (جاز الموضعَ جوازاً) : سار فيه وسلَكَهُ، و(جاوزتُ الموضعَ) بمعنى: جزتُه، و(المجاز) و (المجازة) : الموضع، و(المجاز) و (القطع) يتضمَّنان معنى الانتقال [2] . فلمّا كان استعمال اللفظ في غير معناه الأصلي شبيهاً بالانتقال من موضع إلى آخر ، فلا جَرَمَ أن سُـمِّي مجـازاً [3] . إلاّ أنّ دلالـة مـصطلح (المجاز) اختلفت عند المُفَسِّرين والبلاغيين، إذ تعني كلمة (المجاز) عند أبي عبيدة (٢١٠هـ) في كتابه (مجاز القرآن) : الطريقة التي يسلُكها القرآنُ في تعبيراتِـه، وهي : التَّفسيرُ والتَّأويلُ وتوجيهُ الكلام [4] . وهذا المعنـى أَعَـمُّ مـن المعنـى الاصطلاحي الذي حَدَّ به علماء البلاغة كلمةَ (المجاز).

ويأتي دور المعتزلة واضحاً في بلورة مفهوم (المجاز) ، بسبب ما اضطُرُّوا إليه من تأويل الكثير من الآيات القرآنية، التي يتنـافى ظاهرُهـا مـع أصـولِهم العقائدية، ولاسيَّما مبدأ التوحيد، فحَمَلوها علـى المجـاز [5] . وأطلـقَ الجـاحظُ (٢٥٥هـ) اسمَ (المجاز) ، في بعض كتاباته على الصّورة البيانية، فـأطلقَ هـذه التَّسمية، على الصورة الفنِّية المُستخلصة من الكلام، كما أطلقهـا علـى المعنـى المُقابِلِ للحقيقة. ونجده في مواضعَ أُخرى يُعَبِّر عـن جمهـرة الفنـون البلاغيـة (الاستعارة ، والتشبيه ، والتمثيل ، والمجاز نفسه) بالمجاز [6] . فكان نافذة الضوء

---

(١) الخصائص ٤٤٢/٢.

(٢) ينظر: لسان العرب (جَوَز).

(٣) ينظر: الطراز ٦٣/١.

(٤) ينظر: مجاز القرآن ١٨/١.

(٥) ينظر: التفكير البلاغي عند العرب ٣٧٠.

(٦) ينظر: الحيوان ٢٣/٥.

للقادمين بعده ، ليستخلصوا الدّلالة التي استقرَّ عليها مصطلح (المجاز)، فجاء ابن قتيبة (٢٧٦هــ) لِيَرُدَّ ، في كتابه (تأويل مشكل القرآن) ، على من أنكروا وجــود (المجاز) في القرآن، ونَعَتَهُم بالجهلِ [١] .

ووجدنا (المجاز) يَرِدُ عند الرُّوّاد الأوائل عَرَضاً في استطراداتهم، أو فصلاً في كتاب ، كما ورد عند المبرد (٢٨٥هــ) [٢] ، والشريف الرضي (٤٠٦هــ)[٣]، وابن رشيق القيرواني (٤٥٦هــ) [٤] ، وابن سنان الخفاجي (٤٦٦هــ)[٥]. إلاّ أنّ الواضح من كلام الجــاحظ ومُعاصــريه، عَــدَمُ اســتقلاليَّة (المجــاز) بمعنــاه الإصطلاحي، وأنَّه قد اكتملَ نضجُه على يد عبد القاهر الجرجاني(٤٧١هــ)، الذي حدَّه بقوله: " وأمَّا (المجاز) : فكلُّ كلمةٍ أُريدَ بها غيرُ ماوُضِعَتْ لــه فــي وَضــعِ واضِعِها، لملاحظةٍ بين الأول والثاني، فهي مجاز" [٦] ، وقَسَّمهُ على قسمين :

١- (لغوي) ، وهو عنده نوعان:

(أحدهما) : يقومُ على المُشابهةِ ، وهو مايُسَمَّى بــ (الاستعارة) .

(والآخرُ) : لايقومُ على المشابهة، وإنَّما يكونُ (لصِلَةٍ ومُلابسةٍ بين مانقلهــا إليه وما نقلها عنه) ، وهو مايُسمّى بــ (المجاز المرسل).

٢- و(عقلي) وهو الذي يعتمدُ على (الاسناد) ، وهو مايحدثُ في الجُمَل [٧] .

---

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ٧٦.

(٢) ينظر: المقتضب ٥٤.

(٣) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن ١١٣

(٤) ينظر: العمدة ٢٦٣/١.

(٥) ينظر: سر الفصاحة ٤٠.

(٦) ينظر: أسرار البلاغة ٣٢٤.

(٧) ينظر: اسرار البلاغة ٣٢٤-٣٢٦.

وبذا يكون (المجاز اللغوي) متعلِّقاً بالكلمة المفردة، و(المجاز العقلي)، وهو ما أَسماه بـــ (الحكمي) ، متعلِّقاً بالجملة ومافيها من إسناد.

وهكذا بلغ المجاز على يدي الجرجاني مرحلة النُّضج العلمـــي، وأصـــبَح حديثُه عن المجاز مسارًا لم يفارِقْهُ الخلقُ، وإنَّما وَسَّعوا فيه، إذ جـــاءَ مـــن بعـــدِهِ الزمخشري (٥٣٨هــ) والرازي (٦٠٦هــ) اللذان نهلا مـــن علمـــه مـــا أَثْـــرى مُؤلَّفاتِهما. وتابع السكاكي (٦٢٦هــ) الجرجاني في تقسيمه المجازَ علـــى لغـــوي وعقلي [١].

فالمجازُ ظاهرةٌ حتَّمتها حركة التطوُّر اللغوي ، إذ يُعْمَدُ بالمجاز إلى نقـــل الالفاظ من المعاني القديمة إلى المعاني الجديدة [٢] . وطالما أنَّ التَّطـــورَ اللغـــويَّ تفرضُه حتميَّةُ تطوّر الحياة في جوانبها كُلِّها ، فهو مرتبطٌ بعواملَ كثيرة لاســـبيلَ إلى دفعها [٣] .

وقد حُصر التطور اللغوي الحاصل في المجاز في ثلاثة أنواع:

١- التَّغيير الذي يلحقُ القواعدَ المتَّصلة بالالفـــاظ وتركيـــب الجُمـــل وتكـــوين العبارات ، وما إلى ذلك من قواعد الاشتقاق والصرف.

٢- التَّطور الذي يلحقُ معنى الكلمةِ نفسهِ، كأن يُخَصَّص معناهـــا العـــام، فـــلا تُطلَقُ إلاّ على بعض ماكانت تُطْلَقُ عليه من قبلُ، أو يُعَمَّمُ مدلولُها الخاصّ، أو تَخرجُ من معناها القديم، فتُطلَقُ على معنًى آخَرَ ترتبطُ به بعلاقـــةٍ مـــا، وتصبحُ حقيقةً في هذا المعنى الجديد، بعد أن كانت مجازاً فيه.

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم ١٩٤-١٩٨.

(٢) ينظر: علم اللغة ٢٨٨.

(٣) ينظر: دلالة الألفاظ ١٣٥-١٣٩.

٣- التَّطور الذي يَلحقُ الأساليبَ ، كما حدث في لغات المحادثة العاميَّة المتشعِّبَةِ من العربية [١] .

فالتَّطور اللغوي لايَمَسُّ اللغةَ في هيكلِها الخارجي (شَكليَّةِ الألفاظ) ، وإنَّما يحصل في جوهرها، أي : في المعاني التي تسكن في هذه الهياكل الصوَّتيةِ للألفاظ.

ومايهمُّنا هنا هو التَّغييرُ الذي يحصل في الكلمة المُفردة، وهو مايُسمّى بـ(المجاز المفرد)، الذي يعني: استعمالَ الكلمةِ في غيرِ ماوُضِعَت له في اصطلاح التّخاطُب ، على وجهٍ يصُحُّ مع قرينة تَمنعُ من إرادة المعنى اللغوي الموضوع، وهو كما ذكرنا سالفاً على شِقَّين:

(أحدُهما) : (المجازُ المرسلُ) القائم على علاقات تربط بين المعنى الأوّل والمعنى الثاني، غير المُشابَهَةِ.

(والآخرُ): (الإستعارةُ) القائمةُ على علاقة المُشابَهَةِ.

---

(١) المجاز في البلاغة العربية ١٧.

المجاز المرسل في القرآن الكريم

المجازُ اللُّغَويُّ المُرسَلُ واسع الإستعمال في القرآن الكريم، وكَثرةُ شواهده القرآنيَّة دليلٌ على ذلك ، وإنَّ سبب انتشار هذا الفنِّ وذيوعهِ يعود إلى وظيفته في توليد المعاني الجديدة، وهو وسيلة اللُّغة في الإضاءة والتَّنوير، ودليل من دلائل الاعجاز البياني للقرآن العظيم ، أدَّى إلى توسُّع اللغة، إذ أخذتِ المُفردةُ تتخطَّى الدائرةَ اللغويةَ إلى الدائرة الفنيَّة، فَأَدّى التَّجَوُّزُ والاتساع في المفردات ومعانيها إلى إغناءِ المُعجم الدلالي بحياة لغويَّة متجدِّدة ومُبدِعة.

ويأتي وصف هذا المجاز بـ (المُرسَل) من إطلاقهِ من قيد المُشابَهَة، فـ(الإرسالُ) في اللُّغة : الإطلاقُ، و(أَرْسَلَهُ) بمعنى: أطلَقَهُ [(١)] ، ولمّا كانت الاستعارة مقيَّدَةً بادِّعاء أنَّ المُشَبَّهَ من جنس المُشَبَّهِ به، كان (المجازُ المرسلُ) مطلقًا من هذا القيد ، وحرًّا من هذا الارتباط، فهو طليقٌ مُرسَلٌ.

ويُعَدُّ السّكّاكي (٦٢٦هـ) أوّلَ من أطلق هذه التسميةَ عليه [(٢)] . وحَدَّهُ القزويني (٧٣٩هـ) بقوله: " هو ماكانت العلاقةُ بين ما استُعمِلَ فيه ، وما وُضِعَ لهُ ملابَسَةً ، غير التَّشبيه " [(٣)] . وهذا يعني أنَّ الكلمة مُستعملةً قَصداً في غيرِ معناها الأصلي ، لِمُلاحظة عَلاقةِ غَيرِ المُشابهةِ بين المعنيين ، مع قرينةٍ دالَّةٍ على إرادة غير المعنى الاصلي [(٤)] .

---

(١) ينظر: لسان العرب (رسل).

(٢) ينظر: مفتاح العلوم ١٧٤.

(٣) الايضاح ٢٨٠.

(٤) ينظر: جواهر البلاغة ٢٣٢-٢٣٣.

وبذا يكونُ (المجازُ المرسلُ) أحدَ مظاهرِ التَّطوُّرِ الـدّلالي. وقـد توسَّـع البلاغيُّون في استخراج علاقات (المجاز المرسل)، ومنها: الجزئيَّـةُ ، والكُليَّـة، والسَّببيَّة، والمُسَبَّبيَّة والمحليّـة، والحاليّـة، والزمانيّـة، والمكانيّـة، والعمـوم ، والخصوص [1] . ومن أهمِّ علاقاته في القرآن الكريم:

١- مايقومُ على العلاقة الجزئية، أي : إطلاقِ الجزءِ وإرادةِ الكلِّ، ومنه لفظـة (الصراط) في نحو قوله تعالى : ﴿ ***اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّـذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ*** ﴾ [2] . يُقال فـي اللّغـة: (سَرَطَ الطعامَ والشيءَ) : بَلَعَهُ ، و (الصِّراط) : الطريقُ الواضحُ ، والأصـل : (السِّراط) بالسِّين، و(الصِّراط) لغةٌ في (السِّراط) ، وهي بالصَّادِ لغةُ قريش الأوّلين التي جاء بها الكتاب . وإنَّما قيل للطريق الواضح: (سراطٌ) على التَّشبيه، لأنَّه كأنَّه يَسْرِطُ المارَّةَ لكَثْرةِ سُلوكِهم فيه [3] .

وقد اختلف المفسِّرون في المعنى الذي استُعيرَ له (الـصِّراطُ) فـي قولـه تعالى: ﴿ ***اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ*** ﴾ ، فقيل : تعني (القـرآنَ) [4] ؛ لأنَّـهُ هـو الهادي لدين الله ، والموصلُ إلى الطريق الصَّحيح. وقيل: تَعنـي (الإسـلامَ) [5].

---

(١) ينظر: فنون بلاغية ١١١-١١٨.

(٢) سورة الفاتحة ٦-٧.

(٣) ينظر: لسان العرب (سرط) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٨٧.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز من كتاب الله العزيز ١/١٢٣.

(٥) ينظر: تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ١/ ٤، والكشاف ١/٦٧.

ولاشكَّ في أنَّ الاهتداءَ إلى (القرآن) ، ومن ثَمَّ إلى (الإسلام) ، إنَّما هو اهتداءٌ إلى (الصِّراط المستقيم) المُؤدِّي إلى الفوزِ بنعيم الدُّنيا والآخرة [١] .

ومِثلُ ذلك لفظةُ (الصَّلاة) ، فهي في المعنى اللغوي المألوف تعني: الدُّعاء[٢] . وقد وردت في القرآن الكريم بدلالات مُتقاربة، إذ وردت هي ومشتقّاتُها (١٠٣) مرَّة [٣] ، تارة بمعناها اللغوي المألوف (الدعاء) ، كما في قوله تعالى : ﴿***خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ***﴾ [٤] . فـ " صَلِّ عليهم " بمعنى : ادعُ لهم، وقيل بمعنى استغفر لهم [٥] . وتارةً أُخرى بمعنى: العبادة المفروضة على المسلمين، وذلك من باب (إطلاق الجزء على الكل) على سبيل (المجاز المرسل)[٦]، كما في قوله تعالى : ﴿***إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا***﴾ [٧] ، وقوله تعالى : ﴿***فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ***﴾ [٨] . ففي هاتين الآيتين نجد لفظةَ (الصّلاة) قد تخصَّصت برُكنٍ من أركانِ العبادة المعروفة في الاسلام، بما

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٢١/١ ، وتفسير المنار ٤/٢.
(٢) ينظر: لسان العرب (صلا).
(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤١٥-٤١٧ .
(٤) سورة التوبة ١٠٣.
(٥) ينظر: معاني القرآن ، للفراء ٤٥١/١.
(٦) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٢٩٣، وأساليب الدعاء في القرآن الكريم، دراسة فنيّة بلاغيّة ٣٣.
(٧) سورة النساء ١٠٣.
(٨) سورة الحج ٧٨.

تشتمل عليه من أقوال وأفعال معيَّنة ، من بَعدِ أن كانت تدلُّ على (الدُّعاء) عامَّــةً. إنَّ عمليّةَ التَّطوُّرِ والاتِّساعِ في معنى لفظة (الصلاة) حصلت بناءً علـــى تقــارب المعنيين؛ لأنَّ تسمية العبادة بـــ (الصَّلاة) مأخوذة من معنى الدُّعاء، وذلك للصِّلة والترابُط بين الصلاة والدعاء. وقيل : إنَّ لفظةَ (الصَّلاة) بمعناها التَّعَبُّدي، مأخوذة من (الصِّلة) ؛ لأنّها تصل الإنسان بخالقه.

وقيل إنّ (الصَّلاة) : (فَعَلَةٌ) من (صَلّى) ، كـــ(الزكـــاة) مِـــن (زَكّـــى) ، وحقيقة (صلّى) : حرّك المُصلِّي صَلوَيْهِ، لأنَّ المصلِّي يفعل ذلك فـــي ركوعـــه وسجوده. و(الصَّلْوانُ): العظمان النّاتئان في أعلى الفخذين، يُقالُ : (ضَرَبَ الفرَسُ صَلْوَيْهِ بذنَبه) أيْ : عن يمينه وشماله ، ثم استُعمِلَ بمعنى الهيئات المخـــصوصة، مجازًا لغويًّا ، لأنَّ المصلِّي يحرّك صَلويه في ركوعه وسجوده [1] .

ومن أمثلته أيضًا لفظةُ (السجود) في نحو قوله تعالى: ﴿ ***يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ*** ﴾ [2] فـــ (السُّجود) في اللُّغة : الإنحناء والتـــضامن إلى الأرض، و (أسْجَدَ الرَّجُلُ) : طأطأَ رأسَه وانحنى، و(السّجود) : إدامةُ النَّظـــرُ إلى الأرض [3] . وهو لفظ معروف في الجاهليَّة ، واستعمل كثيرًا فـــي القـــرآن الكريم، فأُسْنِدَ إلى الملائكة، والشمس، والقمر، والنجم، والشجر، والإنسان، والـــى كُلِّ من في السماوات والأرض [4]. فـــ (السجود) في معناه العام: هـــو خـــضوع المخلوقات لله ﷻ على سبيل الفطرة والتَّسخير، وهو معنى مجازيٌّ متطوِّرٌ عـــن

---

(1) ينظر: الكشاف ١٣١/١.

(2) سورة آل عمران ١١٣.

(3) ينظر: لسان العرب (سجد).

(4) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٣٤٨-٣٤٩.

المعنى الأساسي الذي يعني: الانحناءَ والإقتراب من الأرض ، ومن ثَمَّ استُعمِلَ في معنى العبادة المفروضة، أي : في معنى الرُّكن المعروف من (الصَّلاة) المفروضة، الذي يَسبِقُ السجود.

ومن استعمال (السُّجود) في معناه اللغوي الحقيقي قوله تعالى : ﴿ **إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا** ﴾ [١] ، وقوله : ﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ** ﴾ [٢] فـ (السُّجودُ) هنا بمعنى : الاقتراب من الارض، وقيل في مثل هذا السجود : " (السُّجودُ) أصلُهُ : التّضامنُ والتّذلُّلُ، وجُعِلَ ذلك عبارة عن التّذلُّل لله وعبادته، وهو عامٌّ في الإنسان والحيوان والجمادات، وذلك ضَربان : سجودٌ باختيار ، وليس ذلك إلاّ للانسان ، وبه يستحق الثوابَ ، نحو قوله : ﴿**فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا** ﴾ [٣]، أي : تذلَّلوا له . وسجود تسخيرٍ ، وهو للانسان والحيوان والنبات، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ** ﴾ [٤] وقوله تعالى : ﴿**يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ**﴾ [٥] ، فهذا سجود تسخير ، وهو الدّلالةُ الصامتةُ النّاطقةُ المنبِّهةُ على كونها مخلوقةً ، وأنَّها خَلْقُ فاعلٍ حكيم . وقوله : ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا**

---

(١) سورة الاسراء ١٠٧.

(٢) سورة الأعراف ١٢٠.

(٣) سورة الرعد ١٥.

(٤) سورة النجم ٥٣

(٥) سورة النحل ٤٨.

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [١]، ينطوي على النَّوعين من السُّجود والتسخير والاختيار .. وقوله : ﴿ ***ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا*** ﴾ [٢] أي مُتذَلِّلينَ مُنقادينَ. وخُصَّ (السجود) في الشريعة بالرُّكن المعـــروف من الصلاة، ومايجري مجرى ذلك من سجود القرآن وسجود الشكر. وقد يُعَبَّرُ به عن (الصَّلاةِ) في مثل قوله تعـــالى : ﴿ ***وَأَدْبَـــارَ الـــسُّجُودِ*** ﴾ [٣] أي : (أدبـــارَ الصَّلاة)[٤] ، إذن (السُّجود) معناه: الصَّلاة . وفضلاً عن هذا نجد في قوله تعالى : ﴿ ***وَمِنْ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا*** ﴾[٥]، وقوله تعـــالى : ﴿ ***يَاأَيُّهَـــا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا*** ﴾ [٦] استعمالاً مجازياً لــ(الرُّكوع والـــسُّجود) ، إذ ينصُّ التشريع الاسلامي على أنَّ الركوعَ سابقٌ للسُّجود في الصلاة، وإن كـــان كلاهما يعني الاقترابَ من الأرض، إلاّ أنَّ السجود يقتضي انحناءً تامًّا حتى تُلامسُ الجبهةُ الأرضَ، وهذا يعني أَوجَ الاقترابِ منَ اللهِ تعالى، يُوَضِّحُ هذا قولُه تعـــالى: ﴿***وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ*** ﴾ [٧] . إلاّ أنَّنا نجدُ أنّ معنى (السُّجودِ) قد انتقـــل مـــن معنـــاه الموضوع له ، إلى معنى آخر ، على سبيل المجاز المرسل ، في قولـــه تعـــالى :

---

(١) سورة النحل ٤٩.

(٢) سورة النساء ١٥٤ ، وسورة البقرة ٥٥ ، وسورة الأعراف ١٦١.

(٣) سورة ق ٤٠.

(٤) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٢٩.

(٥) سورة الإنسان ٢٦.

(٦) سورة الحج ٧٧.

(٧) سورة العلق ١٩.

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (1) فلفظة (يسجدون) هنا أُطلِقَتْ على الصَّلاة ، والسُّجودُ جزءٌ من الصَّلاة، فأُطلِقَ الجزءُ وأُريدَ الكلُّ، معتمدينَ في ذلك على أنَّ التِّلاوةَ لاتكون في السُّجود ولا في الرُّكوعِ ، وإنّما في الصَّلاة (2) .

ومن الألفاظ التي أَشاعت في النَّصِّ القرآني جماليّةً فنيّةً لفظةُ (لَواقِح) ، إذ تعني في اللغة : ماءَ الفَحلِ ... وأَصلُ (اللّقاحِ) للإبلِ، ثُمَّ استُعيرَ للنِّساء ... و(اللّقاحُ) : مصدرُ قولِك (لَقِحَتِ النّاقةُ، تَلْقَحُ) إذا حَمَلَتْ . فإذا استبان حَمْلُها قيل : (استبان لقاحُها) (3) . واستُعمِلَت في القرآن الكريم مَرَّةً واحدة على سبيل المجاز المرسل، في قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ (4) فالرِّياحُ الهادئةُ المطمئنةُ الطيّبةُ هذه المَرَّةَ هي التي تحملُ في نسائمِها الخير، فَتَجمعُ في هبوبها السُّحُبَ والغيومَ، وتُسبِّبُ نزولَ الغيثِ، وتنتقلُ بين النَّباتات، حاملةً إلى أجزاء الأُنوثةِ فيها عناصرَ الذُّكورةِ، لتؤدّي عمليَّة التلقيحِ، وهي جزءٌ من إرسال الرياح وليس كُلِّها (5) .

وقيل في ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ : (لَواقِحَ) : جمع (لاقِحَة) أي : وأرسلنا الرِّياحَ حوامِلَ بالسّحاب، لأنّها تحمل السّحاب في جوفها، كأنّها لاقِحَةٌ بها،

---

(1) سورة آل عمران ١١٣.

(2) ينظر: معاني القرآن ، للفراء ٢٣١/١.

(3) لسان العرب (لقح).

(4) سورة الحجر ٢٢.

(5) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ١٩/٤.

من (لَقِحَتِ النَّاقَةُ) إذا حَمِلَتْ، وضِدُّها (الرِّيحُ العقيم) [١] ، فيُقالُ (ريحٌ لاقِحَـــةٌ) إذا جاءت بخيرٍ ، من انشاءِ سحابٍ ماطر، كما قيل للّتي لاتأتي بخير : (ريحٌ عقــيمٌ)، وإنَّما سُمِّيَتِ الرِّيحُ لاقحةً) تشبيهًا لها بالنّاقة اللاّقِح [٢] .

٢ - مايقومُ على العلاقة الكليَّة : أي اطلاقُ الكلِّ وإرادةُ الجُــزء، ومنــه قولُــه تعالى: ﴿ ***وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ*** ﴾ [٣] ، فكلمة (أجسامهم) وردت مــرَّةً واحدةً في القرآن الكريم ، ومعناها اللغوي: جماعة البدن، أو الاعــضاء ، ومــن الناس والإبل والدَّواب وغيرها، وهو مالَهُ طولٌ وعرضٌ وعُمقٌ ، ولاتخرجُ أجزاءُ الجسم عن كونها أجسامًا وإن قُطِّعَ منها ماقُطِّعَ وجُزِّئَ ماجُزِّئَ [٤] . ووجه المجاز فيها، كما يرى بعض المُفسِّرين، أنّها من باب إطلاق الكُلِّ وإرادةِ الجُزء، فالــذي يُرى الوّجْهُ، وهو مركز النَّظر للرّائي، فأطلقَ التعبير القرآني كلمةَ " أجــسامهم " وأراد وُجُوهَهم [٥] .

في حين يرى الدكتور محمد حسين الصغير أنَّ هذا التأويلَ بعيدٌ عن روح الآية، فالجسمُ وإن كان لايُرى كُلُّهُ فَمِنَ المستطاع أن يُدْرَكَ بالنَّظر إلى ماعليــه من جمال يَبعثُ على الاعجابِ، فهو يرى أنَّ الآيةَ لاتُريدُ : تُعجبُــكَ وُجُــوهُهم ،

---

(١) ينظر: روح المعاني ٣١/١٢ ، وتفسير النَّسفي ٢٤٠/٢.
(٢) ينظر: الكشاف ٣٨٩/٢ ، ومعاني القرآن ، للفراء ٨٧/٢.
(٣) سورة المنافقين ٤.
(٤) ينظر: لسان العرب (جسم) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٩١-٩٢.
(٥) ينظر: : الكشاف ١٠٩/٤ ، ومن بلاغة القرآن ٢٢٤.

وإنما تُريدُ : تُعجِبُكَ أجسامُهم، بما هي عليه من بَسطةٍ ، ومايبدو عليها من النِّماء والقوَّة [1] .

وهذا ما أراه في معنى الآية ، إذ لامعنى للتكلُّف المفرط في ادِّعاء المجاز، الذي يُخرِجُ النَّصَّ عن ذائقته اللغوية ، تصيُّداً لمعانٍ قد لاتُراد ، ووجوهٍ لاتُستحسَن وعلاقاتٍ لاتُستصوَب، فلو رجعنا إلى قوله تعالى : ﴿ ***وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ*** ﴾ [2] وأنعمنا النظر في قوله " وزاده بسطة " وجدناه يدلُّ على الزيادة في الشيء والاتساع والضخامة، وهذه من مواصفات الجسم ، لا الوجه.

ومن الألفاظ التي أُطلِقت على البعض، ومن ثَمَّ توسَّعت دلالتُها لتشمل الكُلَّ، لفظة (دابَّة) ، فهي لغةً: من (دَبَّ، يَدِبُّ، دَبّاً، ودبيباً : مشى على هينته، وأُطلق (الدَّبيبُ) على (سَيرِ النَّمل) لبُطئِهِ، وقد اختصَّ لفظُ (الدّابّةِ) بالفرس في لغة العرب، ومن ثَمَّ توسَّعت دلالتُها لتُطلقَ على كلِّ حيوانٍ دبَّ على الأرض [3] . و(الدَّبُّ) و(الدّبيبُ) : مشيٌ خفيفٌ، ويستعمل ذلك في الحيوان والحشرات ، ويستعمل مجازًا في الإنسان [4] . ذُكِرَت لفظةُ (دابَّة) في أربعةَ عشرَ موضعًا من القرآن الكريم[5]، فتنوَّعت دلالتُها، فتارةً يُراد بها معناها الخاصّ ، كما في قوله تعالى: ﴿ ***وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ*** ﴾ [6].

---

(1) ينظر: مجاز القرآن وخصائصه الفنية ٩١.

(2) سورة البقرة ٢٤٧.

(3) ينظر: لسان العرب (دبب).

(4) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ١٦٥.

(5) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٥٨.

(6) سورة الأنعام ٣٨.

فهنا اختصَّ لفظُ (دابَّة) بالحيوانات التي تدبُّ على الأرض [١] . وتارةً أُخرى يُرادُ بها كلُّ ذي روح في السماء والأرض ، كما في قوله تعالى : ﴿ ***وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ*** ﴾ [٢] فـ (دابَّة) هنا لفظٌ أُطلق على عموم المخلوقات [٣] . " ويجوزُ أن يكون بيانًا لِما في السموات وما في الأرض جميعًا ، على أنَّ في السموات خَلقًا لله يدبُّون فيها كما يدبُّ الأُناس في الأرض ، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده، ويُرادُ بما في السَّموات الملائكة، وكرّر ذكرهم على معنى: والملائكة خصوصًا من بين الساجدين، لأنّهم أطوعُ الخلقِ وأعبدُهم" [٤] .

وفي موضع آخر أُطلق لفظ (دابّة) على جنس البشر على سبيل المجاز المرسل، من باب إطلاق الكُلِّ على الجزء ، كما في قوله تعالى: ﴿ ***وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ*** ﴾ [٥] ، فأطلق لفظ (الدَّابَّة) على الناسِ[٦] .

ومن الألفاظ التي انتقلت مِمّا وُضِعَت له ، إلى شيء آخر ، لفظة (أصابع)، فـ(الأُصبَعُ) في اللّغة : مفردة (الأصابع) ، وهو جزء من جسم الإنسان [٧] ،

---

(١) ينظر: تفسير النَّسفي ١٥١/٣.

(٢) سورة الشورى ٢٩.

(٣) ينظر: روح المعاني ١٤٣/٧.

(٤) الكشاف ٤١٢/٢.

(٥) سورة النمل ٦١.

(٦) ينظر: معاني القرآن، للنحاس ٤٢١/٢، والتبيان في تفسير غريب القرآن ١١٦/١.

(٧) ينظر: لسان العرب (صبع).

يُطلق على أصابع اليدِ كُلِّها، فــ ((يُستعارُ للأثر الحِسِّي، فيقال: (لكَ على فــلانٍ أُصبَعٌ) كقولك: (لكَ عليه يَدٌ). " [١] .

وقد ذُكِرَت لفظةُ (أصابِع) مرَّتين في القرآن الكريم: فــي قولــه تعــالى : ﴿**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ** ﴾ [٢] ، وقولــه تعالى : ﴿ **وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذانهم** ﴾ [٣]، وفي كِلا الموضعين أُطلقَتْ كلمةُ (الأصابع) وأُريدَ بها : الأنامــل ، وإنّمــا ذكــر (الأصابع) ، ولم يذكر الأنامل ، أو (رؤوس الأصابع) التي تُجعَــلُ فــي الآذان ، على سبيل الاتساع والمبالغة في القول [٤] . وقيل : (رأس الأصــبع) هــو الــذي يُجعل في الأذن ، فهلاّ قيل: " أناملهم؟) ، قلتُ : هذا من الاتساعات في اللغة التي لايكاد الحاصِرُ يحصرُها، كقوله تعالى : ﴿ **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ**﴾ [٥] ، وقوله : ﴿ **فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾[٦]: أرادَ البعض الذي هو إلى المرفق ، والذي إلى الرسغ. وأيضاً ففي ذكر (الأصابع) من المبالغة ما ليس في ذكر (الأنامل) . فــإنْ قلتُ : الأصبع الذي تُسَدُّ بها الأذن أصبع خاص، فلِــمَ ذكــر الإســم العــام دون الخاص؟ ، قلت : لأنّ (السّبّابَةَ) : (فَعّالَةٌ) من (السَّبِّ) فكان اجتنابها أَولى بــآداب القرآن، أَلا ترى أَنَّهم قد استتبعوها فَكَنَوا عنهــا بــــ (المُــسَبِّحة) و (الــسّبّابَة)

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٨١-٢٨٢.

(٢) سورة البقرة ١٧.

(٣) سورة نوح ٧.

(٤) ينظر: تفسير النَّسفي ٢٤/١ ، والبحر المحيط ٨٤/١.

(٥) سورة المائدة ٦.

(٦) سورة المائدة ٣٨.

و(المُهَلِّلَة) و(الدَّعّاءة) : فإنْ قلتَ : فهلاّ ذكر بعض هذه الكنايات ؟ ، قلتُ: هي ألفاظ مُستحدثةٌ لم يتعارفْها النّاسُ في ذلك العهد، وإنّما أَحدثوها بعد" [1] . لذا أختير لفظ (الأصابع) على سبيل المجاز المرسل، من باب (إطلاق الكُلّ وإرادة الجزء).

٣ - مايقوم على العلاقة المكانيّة : مثل كلمة (سِجِّين) في قوله تعالى : ﴿ ***كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ*كِتَابٌ مَرْقُومٌ*** ﴾ [2] فكلمة (سِجِّين) في اللغة : من (السِّجن) بكسر السين: الحبس، و(السَّجْنُ) بفتحها: المصدر. و(سَجَنَهُ ، يَسْجُنُه ، سَجْنًا) ، أي : حَبَسَهُ .. و (السِّجِّين) : الصُّلب من كُلِّ شيء [3] .

وقد وردت هذه اللّفظة في القرآن الكريم مرّتين في (سورة المُطفِّفين) ، وقيل في معناها القرآني : إنَّها من (السِّجن) ، فيقال : (سجِّين) ، و (السِّجين) اسمٌ لجهنَّم ، بإزاء (عِلِّيِّين) ، وزيد في لفظها لزيادة المعنى ، وقيل : هو اسمٌ لصخرةٍ تحت الأرض السابعة [4] .

وقد اختلف المفسِّرون في معنى الكلمة، فمنهم من يقول في قوله تعالى : ﴿**كلاّ إنَّ كتاب الفُجَّار لَفي سِجِّين**﴾ إنَّ كتابهم الذي كُتبت فيه أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا في (سِجِّين) ، وهي الأرض السابعة ، أي : إنَّ أعمالهم لاتصعد إلى السماء[5] .

---

(١) الكشاف ٢١٦/١.

(٢) سورة المطفِّفين ٧-٩.

(٣) ينظر: لسان العرب (سجن) ، ومعاني القرآن ، للفراء ٢٦٦/٣.

(٤) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٤٥٤/١ ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن٢٣٠.

(٥) ينظر: تفسير الطبري ٣٠/ ٩٤.

وقال آخرون : بأنَّها حَدُّ إبليس [1] ، وقيل : (السِّجين) هو إســـمٌ لجهــنَّم أو لوادٍ فيها، فأُبدلت نونُه لامًا ، فقيل : (سِجِّيل) ، فــ (السِّجِّين) و (السِّجِّيل) بمعنى واحد[2].

وذُكِرَ أنَّها عبارة عن الخسارة والهوان ، كما تقول : (بلغ فلان الحَضيضَ) إذ صار في غاية الخمول [3] ، وفُسِّر (سجين) بـــ (كتابٍ مرقوم) ، فكأنَّه قيل : إنَّ كتابهم في كتاب مُسَجَّل ومُنَظَّم . وقيل : هو كتابٌ جامعٌ لكلِّ شرٍّ ، فهــو ديــوان دُوِّنَت فيه أعمال الشياطين وأَعمال الكفرة والفسقة من الجنِّ والإنس [4] .

إلاّ أنّ أرجحَ الأقوالِ : إنّ (سجِّين) تعني الحبس والتــضييق فـــي جهــنَّم، ولأنّها مطروحة تحت الأرض السابعة في مكان موحش مُظلم ، وهو سكن إبليس وذرِّيته استهانةً بهم. وبذا يكون قد حصل مجازٌ مرسل بنقل اسم المكان للتَّعبيرِ به عن الكتاب الموضوع للكفار [5] .

ومن ذلك أيضًا لفظةُ (تَسْنِيم) ، التي وردت مرة واحدة في القرآن الكريم ، في قوله تعالى : ﴿ ***وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُــونَ*** ﴾ [6] وأصل الكلمة في اللغة: من (سَنِمَ ، سَنَمًا) فهو (سَنِمٌ) : عَظُمَ سَنامُهُ ، وهو (ســنامُ البعير والنَّاقة) أي : أَعلى ظَهرِها ، والجمعُ (أسْنِمَةٌ) ، وشُبِّهَ كــلُّ شــيءٍ عــالٍ

(١) ينظر: الدر المنثور ٨/٤٤٩.
(٢) ينظر: معاني القرآن للفرّاء ٣/٢٦٦.
(٣) ينظر: روح المعاني ١٢/١١٣.
(٤) ينظر: الكشاف ٤/٢٣١.
(٥) تفسير النَّسفي ٤/ ٣٢٣.
(٦) سورة المطففين ٢٧-٢٨.

بالسَّنام، لأنَّ السَّنام خيار ما في البعير و (سَنَّمَ الشيء) : رفعَه .. و (سنَّم الشيءَ وتَسَنَّمَه) : عَلاه [١] .

لذا عندما أُطلقت في القرآن كانت مجازاً، لأنَّها دلَّت على معنى لم تعرفه العرب، فقد جاءَ عن المفسِّرين: إنَّ (التَّسنيمَ) هو أرفعُ شرابٍ عند أهلِ الجنَّة [٢]. وقيل " هو عينٌ في الجنَّة رفيعةُ القدَرِ، وفُسِّر بقوله تعالى: " عيناً يشرب بها المقرَّبون"[٣].

فـ (التَّسنيم) من الكلمات التي جاء بها القرآن ، وأُطلقت على عينٍ مخصوصةٍ في الجنَّة ، وذلك إمّا لأنّها تأتيهم من فوق ، على ما روي أنّها تجري في الهواء مُتَسَنِّمَةً ، فتَنْصَبُّ في أوانيهم، أو لأنّها أرفعُ شراب عند أهل الجنَّة[٤].

وعن ابن عباس عندما سُئِلَ عن قوله " ومِزاجُهُ من تَسنيمٍ " قال : " هذا ممّا قاله الله، فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفِيَ لها من قُرّة أعيُن . وقال فيه الزجاج : " أي: مزاجُه من ماءٍ متَسَنِّم عيناً تأتيهم من عُلُوٍّ تسنّم عليها الغرف " [٥] ، وبذا تكون كلمة (تسنيم) إسماً لمكان ، هو عين في الجنة، ثمَّ أُخِذَت على سبيل المجاز المرسل، بحكم العلاقة المكانية ، لتُطلَق على طعمِ الشَّراب الموجود في ذلك المكان، وهذا تطوُّرٌ في دلالة الكلمة، إذ نلاحظ أنَّ الكلمة قد ابتعدت مَرَّتين عن معناها الحقيقي ، فنُقِلَت مرَّةً من إطلاقها على سنام البعير لِعُلُوِّهِ ، إلى المكان الذي

---

(١) ينظر : لسان العرب (سنم).

(٢) ينظر : التبيان في تفسير غريب القرآن ٤٥٥/١.

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٥١.

(٤) ينظر: الكشاف ٢٣٣/٤ ، ومعاني القرآن ، للفراء ٢٤٩/٣.

(٥) الدر المنثور ٨/ ٤٥١.

ينزلُ منه الماءُ في الجنَّة على سبيل الاستعارة ، لعلاقةِ المُشابهة بين عُلُوِّ الغرف التي ينزل منها الماء وارتفاع سنام البعير، ثمَّ انتقلت اللَّفظةُ مرَّةً أُخرى على سبيل المجاز المرسل من اسم المكان لِتُطلَقَ على الشَّراب الموجود في المكان [١] .

٤ - ومن العلاقات المجازيَّة التي يحصل بها تطوّر دلالي : إعتماد ماكان وسيكون ضمن (المجاز المرسل) ، كما في قوله تعالى : ﴿ ***إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا*** ﴾ [٢] فكلمةُ (الخَمرِ) أُطلقت على (العِنَب) ، إذ الذي يُعصَرُ هو العِنَبُ ليكونَ خمراً. و(الخَمْرُ) في اللغة: من (خامَرَ الشَّيء) أي : قاربَه وخالطَه ، و(الخمر) : ما أسكر من عصير العنب ، لأنّها تخامر العقل ، والجمع (خمور). وسُمِّيَت الخمرُ خمراً لأنَّها تُرِكَت فاختمَرت ، واختمارُها تَغَيُّر ريحِها ... وقيل: سُمِّيَت خَمرًا لِمُخامَرَتِها العقل [٣] .

فأُطلِقَ (الخَمرُ) وأُريدَ : العنبُ ، على سبيل المجاز المرسل ، باعتبار ماسيكون ، فما سيحول إليه العنب عصيرٌ يُطلق عليه الخمر، فـ (أَعصِرُ خَمْرًا) يعني : عنباً، تسمية للعنب بما سيؤول إليه . وقيل (الخَمرُ) بِلُغَةِ عُمان إسمٌ للعنب[٤] .

---

(١) ومثل ذلك قوله تعالى : ((فليدع ناديه)) سورة العلق ١٧، إذ استعملت لفظة (ناديه) من بابِ إطلاق (المَحَلِّ) على مَنْ (حَلَّ فيه).

(٢) سورة يوسف ٣٦.

(٣) ينظر: لسان العرب (خمر) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ١٦٠.

(٤) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ١/٢٤٤ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٥، والكشّاف ٣١٩/٢ ، وروح المعاني ٢٣٩/١٢.

٥ - العلاقةُ السَّبَبِيَّةُ والمُسَبَّبِيَّةُ ، كما في قوله تعالى : ﴿ ***أَقِمْ الـصَّلَاةَ لِـدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا*** ﴾[١].

فـ (قرآن الفجر) هنا من الألفاظ التي جاء بها القرآن على سبيل المجاز المرسل، إذ خَصَّ صَلاةَ الفجرِ بهذه التَّسمية، في حين أنَّ كلمة (القرآن) في أصل اللغة مصدر للفعل (قرأ) ، و (القراءةُ) : ضَمُّ الحروفِ والكلماتِ بعضِها إلى بعض في التَّرتيل . و (القرآن) : لفظٌ خُصَّ بالكتاب المُنَزَّل على محمد ﷺ .

وقيل في تسمية هذا الكتاب قرآنًا مِن بين كُتبِ الله لكونه جامعاً لثمرةِ كُتُبِهِ، بل لِجَمعِهِ ثمرةَ جميعِ العلوم [٢] .

وقد وردت كلمة (القرآن) في الذِّكر الحكيم (٥٨) مرّةً ، جميعها بمعنى (القرآن) [٣] أي : الكتاب الذي نَزَّلَه الله على نبيه محمد (ص) ، إلاّ في هذا الموضع، فـ (قرآن الفجر) هنا مايُقرَأ في صلاة الفجر [٤] . وقيل : إنَّ (صلاة الفجر) سُمِّيت قُرآنًا لكونِ قراءةِ القرآن ركناً أساسيّاً فيها ، فَنُقِلَ اللَّفظ إلى هذا المعنى على سبيل المجاز ، وما جوَّز ذلك العلاقة السَّببيَّة ، فقراءة القرآن في الصلاة سببٌ في جَعلِها تُطْلَقُ على الصلاة [٥] .

ومن الألفاظ التي عُبِّرَ بها على سبيل المجاز المرسل بحكم العلاقة السببيَّة: لفظة (أَحيَينا) ، فهي في اللغة : من (الحياة) التي هي نقيض الموت، وتُستعمَل

---

(١) سورة الاسراء ١٧.

(٢) ينظر : لسان العرب (قرء) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٤١٣-٤١٤.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم ٥٤٣-٥٤٤.

(٤) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٢٦٨/١ ، والكشاف ٤٦٢/٢.

(٥) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٤/ ١٨٣.

للتَّعبير عن القوَّة النامية في النَّبات والحيوان ، ومنه قيل : (نبـــاتٌ حـــيٌّ) ، كمـــا تُستعملُ للتّعبير عن الحركة ، لذا سُمِّي الحيوان حيوانًا [١] .

أمّا ورودها في القرآن بهذه الصيغة فجاء مرتين على سبيل المجاز ، كمـــا في قوله تعالى : ﴿ ***فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا*** ﴾[٢]، وقوله تعالى : ﴿ ***وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ*** ﴾ [٣] . فـــ(أحيَينا) هنـــا أَعطت معنى : (أنبتنا) ، فإنباتُ الأرض بسبب الغيثِ يمنحُ الحياةَ للنبات والحيوان اللَّذين يقتاتُ عليهما الإنسان، ومِن ثَمَّ تحقَّقت بالغيث الحياةُ للمخلوقات كُلِّهـــا ، إذ جَرَت سُنَّةُ الله تعالى في إحياء الأرض بإرسال الرياح لِتُسَيِّرَ السَّحاب، ثـــم يـــأتي الغيثُ ، فينبت الزرع وتنتشرُ الحياة. ولأنَّ الإحياءَ هنا بسبب الغيث الذي يكون به الإنماء، جعلَ اللهُ كلمةَ (أحيَينا) بدلاً من (أنبَتنا) لاِتساعِ معناها [٤] .

ومن الألفاظ التي خصَّها الإستعمال القرآني بشيء معيَّن ، بعـــد أن كانـــت تُطلق على عموم الأشياء : كلمة (ذُرِّيَّة) في قوله تعالى: ﴿ ***فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِـــنْ فِرْعَـــوْنَ وَمَلَـــئِهِمْ أَنْ يَفْتِـــنَهُمْ*** ﴾ [٥]. و(الذّرِّيَّةُ): (فُعلِيّةٌ) منسوبةٌ إلى (الذَّرِّ) الذي هو النّملُ الصغار. و(الذُّرِّيَّةُ) من (ذرأَ اللهُ الخلقَ) أي خلقَهم [٦] .

---

(١) ينظر: لسان العرب (حيي) ، ومعجم مفردات القرآن ١٣٨.

(٢) سورة فاطر ٩.

(٣) سورة ق ١١.

(٤) ينظر: روح المعاني ٢٥/ ٦٧ ، وتفسير النَّسفي ٣/ ٣٣٧.

(٥) سورة يونس ٨٣.

(٦) ينظر: لسان العرب (ذرر).

ووردت كلمة (الذُّرِّيَّة) في القرآن الكريم (١١) مرَّة[١] . جميعها تُعطي معنى النَّسل، أي : مشتقَّةً من (ذَرَوْتُ) أو (ذَرَيتُ) أو ذرأَ اللهُ الخلقَ)، و(الذرو) يُضَمُّ ذالُها ويُكسَرُ ويُفتَحُ [٢] .

ومنه قولُه تعالى : ﴿ ***أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ*** ﴾ [٣] ، وقوله : ﴿ ***وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً*** ﴾ [٤] ولكن في قوله تعالى : ﴿ ***فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ*** ﴾ خرجت كلمة (ذُريَّة) من معناها العام إلى معنًى خاص، فأعطت معنى: النَّفر القليل ، وخروجُها هنا على سبيل المجاز المرسل، لأنّ (الذُّرِّيَّة) معناها أولادُ الأولادِ، لأنّ الله (عزّوجلّ) أخرج الخلق من صلب آدم(عليه السلام) [٥] .

بينما اختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى " ذُرِّية" في هذا الموضع ، فقال بعضهم: هي بمعنى : قليل ، وقال آخرون: هي بمعنى : ذُرِّية مَن أُرسِلَ إليهم موسى من بني إسرائيل ، لأنَّ الآباء ماتوا ، وبقي الأبناء، فقيل لهم (ذُرِّيَّة) ، لأنَّهم كانوا ذُرِّيَّة

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٧٥.

(٢) ينظر : البحر المحيط ٣٧٢/١.

(٣) سورة مريم ٥٨.

(٤) سورة الرعد ٣٨.

(٥) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ١٠٧/١.

مَن هلك مِمَّن أُرسِلَ إليهم موسى (عليه السلام) [1] ، وعن ابن عباس (رضـــي الله عنه) قال : (الذُّرِّيَّة) : القليل [2] . وعن مجاهد قال : " يعني أنَّهُ لم يؤمِنْ به منهم أحدٌ ، وإنّما آمَنَ أولادهم" [3] .

٦ - ومن علاقاتِ المجازِ المُرسلِ : الحاليَّة والمحلية، ومنـــه قولـــه تعـــالى : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّـــهِ ذَوِي الْقُرْبَـــى وَالْيَتَـــامَى وَالْمَـــسَاكِينَ وَابْـــنَ السَّبِيلِ﴾[4] (السَّبيلُ) في اللّغة : الطَّريق [5] . والمراد بـــ (إبن السَّبيل) في الآية الكريمة: الضَّعيفُ الفقيرُ الذي نزل بديار غير دياره [6] ، أو الغازي في سبيل الله، أو المسافرُ ، أو الذي قُطعت عليه الطُرُقُ، أو الذي جاءَ من أرضِ العدوِّ وأُخِذَ مالُه وبَعُدَ عن أهله [7] . فـــ (إبنُ السبيلِ) هو وصفٌ للمُغتربِ الفاقدِ للمال، وقيل: (ابنُ السَّبيلِ) لملازمته الطريقَ، وهذا من باب المجاز، إذ أُطلِقَ المحلُّ على الحالّ، أو سُمِّيَ الحالُّ باسم المَحلِّ.

---

(١) ينظر : تفسير الطبري ١٤٩/١١.
(٢) ينظر: الدر المنثور ٤/ ٣٨٢.
(٣) معاني القرآن ، للنحاس ٣٠٨/٣.
(٤) سورة البقرة ١٧٧.
(٥) ينظر: لسان العرب (سبل) .
(٦) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ١٦٧/١ ، والدر المنثور ٤١٥/١.
(٧) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٢٢٦/٣، وتفسير النَّسفي ٩٥/٢.

وعكسُه هو إطلاقُ الحالِّ على المَحِلّ ، كما في قوله تعــالى: ﴿ **وَإِذْ قَــالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَــرَاتِ** ﴾ [١] فكلمــة (آمِناً) وردت في القرآن الكريم (٦) مرّات [٢] ، وصفاً لحال الناس ، وجاءت في آية البقرة وصفاً لحال البلد، فــ (الآمن) لأهلِ البلدِ، وليس البلدَ، فقولُه : إشارةٌ إلى الوادي المذكور في قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِــوَادٍ غَيْــرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ** ﴾ [٣] أي : اجعلْ هذا المكانَ القفرَ بلداً آمناً، إمّــا على النَّسَبِ ، أي : ذا أمنٍ ، على حَدِّ ماقيل في " عيشةٍ راضية " [٤] وإمّا علــى الإتساع المجازي ، فالأصل: آمناً أهلُهُ ، فأُسنِدَ إلى المحلّ ، بدلَ إسنادِه إلى الحال، لأنّ الأمنَ والخوفَ من صفات ذوي الإدراك [٥]. ومايبيِّنُ ذلك إضافةُ الرزق فــي تتمَّة الآية إلى أهلِه ، فقال : ﴿ **وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِــنْ الثَّمَــرَاتِ** ﴾ ، ولــم يقــل : (وارزُقه من الثَّمَرات) ، وإنَّما أضاف الرّزقَ إلى أهلِه علــى الحقيقــة ، فجــاء بالمجاز في هذه الآية ملازماً للحقيقة، أحَدُهما يُبْرِزُ جماليّةَ الآخر، فالمجــازُ فــي قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِــنْ الثَّمَرَاتِ** ﴾ في طلب الأمان للبلد ، والمقصود به (مكّة) ، إذ تُسمّى (البلد الأمين)، فقد كان آمناً قبل مبعث النبي (ص) لايَغارُ عليه [٦] ، وحيثُ أنَّ الأمــان لايكــون

---

(١) سورة البقرة ١٢٦.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٩٢.

(٣) سورة إبراهيم ٣٧.

(٤) سورة الحاقة ٢١.

(٥) ينظر: روح المعاني ٣٨١/١.

(٦) ينظر: الدر المنثور ٤٦/٥.

للجماد ، جاز طلبُ الأمان للبلد، وأرادَ أَهْلَه، إذ الأمنُ : إحساسٌ لايتّصِف بـــه إلاّ النّاس، ولايمكن تَصَوُّرُهُ في هياكل مَكَّة وجماداتِها ، فأُسنِدَ الأمانُ إلى مَكّـــةَ وأراد ساكنيها، بمعنى أنّه ذكرَ لفظ المحلِّ وأراد الحالَّ فيه ، وهو مايسمى بـــ (العلاقـــةِ المحليَّة) ضمن علاقات (المجاز المرسل) [١] .

---

[١] ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٣/ ٥٣٥ ، وتفسير النَّسفي ١٦٨/١.

المبحث الثاني
تطوّر التشبيه في القرآن الكريم

التَّشبيه أَحد الأركان الأساسية في أصول البيان العربي ومصادر التّعبيـــر الفنِّي، ففيه تتكامل الصور وتتدافق المشاهد . والتشبيه محاولة بلاغية جادّة لصقل الشكل وتطوير اللّفظ، ومهمَّتُه تقريبُ المعنى الى الذهن بتجسيده حيًّا ، ومن ثَمَّ فهو ينقل اللفظ من صورة الى أُخرى على النحو الذي يريده المصوّر، فإن أراد صورة متناهية في الجمال والأناقة شبَّه الشيءَ بما هو أرجحُ منه حُسناً ، وإنْ أراد صورةً متداعية في القُبح والتَّفاهة شبَّه الشيءَ بما هو أردأ منه صفةً [١] .

والتَّشبيه أكثر الأساليب البيانية في القرآن الكريم ، واعتماد القــرآن عليــه دليلٌ قويٌّ على تفاعل ماموجود في البيئة العربية ، مع ما نزل به القرآن الكــريم، ممّا أدّى الى تقديم ما أرادَ اللهُ قولَه مُجَسَّماً حيًّا نابضاً. فالقرآن يجسِّدُ المعنى كي يكون مؤثراً في أرقى أشكال التعبير. ومنه تصويره ما ترتاح إليه العــين والأذن في وصف الجنّة ، وما أعدّه للمتَّقين من ثواب جميل. أو تصويره ما ينفر عنــه ، كما في رسم مشاهد الكفار وعذاب الآخرة. وذلك لأنَّ الغاية من أسـلوبه دينيــة ، تتضمّن هداية البشر بالترغيب والترهيب ، وإنّ هذه الغاية تعتمد على فنون اللغــة بغناها، وتبث فيها روحَ السُّمُوِّ . فالقرآن معجزة بيانيّة قائمة على التأثير النفـسي والعقلي [٢] .

---

(١) ينظر: أصول البيان العربي ٦٣-٦٤.

(٢) ينظر: دراسة أدبية لنصوص من القرآن ١٠٧.

والتشبيه ، بكونه أحدَ عناصر البيان المؤثِّرة في النفس ،كان له دورٌ كبيرٌ في القرآن الكريم. فقد عُني البلاغيون به كثيرًا ، لما له من أثر جمالي ونفسي في الكلام. فكان لرصد التشبيه عامة ، والتشبيه القرآني خاصة ، أثر كبير في الكشف عن مداليل الآيات القرآنية ، واستجلاء النصوص الأدبية. فكان للتَّشبيه ذكرٌ في كتب القدماء من اللغويين والبلاغيين ، لما له من أهمية بيانية.

و(التَّشبيه) لغةً : التمثيل ، " الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبيهِ : المِثْلُ ، والجمعُ (أشباه)، و(أشْبَهَ الشيءَ) ماثَلَهُ . و(أشبهتَ فلاناً وشابهتَهُ) و (اشتَبَهَ عليَّ) و(تَشابَهَ الشيئانِ واشتَبَها) : أشْبَهَ كُلٌّ منهما صاحِبَهُ ، و(شبَّهَهُ إيّاه) و(شَبَّهَهُ بهِ): مثَّلَهُ ، و(التشبيهُ) و(التمثيلُ) واحدٌ " [(١)].

فالواضح أنَّ التَّشبيه هو ربطٌ بين أمرين . وقد اهتم علماء البلاغة بـ(التشبيه) ، فأفاضوا في الحديث عنه ، لما له من أثر في المتلقِّي للبيت الشعري او الآية القرآنية . فأوردوا له حدودًا كثيرة ، منها ما قاله قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ): " إنّ الشَّيءَ لايُشَبَّهُ بِنفسه ولا بِغيرهِ من كُلِّ الجهات ، إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتَّة ، إتَّحدا فصار الاثنان واحدًا. فبقي أن يكون التّشبيه إنّما يقع بين شيئين بينهما اشتراكٌ في معانٍ تعمُّهما ويوصفان بها ، وافتراقٌ في أشياء ينفردُ كُلٌّ واحدٍ منهما عن صاحبه بصفتها. واذا كان الأمرُ كذلك ، فأحسنُ التَّشبيه هو ما وقع بين الشَّيئين اشتراكُهما في الصِّفات أكثر من انفرادِهما فيها ، حتى يُدني بهما الى حال الاتحاد" [(٢)] .

---

(١) لسان العرب (شبه).

(٢) نقد الشعر ١٢٤.

وقال فيه ابن رشيق (٤٥٦هـ) : هو " صفةُ الشَّيء بما قاربَه وشاكلَه من جهةٍ واحدةٍ ، أو جهات كثيرة ، لا مِن جميع جهاته، لأنَّه لو ناسبه مناسبة كُلِّيَّة لكان إيَّاهُ" [١] .

وفي ضوءِ ماتقدَّم فالتشبيه يُدْرَكُ إمّا بالحِسِّ وإمّا بالعقلِ ، فالصورة إمّا أنْ تكونَ حسّيّةً ملموسةً ، وإمّا أن تكون عقليَّةً مجرّدةً ، تحتاجُ إلى تأويلٍ في إدراكها، وخيالٍ لاحتوائها. وهذا التشبيه إمّا أن يكون بعيدًا أو قريبًا ، يقول عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ) في التشبيهات القرآنية : " إذا استقريت التَّشبيهات وجدتَ التباعد بين الشيئين كلّما كان أشد كانت النفوسُ أعجَبَ، وكانت النفوس لها أطربَ، وكان مكانها من أن تُحدِثَ الأريحيةَ أقرب" [٢] . فالتَّشبيهُ عنصرٌ أساسيٌ في التركيب الجملي، والمعنى العام المراد لايتمُّ إلاّ به ، فالنّص الأدبي الممتاز لا يقصد إلى التشبيه بوصفه تشبيهًا فحسب ، بل بوصفه حاجةً فنّيّةً تبنى عليها ضرورة الصياغة والتركيب .

فاللجوء الى التشبيه إنما هو لإصابة المعنى ، وتقرير حال المشبّه به في نفس السامع، وإيضاح معالم المجهول بالمعلوم الشائع ، لأنّ التّشبيه قياسُ مجهولٍ على معلوم شائع ، يقول السكاكي (٦٢٦هـ) : " إنّ التّشبيه مستدعٍ طرفين : مشَبَّهاً ومشَبَّهاً به ، اشتراكاً بينهما في وجه ، وافتراقاً من آخر ، أنْ يشتركا في الحقيقة، ويختلفا في الصفة ، أو بالعكس " [٣] .

---

(١) العمدة ٢٨٦/١.

(٢) أسرار البلاغة ١٤٦.

(٣) مفتاح العلوم ١٧٧.

والقدر الجامع لنظرة البلاغيين الى التشبيه هو التَّفَنُّن بإبراز الصورة الفنيّة للشكل ، واستقراء دّلالتها الحسية، وذلك عن طريق تسخير قدرة التشبيه الخارقـــة في تلوين الشكل بظلال مبتكرة، وأزياء متنوعة لم تقع بحس قبل التشبيه، ولم تجرِ بها العادة ، ولاتعرف بداهة إلاّ بملاحظة مجموعة العلاقات الفنية فـــي التـــشبيه، وعند ضم بعضها الى البعض الآخر تبدو محسوسة ذات قوّة وصفيّة، ومن هنـــا تدرك القدرة الابداعيّة للتشبيه في تكثيف الصورة. وهـــذا ماجعـــل ابـــن الأثيـــر (٦٣٧هــ) يقول : " إنَّك إذا مثّلتَ الشيء بالشيء فإنّما تقصد به الخيال في النّفس بصورة المشبَّه به أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب ، فيه أو عنـــه ، ألا ترى أنَّك إذا شبَّهتَ صورةً بصورة هي أحسن منها ، كان ذلك مثبتاً فـــي خيـــال حسن يدعو الى الترغيب فيها، وكذلك إذا شبَّهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالاً يدعو الى التّنفير منها" (١) .

فابن الأثير قد أفاد بأنّ التشبيهات القرآنية قد ربطت جانـــب الحـــس الـــى الجانب العاطفي في تخيّل الصورة في النفس وإثارة الإنفعالات الوجدانية حولهـــا في مجالين متقابلين ، هما الترغيب والتنفير ، تماشياً مع اعتياد العرب على ذلك. وهذا ماجعل ابن الاثير (٦٣٧هــ) يعتقد أنَّ التشبيه : " يجمع صفات ثلاث ، هي: المبالغة ، والبيان ، والاعجاز" (٢) ، لهذا فإنّ الحاجة ماسّة الى التشبيه في مهمّتِـــهِ التصويريّة بالنسبة للتشبيهات القرآنية ، نظراً لخصائصه المتميِّزة .

إنَّ القرآن الكريم يستمدُّ عناصره في التشبيه مـــن الطبيعـــة، مـــن نباتهـــا وحيوانها وجمادها ، ليشبِّهَ به المعنى الذي يُرادُ قولهُ . فالتَّشبيهُ بعد كُلِّ هـــذا هـــو

---

(١) المثل السائر ٣٩٤/١.

(٢) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

ماقاله القزويني (٧٣٩هـ) : " الدّلالة على مشاركة آخر لأمر في معنى " [١] ، والدّلالة تعني كون الشيء بحالة يلزم العلم به ، وفي هذا اقتراب التشبيه من نظرة المحدّثين له. إذ إنَّ الدّلالة هي أساس التلازم بين أمرين، فإن كان وصفاً فالدّلالة وصفية ، وإن كان طبيعياً فالدّلالة طبيعيّة، وإن كان عقلاً فالدّلالة عقليّة [٢] .

في قوله تعالى : ﴿ ***مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ*** ﴾ [٣] ، وردت (مشكاة) في تشبيه النور الإلهي ، وهو من التشبيه المقلوب، لأن حقيقة نور (المشكاة) هو جزء من النور العام. إلاّ أنَّ التعبير القرآني جاء بالصورة معكوسةً فشبّه النورَ بالمشكاة [٤] . إذ نجد في ذلك، بدون أدنى شك، تشبيهاً للأعلى بالأدنى، وللمتكامل بالناقص، وللثابت بالمتلاشي، ولكنه في الواقع تقريب للمعنى من أذهان المخاطبين، وتصوير لأمثلة نوره التي لايدانيها شيء بما تدركه الحواس. إلاّ أنّ هذه الصورة إنّما هي الأوضح في ذهن العرب ، لأنَّ التشبيه فيها يقوم على أساس تشبيه الصورة المجهولة التي لا تدانى بالصورة المعروفة لدى الناس. وطالما أنَّ المشكاة هي الكوّة التي ليست بنافذة ،

---

(١) الإيضاح ٢١٣ ، وينظر: التلخيص ٢٣٨.

(٢) ينظر: علم الدّلالة عند العرب ٤٢ ، والدّلالة ، أحمد مختار ١٥.

(٣) سورة النور ٣٥.

(٤) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني ١٩٣.

وهذا مثل ضربه الله لقلب المؤمن والإيمان فيه [1] . فـ(مَثَلُ نورِهِ) أي : صـفة نوره العجيبةُ الشأن في الإضاءة كـ(مشكاة) أي : كصفة مشكاة وهي الكوّة [2].

ومثل ذلك قوله تعـالى : ﴿ ***كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُـؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَـهُ صَلْدًا*** ﴾ [3] ، فـ (صَفوان) : حَجَرٌ أمْلَس [4] . أمّا في السياق القرآنـي فـشكّلت هذه اللّفظة صورة عبّرت عن المرائي في الإنفاق ، فشبّه حالَهُ بحال حجرٍ أملـس عليه تراب ، نزل عليه المطر فتحجر ، فقيل : ((فَمَثَله كمثل صَفوان)) ، فمثَّلـه ونفقَته التي لا ينتفع بها البتَّة بصفوان ، أي : بحجر أملس عليه تراب [5] .

والذي جوَّز هذا التشبيه أنّه معقودٌ على عدم الإنتفـاع ، فنفقـةُ المنـافق كالتراب في رجاء النَّفع منها بالأجر والإثبات ، ورياؤه كالوابـل المُـذهِب لـه . فجيء بهذه الآية تهديداً للمنافقين الذين يُبطِلون صدقاتِهم بالمَنِّ والأذى [6] .

ومن ألفاظ الطبيعة التي صوّر بها القرآنُ والمعاني : (الغيث) ، وهي فـي اللّغة بمعنى : المطر ، إذ فسّرت معاجم اللغة (الغيث) و(المطر) أحَدهما بالآخر ، ولم تجعل بينهما فرقاً، جاء في لسان العرب : (الغيث) و(المطـر) واحـد ، أي:

---

(1) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٣١١/١ ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٧٣، ومعاني القرآن ، للفرَّاء ٢٥٢/٢.

(2) ينظر: الكشاف ٦٧/٣.

(3) سورة البقرة ٢٦٤.

(4) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ١٣٨/١.

(5) ينظر: الكشاف ٣٩٤/١.

(6) ينظر: روح المعاني ٣٥/٣ ، وتفسير النَّسفي ١٢٩/١.

الماء المنسكب من السماء [1] ، بينما فرّق القرآن بين (المطـر) و(الغيـث) في الاستعمال ، فجعل لكلٍ منهما دّلالةً مميَّزةً ، فـ (الغيث) يُعَبَّرُ بـه عـن المـاء المنسكب من السماء للرحمة والنماء والري والعطاء . ويعبَّرُ بـ (المطر) عـن العذاب النازل بالكافرين [2] .

وقد وردت كلمة (الغيث) بمعناها الحقيقي في قوله تعـالى : ﴿ ***إِنَّ اللَّـهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ*** ﴾ [3]، وقوله تعالى : ﴿ ***وَهُوَ الَّـذِي يُنَـزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا*** ﴾ [4] ، فـ (الغيث) هنا : الماءُ النازلُ من السَّماءِ رحمةً بالعباد.

أمّا قوله تعالى : ﴿***اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الامْوَالِ وَالاوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا*** ﴾ [5] ، فشبَّه حـال الـدنيا وتكالـب النـاس عليهـا ، وتفاخرهم بما لايبقى ، وتكاثرهم بما لايغني ، بنبـات أنبتـه الغيـث فاسـتوى ، فأعجب به الكفَارُ الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعـث الله عليه الآفة فهاج واصفرَّ وصار حطاماً ، عقوبة لهم على جحودهم [6].

---

(1) ينظر: لسان العرب (غوث) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٣٧٩.

(2) ينظر: التطور الدّلالي بين لغة الشعر والقرآن ٥٠٧.

(3) سورة لقمان ٣٤.

(4) سورة الشورى ٢٨.

(5) سورة الحديد ٢٠.

(6) ينظر: الكشاف ٦٥/٤ ، وتفسير النَّسفي ١٨/٤ ، وروح المعاني ١٨٤/٢٧.

ومثل ذلك كثير في تشبيه حال الدنيا وسرعة تقضّيها وعدم ثباتهــا علـــى حال، ومن جملة الألفاظ التي جعلها القرآن معادلةً للحياة الدنيا كلمة (الماء) ، ففي قوله تعالى : ﴿ ***وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِــنْ الــسَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الارْضِ*** ﴾ [1] ، وقوله ايضاً: ﴿ ***إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الارْضِ*** ﴾ [2] ، (المــاء) هــو المعــادل الموضوعي لــ(الحياة) ، فانتقلت اللفظة عن طريق التَّشبيه من حالة الى حالة. إذ شبّه حال الدنيا بالماء فيما يكون من المتاع ثم الإنقطاع ، وكذلك كــون المــاء إذا جرى في مكان غادره الى غيره إذ لايمكن الإمساك به [3] . ولعلّ مردّ ذلك إلــى أنَّ حال النبات المسقي بالماء ومايضفيه عليه من بهاء وحسن ونضارة كحال الدُّنيا والإستمتاع بملذّاتها [4] .

وجاءت صورةُ (الزرع الذي أخرج شطأهُ) مشبّهًا به لرســول الله والــذين معه ، في قوله تعالى : ﴿ ***مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الانْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الــزُّرَّاعَ***

---

(١) سورة الكهف ٤٥.

(٢) سورة يونس ٢٤.

(٣) ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن ٩١.

(٤) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٨١/١ ، وروح المعاني ١٥/٢٩، ومعاني القرآن للنحاس ٢٨٧/٣.

لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [1] ، فكلمة (شطأه) في اللغة تعني: شَطْءَ الزَّرع أي : ماخرجَ منه وتفرَّع عنه ، أي : في جانبيه، وجمعه (أشطاء)[2] .

أمّا في السياق القرآني فهي نعت للمؤمنين في كل زمان ، في التوارة وفي الانجيل وفي القرآن [3] ، فهم بوادر خير ، تبدأ صغيرة ثم تكبر وتنتشر ، لذا شبّههم بـ (الشطء) ، فقال ﴿ ***كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ*** ﴾ أي : فراخَه وصغاره ، ثم قوي فاستغلظ ، فصار من الرقة الى الغلظ ، فاستقام [4] .

ومن الألفاظ التي رسم بها القرآن صورة لشيء غير معهود لفظتا (المُهْل) و (العِهْن) في قوله تعالى : ﴿ ***يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ*** ﴾ [5] ، فكلمة (المُهل) في اللغة تعني: ضَربًا من القطران[6] ، وولفظة (العِهن) تعني : الصُّوف[7].

إنَّ الصور التي رسمها القرآن لمشاهد يوم القيامة صور جميلة ومؤثرة لأنَّها تخاطب النفس البشرية وتستفز أحاسيسَها وتَشغَلُ حواسَّها. ففي الآية السالفة الذكر وصف للطبيعة وكيفيتها في اليوم الموعود . أمّا وصفُ الناس وأحوالهم في

---

(١) سورة الفتح ٢٩.

(٢) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٦٨ ، والتبيان في تفسير غريب القرآن ٣٨٤/١.

(٣) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٥١٥/٦.

(٤) ينظر: الكشاف ٥٥١/٣ ، وتفسير النَّسفي ١٦٠/٤.

(٥) سورة المعارج ٨-٩.

(٦) ينظر: لسان العرب (مهل).

(٧) ينظر: المصدر نفسه (عهن).

ذلك اليوم فخيرُ مايمثلهُ قولــه تعــالى: ﴿ ***يَــوْمَ يَكُــونُ النَّــاسُ كَــالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ*** ﴾[1]، فــ(الفراش) من الحيوانات الصغيرة الطائرة المنتشرة [2] .

أمّا ما تشكِّلُه هذه الحيوانات في النّص القرآني فصورة جميلة ، إذ شــبّهت الناس في حالِ فزعهم بهذه الحيوانات ، فــ (الفَرَاشُ) هنــا : (النــاسُ) ، يــوم القيامة في الكثرة ، والإنتشار ، والضعف ، والذّلة ، والتطاير الى الداعي من كل جانب ، كما يتطاير الفراش الى النارِ . وسمِّي فراشاً لتفرُّشه وانتشاره [3] .

---

[1] سورة القارعة ٤.

[2] ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ٣٨٩.

[3] ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٦٦/١ ، وروح المعاني٢٢٠/٣٠.

المبحث الثالث
تطوّر الاستعارةِ في القرآنِ الكريم

تُعدُّ الاستعارة لوناً من ألوان التصوير في القــرآن ، وهـــي مـــن الأدوات المفضلة فيه، ومن خلالها كان يعبِّر عن المعنى الذهني والحالة النفسية، بالصورة المحسوسة ، فهو يعمد الى هذه الصورة التي رسمها ، فيعطيها ألوانها وظلالها، ثم لايلبث بعد ذلك أن يضيف اليها الحركة ، فالحوار ، فاذا هي شاخصة تسعى.

والاستعارةُ لغةً : تداول الاشياء بين الناس. فقد جاء في:"(قد أعارَهُ الشَّيءَ) و (أعارَهُ منه) و (عاوَرَهُ إيّاهُ) . و(المعـــاورةُ) و (التَّعـــاورُ) : شِـــبْهُ المداولـــةِ، والتّداوُل في الشَّيء يكون بين اثنين ... و (تَعَوّرَ) و (استعارَ) : طلـــب العاريَـــةَ. و(استعارَهُ الشّيءَ) و (استعارَهُ منه) : طَلَبَ منه ان يُعيْرَهُ إيّاه" [1] .

واستعارة الألفاظ هو نوع من التَّطور الـــدّلالي ، يحـــصل بنقـــل الالفـــاظ الموضوعة للدّلالة على الأمور الماديّة المحسوسة للتعبير عن الأمور المعنويـــة، فهي نوع من المجاز ، تقوم العلاقة فيه بين المعنى الاول للكلمة ، ومعناها الثاني، على المشابهة.

فالاستعارة كما حدها الجاحظ (٢٥٥هــ) هي : " تسمية الشّيءِ باسم غيـــره إذا قام مقامَه " [2] . وذكرها ابن قتيبة (٢٧٦هــ) في كتابه (تأويل مشكل القرآن) بقوله : " العرب تَستَعيرُ الكلمة فتضعُها مكان الكلمة اذا كان المُسمَّى بها بسببٍ من الأُخرى ، أو مجازاً لها ، أو مشاكلاً " [3]. فالاستعارة في مفهوم القـــدماء : هـــي

---

(١) لسان العرب (عور).

(٢) البيان والتبيين ١٥٣/١.

(٣) تأويل مشكل القرآن ١٠٢.

استعارة لفظة مكان لفظة أخرى ، لعلاقة المشابهة بين اللفظتين ، كما أبانت تفسيراتهم للآيات القرآنية بيانياً، وماكَشَفَ عنه شرحهم للشواهد الشعرية دلالياً. وعندها يمكننا الوقوف على تلك الأساليب التَّعبيرية بما حملته تلك الآيات والشواهد على وفق مذهب العرب في كلامهم.

وقد اهتمَّت الكتب البلاغية ، التي تحدَّثت عن الاعجاز القرآني ، بهذا المصطلح، وبيَّنت الميزة في استعماله، وحلَّلت جمالية الآيات الواردة فيه.

فأشار الرُّماني (٣٨٦هـ) إليها بأنّها : " تعليق العبارة على غير ماوُضِعَتْ له في أصل اللغة على جهة النّقل للإبانة" [١] . إلا أنّ الجرجاني (٤٧١هـ) يرى أنّ هذا الحَدّ ونحوه ممّا يُفَسِّر (الاستعارة) بنقل العبارة عمّا وُضِعَتْ له ، لايصحُّ الأخذُ به ، لوقوع ما يوهم الخطأ في عبادته ، إذ يقول : " وإطلاقهم في (الاستعارة) أنَّها "نقلٌ للعبارة عمّا وُضِعَت له " ، من ذلك فلا يصح الأخذُ به ؛ وذلك أنّك إذا كنت لاتُطلق اسم (الاسد) على (الرجل) إلاّ من بعد أن تُدخِلَه في جنس الأسود ، من الجهة التي بيّنّا ، لم تكن قد نقلتَ الاسم عمّا وُضِعَ له بالحقيقة، لأنَّك إنَّما تكون ناقلاً له في حال ما إذا أنتَ أخرجتَ معناه الأصلي من أن يكون مقصودَكَ، ونفضتَ منه يدكَ ، فأمّا أن تكون ناقلا له عن معناه، مع إرادة معناه، فمحالٌ مُتناقضٌ" [٢] . ويسمِّيها ابن وهب (٣٣٥هـ) التّوسُّع والمجاز، وعلّل ظهورَها في الكلام بقوله : " وأمَّا الاستعارةُ فإنّما أُحتيج أليها في كلام العرب، لأنّ ألفاظهم أكثر من معانيهم، وليس هذا في لسانٍ غير لسانهم ، فهم يعبِّرون عن المعنى الواحد بعباراتٍ كثيرة ، رُبَّما كانت مفردةً له ، ورُبَّما كانت مشتركةً بينَه

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ٧٩.

(٢) دلائل الإعجاز ٤٣٥.

وبينَ غيرِه ، وربُّما استعملوا بعض ذلك في موضع بعض على التوسُّع والمجاز"[١] .

وهذا ما فَضَّله العسكري (٣٩٥هـ) بقوله : " هي نقلُ العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللّغة الى غيره لغرضٍ ، وذلك الغرضُ إمَّا أن يكون شرحَ المعنى وفضلَ الابانةِ عنه، أو تأكيدَه والمبالغة فيه، أو الاشارة إليه بالقليل من اللّفظ ، أو تحسين المَعرِض الذي يبرز فيه ، وهذه الأوصاف موجودةٌ في الاستعارة المصيبة، ولولا أنَّ الاستعارة المصيبة تتضمَّن الحقيقة مع زيادة فائدة، لكانت الحقيقة أولى منها استعمالاً" [٢] .

وهذا ما أكَّده عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) بقوله : " الاستعارةُ أن تريد تشبيه الشّيء بالشّيء ، فتَدَعُ أن تُفصِح بالتشبيه وتُظهِرَهُ ، وتَجيءُ الى اسم المُشبَّه به ، فتُعيرُهُ المُشبَّه وتُجريه عليه" [٣] .

فلو تتبَّعنا البُعد الاستعاري كما يراه عبد القاهر، فلابُدّ من إدراك معنى اللفظ، وايجاد العلاقة بين المعنى واللفظ، فالاستعارةُ عنده قائمةٌ على التَّشبيه، وهي كذلك عند البلاغيين الذين جاءوا بعده، ولكنَّ الفرق بينها وبين التَّشبيه يتجلَّى بأنَّها قائمة على حذف أحد طرفيه ، وبقاء الآخر ، للمشابهة بين الموجود والمحذوف، في حين أنّ التَّشبيه يبقى طرفاه وإن حُذِفَت الأداة، ويُسمّى بليغاً عند بعضهم[٤]. وكذلك هي عند ابن الاثير (٦٣٧هـ) ، إذ قال عنها : إنّها : " نقل المعنى من لفظ

---

(١) البرهان في وجوه البيان ١٤٢.

(٢) كتاب الصناعتين ٢٦٨.

(٣) دلائل الإعجاز ٥٣.

(٤) أسرار البلاغة ٢٩٨.

الى لفظ ، لمشاركةٍ بينهما ، مع طيٍّ ذكر المنقول إليه. لأنَّه إذا احتُرِزَ فيه هذا الإحتراز أُختُصَّ بالاستعارةِ ، وكان حدّاً لها دون التَّشبيه" [١] . وهذا مانجده أيضاً في كلام السَّكَّاكي (٦٢٦هـ) عن الاستعارة ، فهي: " أن تذكر أحَدَ طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخرَ ، مُدَّعياً دخول المُشبَّه في جِنْسِ المُشبَّه به ، دالاً على ذلك بإثباتك للمُشبَّه مايخصُّ المُشبَّه به " [٢] .

فالألفاظ المستعارة ألفاظ موحيةٌ ، لأنَّها أصدقُ أداةً تجعل القاريءَ يُحسُّ بالمعنى أكمل أحساسٍ وأوفاه ، وتصوّر المنظرَ للعين ، وتنقل الصورة للأُذن، وتجعلُ الأمر المعنويَّ ملموساً محسوساً. وحَسبُنا أن نقف على بعض هذه الألفاظ المستعارة الموحية ، ونتبيَّن سرَّ اختيارِها . إذ إنَّ إحصاء ماورد منها في القرآن الكريم منها ، لا يؤدِّي الى بيان الجمال الفنِّي في هذا اللّون من التصوير، ومن هنا يمكن تبيان الاسرار التي دَعَت الى إيثار الاستعارة على الكلمة الحقيقيَّة.

ففي قوله تعالى : ﴿ ***أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*** ﴾[٣] ، وقوله ايضاً : ﴿ ***وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا*** ﴾ [٤] . نجد أنَّ كلمة (مَيْتاً) وردت في القُرآن الكريم على سبيل المجاز ، عدا قوله تعالى : ﴿***أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ***

---

[١] المثل السائر ٣٦٥/١.

[٢] مفتاح العلوم ٥٩٩.

[٣] سورة الأنعام ١٢٢.

[٤] سورة الزخرف ١١.

مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [1] . إذ استعمل كلمة (ميتاً) هنا للدلالة على الموت الحقيقي ، لأنَّ الموت هو فقدانُ الحياة. بينما نجدُ في غيرها من الآيات القرآنيـة أنَّ كلمـة (مَيْتاً) في كلِّ سياق لها دّلالةٌ مجازيّة ، ففي الآية الأولى دَلَّت على (الكافر الضّال) على سبيل الاستعارة . فالموتُ هنا ليس الهلاكَ والفناءَ المعروفين ، بل هو مـوتٌ من نوعٍ آخر، يُصيبُ الروح ويُعَطِّلُها ، وقد كَثُرَ التّقابل في ألفاظِ (الحياة والموت) في القرآن الكريم على سبيل الاستعارة بدلاً من (الضلالة والهـدى) [2] ، وهـذا تطوّرٌ في دلالات الألفاظ على سبيل الاستعارة [3] .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ **فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا** ﴾ ، فالبلـدُ لايمـوتُ ، وإنَّما الموت هنا دّلالةٌ على القَحطِ والجفاف ، اللذين بـسببهما يمـوت النبـات ، وبموته يموت الحيوانُ والإنسانُ اللذان يقتاتان عليه، فلفظة (مَيتاً) في هـذه الآيـة خرجت من معناها الحقيقي الى معنى آخر مجازي.

فالاستعارة تحوُّلٌ في مجال الدّلالة ، لوجود تشابه بين المدلولين . ففي قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ** ﴾ [4] ، كلمة (طغـى) هنـا استعارةٌ ، لأنَّها تُطلقُ في اللّغة على تجاوز الحَدِّ ، فيقال : (طَغَى يَطْغِى وطَغْوَانـاً وطُغْيَاناً) ، و(أَطْغَاهُ كذا) : حَمَلَه علـى الطُّغْيَـان ، وذلـك تجـاوز الحـدِّ فـي العصيان[5]. وكذلك هو معناها في قوله تعالى : ﴿ **كَلا إِنَّ الانسَانَ لَيَطْغَى** ﴾ [1]،

---

(1) سورة الحجرات ١٢.

(2) ينظر: ألفاظ الهدى والضَّلال في القرآن الكريم (دراسة دلالية) ١٥٦.

(3) ينظر: الكشاف ٦٢/٢.

(4) سورة الحاقة ١١.

(5) ينظر: لسان العرب (طغى) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٣١٤.

ولكنّها في قوله تعالى : ﴿ ***إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ*** ﴾ قد أُستعيرت لتجاوز الماء الحدَّ المألوف . وكذلك قوله تعالى: ﴿ ***مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى*** ﴾ [٢] فاستعيرت كلمة (طَغَى) للبصر كما استُعيرَت للماء لتشابه عُلُوِّ الماء وارتفاعه المادي لذلك الطغيان المعنوي الذي يكمن في نفسية الإنسان المتعالي المتغطرس الظالم . فاستُعيرت هذه الكلمة لتُطلق على الماء لتجاوزه حدَّهُ المعتاد، للإيحاء بأنَّ وراء هذهِ الاستعارة أمرًا عظيماً ، وهو العذاب الشديد الذي حلَّ بقوم نوح عليه السلام كما يحكيه القرآن[٣] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ ***وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا*** ﴾[٤]، فكلمة (اشتعل) هنا وردت لمرة واحدة في القرآن الكريم على سبيل الاستعارة، فأعطت معنى (امتلأ)، لأنَّ (اشتعل) في اللغة بمعنى: إلتهبَ ، و(الشَّعْلُ) : التهابُ النَّارِ في الشَّيءِ. فجاء قوله تعالى : ﴿ ***وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا*** ﴾ تشبيهاً لانتشار الشيب بالإشتعال من حيث اللَّون ، ويقال : (اشْتَعَلَ فُلانٌ غَضَبَاً) تشبيهاً به من حيث الحركة [٥] . وتشبيه الشَّيب بشواظِ النار في بياضه ، وإنارته ، وانتشاره في الشعر ، وفشوِّه فيه، وأخذه منه كلَّ مأخذ ، ثمّ إخراجه مخرج الاستعارة . ثُمّ إسناد الإشتعال الى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأخرج الشيب مميزاً لذلك [٦] . فبياض الشيب

---

(١) سورة العلق ٦.
(٢) سورة النجم ١٧.
(٣) ينظر: الكشاف ١٥٠/٤ ، والنكت في إعجاز القرآن ٨٧ .
(٤) سورة مريم ٤.
(٥) ينظر: لسان العرب (شعل) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٦٩.
(٦) ينظر: الكشاف ٥٠٢/٢.

شُبِّه بإنارةِ شواظِّ النار المتصاعدة عند الاشتعال ، لذا استُعيرت كلمة (اشتعل) من معناها لتقترن بالرأس والشّيب [1] . وقد رُكِّزَ على صورة الاشتعال التي لم توضع في أصل اللغة للشَّيب . إذ الاشتعال للنّار، ولكن لمّا كان يُلحَظُ في الاشتعال أنَّه يحيل المادة الى غير حالتها الأولى، و(الشّيب) الذي يُحيل الرأس الى غير حالته الطبيعية فقد قُرنَ بينهما لوجود التشابه بين العمليتين . فالمشَّبه به (النار) أقوى وأظهر ، لذلك زادت الاستعارةُ مدلولَ الآية القرآنية بياناً ووضوحاً [2] .

ومن الألفاظ المنتقلة من معناها الحقيقي ، الى معنى آخر توضِّحه الصورة المُتَخَيَّلَةُ للمعنى ، كلمة (عقيم) كما في قوله تعالى : ﴿ ***حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ*** ﴾ [3] ، وقوله أيضاً: ﴿ ***وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ*** ﴾ [4] ، فكلمة (عقيم) في هاتين الآيتين مستعارة ، خرجت عن معناها الحقيقي الى معنًى مجازي ، فأعطت معنى (التَّدمير) . وفي مواضِعَ أُخَرَ استُعمِلت بمعناها الحقيقي ، كما في قوله تعالى : ﴿ ***فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ*** ﴾ [5] ، وقوله تعالى : ﴿ ***أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا*** ﴾ [6] ، فهي هنا بمعنى مَنْ لاتَلِدُ ، كما جاءت في اللغة، إذ أصلُ (عقيم) من (العُقْم) وهو : اليَبَسُ المانعُ من

---

(1) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٤/٣٠٨ ، وروح المعاني ١٦/٦٠.

(2) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم ٦٥.

(3) سورة الحج ٥٥.

(4) سورة الذاريات ٤١.

(5) سورة الذاريات ٢٩.

(6) سورة الشورى ٥٠.

قبولِ الأثرِ . يُقال : (عَقُمَتْ مفاصِلُهُ) و (داءٌ عُقامٌ) : لايقبلُ البُرءَ، و(العقيم مـــن النساء) التي لاتنجب أولادًا، يقال (عقمت المرأةُ والرَّحمُ) [1] .

أمّا في السياق القرآني الآنف الذكر فكلمةُ (عقيم) صفةٌ للريح التي أرســـلها الله على قوم عاد لَمَّا عتوا عن أمرِ ربهم فَدَمَّرَتهم تدميرا. و(العُقْم) الذي وصـــفَ الله به الريحَ هو (التدمير) فاستعار كلمة (عقيم) لتغذية الصورة القرآنيّة بجماليّـــة فنيّة . إذ أوحت الاستعارة باستئصال قوم عاد عن بكرة أبيهم ، فلم يبقَ منهم أحـــدٌ في مأمن ، حتى الحيوان والنبات، فهو تـــدمير شـــامل يـــوحي بـــالزَّوال التَّـــام والإنقطاع[2] .

وعن ابن عباس ﵁ أنَّه كان يقولُ إذا هاجت الرّيح: (اللَّهُمّ اجعلها رياحـــاً ولاتَجعَلها ريحاً) ، وكلامهُ مبنيٌّ على أنَّ (الرياحَ) للرحمـــة ، والـــريح للعـــذاب. وتحقيقُ ذلك مجيءُ الجمع في آيات الرحمة ، والمفرد في آيات العذاب ، كقولـــه تعالى: ﴿***وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ*** ﴾ [3] ، وضدُّها قوله تعالى : ﴿ ***وَفِي عَـــادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ***﴾ [4] ، (فالريح العقيم) : هي الريح الـــشديدة التـــي لاتُلقح شيئاً [5] . فكأنَّه شبَّه عدم تضَمُّن المنفعةِ بعقمِ المرأة التي لاتلـــدُ ، فـــسُمِّيت الرِّيح عقيماً لأنّها أهلكتهم وقطعت صِلَتَهم ، لما فيه من إذهاب النَّسل، فاستُعير من

---

(1) ينظر: لسان العرب (عقم) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٣٥٥.
(2) ينظر: النُكت في إعجاز القرآن ٨٩.
(3) سورة الحجر ٢٢.
(4) سورة الذاريات ٤١.
(5) ينظر: روح المعاني ١٥/٢٧ ، وتفسير النَّسفي ٢/٢٤٠.

المُشبَّه به لفظُ (العقيم) للمشبّه (الرّيح) التي لاخيرَ فيها من إنشاء مطـــر أو إلقـــاح شجر ، وهي ريح الهلاك [(١)] .

وفضل الاستعارة على الحقيقة يكمن فيما تُثيرهُ الصورةُ المُشَكَّلةُ من دلالـــة نفسيّة تؤثِّر في السامع أو القارئ ، لأنَّ كلمة (عقيم) ذات أثر أقوى في السَّمع، إذ حقَّق إنتقالُ دلالة إستعارة (عقيم) ، من معناها الأول من عدم إنجاب المرأة ، الى الريح ، أثراً نفسيّاً. فعمليّةُ الجَدبِ هنا تولِّدُ الإمتعاض والحزنَ، فهي تعني انقطاعَ تجدُّدِ الحياة. وهنا نجد أنَّ العبارة القُرآنية اكتسبت معانيَ متجدِّدة أضفت الديمومة على النَّصِّ القرآني [(٢)] .

فاستعارة الكلمة تخلقُ صورةً حسيّةً جميلةً تُضفي على النَّص القُرآني طابعَ التجسيد ، كما في قوله تعـــالى : ﴿ ***وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُـــوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ*** ﴾ [(٣)] . فكلمـــة (الحبل) هنا استعارة للعهد والدين الجديد. وهي تعني في اللغة : الرِّبـــاط ، وورد مستعملاً في معناه الحقيقي في قوله تعالى: ﴿ ***فِي جِيْدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ*** ﴾ [(٤)] . وطالما أنَّ أصل (الحبل) في اللغة بمعنى : السبب ، ومنه سُمِّي (حبل البئر) ، لأنَّه السَّببُ الذي يوصَلُ به الى الماء الذي فيه ، لذا قيل في قوله تعالى: ﴿ ***وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا*** ﴾ أي : تمسَّكوا بـــالقرآن، لقـــول الرســـول ﷺ :

---

(١) ينظر: الكشاف ١٩/٤.

(٢) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم ٦١.

(٣) سورة آل عمران ١٠٣.

(٤) سورة المسد ٥.

(القرآنُ حبلُ اللهِ المتينُ لاتنقضي عجائبُه)[1] . والإستعارة تتمثـلُ فـي (الحبـل) المضاف الى الله ﷻ ، فالحبل : العهد . وقال الـشريف الرضـي : " (الحبـال): العهود في كلام العرب ، وإنَّما سُمِّيت بذلك لأنَّ المتعلِّق بها ينجو ممّـا يخـاف ، كالمتثبِّت بالحبل إذا وقعَ في غمرة، أو ارتكسَ في هوَّة. فالعهود يُستأمَن بها مـن المخاوف، والحِبال يُستَنقذ بها من المتالف. فلـذلك وقـع التـشابه بينهمـا " [2] . فاستُعيرَ (الحبل) على هذا الوجه ليُطلق على (دين الله وعهده) لأنَّـه يُنَجِّـي مـن الضياع ، وهذا تمثيلٌ للمعنى الذِّهني المُجَرَّد بصورة حسِّيَّةٍ مؤثرة ، فلا آمَـنَ ولا أوثَقَ منَ التَّعَلُّق بحبلِ الله . إذ إنَّ التَّمَسُّكَ والإعتصامَ يطرد المخـاوف والمهالـكَ عن طريق الانسان ، وهو المأمن الذي يجد الانسان في ظلِّه الطمأنينة والـسعادةَ والأمنَ[3] . فالحبلُ يستعار لكل ما يُتَوَصَّلُ به الى شـيءٍ مّـا ، وفـي قولـه ﷻ ﴿***وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا***﴾ ، استُعير (الحبل) ليُتَوصَّل به إلى الله ، مـن خلال القرآن والعقل وغير ذلك . وفي قوله تعالى : ﴿ ***ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ*** ﴾[4] تنبيه إلى أنَّ الكافر يحتـاج الى عهدين : عهد من الله وعهد من الناس [5] .

---

(١) ينظر: روح المعاني ١٠٠/٣٠ ، وتفسير النَّسفي ١٧٠/١.

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٢٤.

(٣) ينظر: الكشاف ٣٠٤/١.

(٤) سورة آل عمران ١١٢.

(٥) ينظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن ١٠٥.

ومن الاستعارات القرآنية التي تُخرِجُ المعاني مخرجاً مرئيّاً مسموعاً مؤثِّراً قوله تعالى : ﴿ ***فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ*** ﴾ [1] ، فكلمة (الصَّدع) وردت بهذه الصيغة مرة واحدة في القرآن على سبيل المجاز ، لأنَّ (الصَّدع) في اللغة : هو الشِّقُّ في الأجسام الصُّلبة ، كالزجاج والحديد ونحوهما[2].

بينما استُعيرَت كلمةُ (فاصدَع) لمعنى (فاجْهَرْ) أو (بَلِّغْ) ، اعتماداً على التَّشبيه ، لأنَّ (الصَّدعَ) في حقيقته " للأجسام ، لا للخطاب والكلام ... ومن ذلك (صَدْعُ الزجاجةِ) إذا استبانَ فيها الكسرُ " [3] . قوله تعالى : ﴿ ***وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ*** ﴾ [4] فـ (الصَّدْعُ) هنا استُعملَ في معناه الحقيقي ، في حين نُقِلَ في الآية السابقة من معناه المادِّي المحسوس الى التَّبليغ ، وهو أمرٌ معنوي دالٌ على القوَّة والنَّفاذ في الأمر . فقوله ﴿***فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ***﴾ أي : اجْهَرْ بالقرآنِ في الصلاة[5]، قال الزمخشري في معناه: " فاجْهَرْ به وأظهرْهُ ، يقال : (صَدَعَ بالحجَّة) إذا تكلّم بها جهاراً، كقولك: (صدع بها) من (الصَّديع) وهو الفجر، و(الصَّدعُ في الزجاجة): الإبانة. وقيل : (فاصْدَعْ) : فَافرِقْ بين الحقِّ والباطل بما تُؤمَرُ، والمعنى : بما تُؤمَرُ به من الشَّرائع" [6] . ويقول الفرَّاء (٢٠٧هـ) فيه : "

---

(١) سورة الحجر ٩٤.

(٢) ينظر: لسان العرب (صدع).

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٨٤.

(٤) سورة الطارق ١٢ .

(٥) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٨٩.

(٦) الكشاف ٢/٣٩٩.

(فاصدع بما تؤمر) ، ولم يقل : (بما تـؤمر بـه) – والله أعلـم – أراد فاصـدع بالأمر"[1]. أي افْرِقْ بين الحقِّ والباطل ، وأصلُه على ماقيل: الإبانة والتَّمييز [2] .

ومن الألفاظ التي وضعت للتَّعبير عن شيء مادِّي محسوس ، فاسـتعيرت لتُعبِّر عن شيءٍ معنوي تدلُّ عليه الصورة المُتَخَيَّلَة ، لفظ (التَّقطيـع) ، فكلمـة (التَّقطيع) في اللغة : من (القطعِ) وهو : فصل الشيء عن أجزائهِ ، وهـو شـيء مُدْرَك بالبصر ، لأنَّه يقع في الأجسام ، كقطع الأعـضاء فـي قولـه تعـالى : ﴿***وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا***﴾ [3] ، ومنه مايُدرَكُ بالبصيرة ، كقطع الأمر، ومنه قوله تعالى : ﴿ ***مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا***﴾ [4] ، فالقَطعُ هنـا معنـويٌّ مُتَخَيَّلٌ [5].

وقد استعملت كلمة (القَّطع) في القرآن الكريم بصيغ مختلفة ودلـت علـى معانٍ مختلفة في (٣٨) موضعاً [6] ، منها ماهو حقيقي [7] ، ومنها ماهو مجازي ، كما في قوله تعالى : ﴿ ***وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا*** ﴾ [8] ، فمعنـى (القَّطـع) هنا: التفريق ، إذ نزلت الآية في شأن بني اسرائيل ، وغضب الرَّحمن عليهم ، إذ

---

(١) معاني القرآن ، للفرَّاء ٩٣/٢.

(٢) ينظر: تفسير النَّسفي ٢٤٨/٢ ، وروح المعاني ٨٥/١٤.

(٣) سورة المائدة ٣٨.

(٤) سورة النمل ٣٢.

(٥) ينظر: لسان العرب (قطع) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٤٢٣.

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٥٥٢.

(٧) كقوله تعالى : ﴿ ***فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ*** ﴾ سورة يوسف ٣١.

(٨) سورة الأعراف ١٦٨.

فرَّقهم في الأرض [١] ، بينما (التَّقطيعَ) يكون حقيقةً للأشياء المتماسكة الصلبة كـ(الخشب) وماشابه ذلك ، أمّا هنا فقد أُستُعمِلَت كلمة (التَّقطيع) بمعنى (التَّفريق)، على سبيل الاستعارة ، لوجود شبهٍ بين الأشياء المتماسكة لتكونَ شيئاً ما ، وبين وحدة الجماعة قبل التفريق ، وذلك لأنَّ (التَّقطيع) يشير الى معنى نفسي دقيق ، هو هذه الوشائج التي تقوم بين الجماعة القائمة في مكان واحد ، والمجتمعة في أرض واحدة ، فبدت كأنها قطعة واحدة . وفي قوله (قطَّعناهم) إشارةً الى عملية تقطيع هذه الصلات والروابط المتلاحمة ، وفي ذلك تصوير لآثار هذا التفريق وفعله في نفوسهم ، فهي أدَلُّ على ذلك من كلمة (التفريق) [٢] .

ومن الاستعارات الجميلة في القرآن الكريم : استعارة اللّفظ للتعبير به عن نقيضه ، كما في قوله تعالى : ﴿ ***بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا*** ﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ ***وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ*** ﴾ [٤] ، فلقد وردت كلمة (بَشِّر) في (٨٦) موضعاً [٥] ، بصيغ مختلفة ، فبعضها استُعمِلَ في معناه الحقيقي، وهو البشارة المعروفة في اللغة ، من قولهم: (أَبْشَرْتُ الرجلَ ، وَبَشَّرْتُه ، وبَشَرْته): أخْبَرتُهُ بخبرٍ سارٍّ بَسَطَ بَشَرَةَ وجهِهِ . وذلك أنَّ النَّفْسَ اذا سُرَّتْ انتشرَ الدَّمُ فيها إنتشارَ الماءِ في الشَّجَرِ [٦] . وبعضها الآخر استعمل في معنى مجازي ،

---

(١) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٩٧/٣ ، وروح المعاني ٩٥/٩.

(٢) ينظر: الكشاف ١٢٧/٢ ، والاستعارة في القرآن الكريم ٨٥.

(٣) سورة النساء ١٣٨.

(٤) سورة التوبة ٣.

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ١٣١.

(٦) ينظر: لسان العرب (بَشَر) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٤٥.

إذ يُعَبَّرُ باللفظ عن نزول العذاب كما فـي : ﴿ ***بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا*** ﴾ ، فاستعمال (البشارة) هنا على سبيل السُّخرية والتَّهكم، إذ استعمل (بَشِّر) بدلاً من (أنذِرْ) أو (أخْبِرْ) ، وهذا على سبيل الاستعارة التهكمية [1] . وما ذاك إلاّ لأنَّ المنافقين أوهموا المؤمنين بأنَّهم آمنوا في الظاهر وكفروا في السِّر ، فجيء بلفظة (البشارة) إيهاماً لهم بشيء ، ثم مفاجأتهم بالعذاب الأليم.

ومن الأمور التي تُعطي صورة جميلة موحية بشيء مخفي غير ظاهر ، قوله تعالى : ﴿ ***وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ*** ﴾ [2] فالسَّكوتُ في اللغة: خلافُ النُّطقِ ، وسَكتَ يَسْكُتُ سَكْتاً وسُكاتاً وسُكوتاً .. إذا صَمَتَ وهو عكس الكلام [3] .

إلا أنَّ (السُّكوت) في القرآن هو (السكون) ، وقوله (سَكَتَ عن موسى الغضب) ، أي : سَكَنَ عنه الغضب، و(السُّكوت) هو استعارة عن الغضب، لأنَّ الغضبَ لايسكت ولايسكن ، وهذهِ من صفات البشر [4].

وفي الكلام تشخيص ، حيث شبَّه (الغضب) بشخصٍ ناهٍ آمرٍ ، وأثبت له السكوت على طريق التخييل ، إلاّ أنَّ المعنى المتولِّد من هذا هو استعارة عن

---

(1) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ١٨/٢ ، وروح المعاني ١٧١/٥، والكشاف ٥٧٢/١.

(2) سورة الأعراف ١٥٤.

(3) ينظر: لسان العرب (سكت)، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٤٢.

(4) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٨٥/٣.

الغاضب[١] . ويرى الزمخشري : انَّ كلمة (السّكون) لو استعملت بدل (السكوت) لما أعطت الجمالية التي أعطتها كلمة (سَكَتَ) ، إذ تجد النَّفسَ مُهتزّةً لسماعها [٢] .

---

(١) ينظر: روح المعاني ٧١/٩ ، ومعاني القرآن ، للنحاس ٨٥/٣.

(٢) ينظر: الكشاف ١٢٠/٢.

المبحث الرابع
تطوّر الكناية في القرآن الكريم

للكناية في القرآن الكريم نصيبٌ وافرٌ في أداء المعاني وتصويرها ، فهي تؤدِّي المعنى أداءً مهذّبًا ، إذ تتجنّب ما ينبو عن الآذان سماعهُ، وهي موجزة ، تنقل المعنى الكبير في اللفظ القليل . وكثيرًا ما تعجز الحقيقة عن أن تؤدّي المعنى كما أدّته الكناية في المواضع التي وردت فيها في القرآن الكريم.

والكنايةُ : أن تتكلَّم بشيءٍ وتريد غيره. و (كَنَى عن الأمر بغيره يُكني كنايةً) يعني : اذا تكلّم بغيره ممَّا يُستدلُّ عليه ، نحو (الرَّفث) و (الغائط) [1] .

وتُعدُّ الكناية من المصطلحات البلاغية الأولى التي بُحِثَتْ عند النحويين واللغويين والبلاغيين ، لأنّها تتعلّق بالإضمار والإظهار ، فهي تعني : الستر والخفاء، كما عدّها سيبويه (١٨٠هـ) في قول العرب: (يافلان) كناية عن شخص غير معروف [2] . فالكناية عنده لغوية، وهي كذلك عند الفرَّاء (٢٠٧هـ)، إلاّ أنَّها أخذتْ عنده منحيين:

(الأوّل): الكناية عن الأشياء بالضمائر ، كما في قوله تعالى : ﴿ ***وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا*** ﴾ [3] ، أي : (جلَّى الظلمة ، فجاز الكناية عن الظلمة).

---

(١) لسان العرب (كنى).

(٢) ينظر : الكتاب ٢٤٨/٢.

(٣) سورة الشمس ٣.

(والثاني): الكناية بمعناها الإصطلاحي ، مثل الكناية عن (العورات) بـ(الجلود)، في قوله تعالى : ﴿ ***حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ*** ﴾ [1] .

وكذلك هي عند ابي عبيدة (٢٠٨هـ) : كلُّ مافُهِم من الكلام ومن السِّياق من غير ان يذكر اسمه صريحاً في العبارة . فهي تستعمل قريبة من المعنى الإصطلاحي ، كما في قوله تعالى : ﴿ ***نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ*** ﴾ [2] ، فهو كناية وتشبيه[3].

وقد اقتضى الاختلاف في الأصول والأساليب بين اللغة والاصطلاح عند الفرَّاء وابي عبيدة ، ان يقف العلماءُ حيال آيات القرآن الكريم موقف إطالة في التفكير والتدبر ، معتمدين على الموروث العربي شعراً ونثراً ، فجاءت كتبهم ذات طابع لغوي ونحوي غالباً، تتخلَّلها المسائل البيانية، وعند ذاك اتخذت المصطلحات البيانية ، ومنها الكناية ، طريقها الى الدراسة بصورتها الصحيحة المتجلية بجهود من جاء بعدهم من العلماء ، كالجاحظ (٢٥٥هـ) الذي عُنِيَ بها أسلوباً من أساليب القول العربي، وعدَّها أبلغَ من التَّصريح [4] ، وهي عنده مرادفة لمصطلح

---

(١) سورة فصلت ٢٠ ، وينظر : معاني القرآن ، للفراء ١٦/٣.
(٢) سورة البقرة ٢٢٣.
(٣) ينظر: مجاز القرآن ، لأبي عبيدة ٧٣/١.
(٤) ينظر: الحيوان ١٢٢/٣.

(التَّعريض) ، إذ يقول : " أَوَمَا علمت أنَّ الكناية و التَّعريض لايعملان في العقول عَملَ الإفصاح والكشف... قال شريح : (الحدّةُ) كناية عن (الجهل)[1] " .

أمّا المبِّرد (٢٨٥هـ) فالكناية عنده تقع على ثلاثة أضربٍ:

(أوّلها): التَّعميةُ والتَّغطيةُ ، كقول النابغة:

أكْنِـــي بغيـــرِ اسْـــمِهَا وَقَـــدْ عَلِـــمَ اللهُ خَفِيِّـــاتِ كُـــلّ مُكْتَـــتَمِ

(وثانيها): الرَّغبة عن اللفظ الخسيس المفحش الى مايدلُّ على معناه من غيره.

(وثالثها): التَّضخيم والتَّعظيمُ ، ومنه اشتقت (الكُنْية) ، وهو ان يُعظَّم الرجل، وذلك بأن لا يُدعى باسمهِ [2] .

ومن الأمثلة التي ضربها للكنايةِ قولُ الخنساء:

طويـــلُ النَّجـــادِ رفيـــعُ العَمَـــادِ وَسَـــــاد عـــــشيرتَهُ أمْـــــرَدَا [3]

قال فيه : " قولهم (طويل النجاد) : حمائلُ السيف ، تُريد بـــ (طول نجاده): طولَ قامتهِ، وهذا ممّا مُدِحَ به الشَّريفُ " [4] .

---

(١) البيان والتبيين ١٧/١.
(٢) ينظر: الكامل ٥/٢-٦.
(٣) ديوانها ٤٢.
(٤) الكامل ٥/٢-٦.

وقد ذكرها قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) باسم (الإرداف) ، فقال : " أن يريد الشاعرُ دّلالةً على معنًى من المعاني، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظٍ يدلُّ على معنًى هو ردفُهُ وتابع له ، فإذا دلَّ على التّابع أبانَ عن المتبوع، كقول عمر بن ابي ربيعة:

بعيدةَ مهوى القِرطِ إمّا لنوفلٍ أبوها وإمَّا عبُد شَمْسٍ وهاشمِ [١]

وإنّما أراد أن يصف (طول الجيد) ، فلم يذكره بلفظه الخاص، بل أتى بمعنى هو تابعٌ لطولِ الجيدِ، وهو بُعْدُ مَهوى القِرط [٢] .

ولعلّ الفيصل في تحديد مفهوم (الكناية) يعود الى عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) الذي عرّفها بقوله : " أن يريد المتكلِّم إثباتَ معنًى من المعاني، فلا يذكرُه باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكنْ يجيءُ الى معنًى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيومِيءُ به إليه ، ويجعلُه دليلاً عليه " [٣].

فأسلوب الكناية يقوم على نقل الكلمة من معناها الشائع الذي استقرَّت عليه في عرف جماعة معينة الى معنى آخر، ولا يكون هذا النقل ارتجاليًا أو عشوائياً، بل يُبنى على علاقات خاصَّة تربط بين المعنى المنقول منه والمعنى المنقول اليه . فهي تعبير مجازي يتحاشى مهزولَ اللّفظ الى مُهَذَّبِه، وسوقيَّ العبارة الى رصينِها. وهي من أوسع الأساليب التي تُيَسِّرُ للمرء قولَ كلِّ شيءٍ، فجعلوا صلتها

(١) ديوانه ١٩٦.

(٢) ينظر: نقد الشعر ١٧٨.

(٣) دلائل الإعجاز ٦٦.

بـ(الرمز) شبيهة بصلتها بـ (التعريض) ، فكلاهما ينبع من أصل واحد ، وهو إيراد غير ظاهر المعنى ودّلالة اللفظ الأوّليّة [١] . إلاّ أنَّ التَّعريض يكون في العبارة، والكنايةَ والرمزَ يكونان في اللفظ ، وهو يفهم من السياق. وإنَّ أصلَ (الرّمز) الكلامُ الخفيُّ الذي لايكاد يُفْهَمُ ، ثم أستُعمِل حتى صار كالإشارة[٢] .

وللكناية اصطلاحات مرادفة ، كالأرداف والوحي والايماء والتلويح والاشارة والرمز. يقول الشريف المرتضى (٤٣٦هـ): " إنَّ كلام العرب وحيٌ واشاراتٌ واستعاراتٌ ومجازات" [٣] ، (فالوحي والإشارات) من معاني الكناية ، وهي من مجالات التأثير النفسي التي هي ابلغ من التصريح .

وقد عَدَّ البلاغيُّون أسلوب الكناية في بعض الأحيان ضرورة يتطلّبُها الموقف، وذلك حين يكون اللفظ الصَّريح تشمئزُّ منه النَّفس ويعافُه الذَّوقُ، لمجافاته الأدبَ والقيمَ الاجتماعية، أو يكون التَّعبيرُ الصَّريحُ مدعاةً للمتاعب ، ومثارًا للأذى، واستجلاءً للخصومة .

وقد توسَّعَ السكاكي (٦٢٦هـ) في مفهوم الكناية ، فجعلها ضمن مبحث دّلالات الألفاظ وعلاقاتها الاستدّلالية، وقال في تعريفها : " هي تركُ التَّصريح بذكرِ الشيءِ الى ذكرِ مايلزمُهُ، لينتقلَ من المذكور الى المتروك" [٤] .

---

(١) ينظر: أصول البيان العربي ١١٩.

(٢) ينظر: العمدة ٣٠٦/١.

(٣) الأمالي ١ / ٤.

(٤) مفتاح العلوم ٦٣٧.

نستنتج مما تقدَّم أنَّ كلَّ قول فيه عدم تصريح بذكر الشيء هو كناية، الهدف منها أن يَنأى المتكلِّم عن المباشرة والتحديد الصريح لما يريد أن يقول ، ويسوقَ تعبيراً ظليلاً يحرِّك الفكر، ويبعث على الأمل . وتلك سمة من السمات الفنية في التعبير اللغوي ، تبعده عن الرتابة التي تنشأ من طول استعمال الألفاظ في معانٍ محددةٍ مألوفة. فيعمد الى تطوير معاني الألفاظ عن طريق الأساليب البيانية ، التي تُعدُّ الكنايةُ ركنًا من أركانها الأساسية.

وما نودُّ توضيحَه في هذا المبحث هو تطور الكناية في القرآن ، إذ نجد أنَّ للكناية دورًا كبيرًا في التعبير القرآني ، وذلك لأسباب ، توافقاً مع أسلوب الكناية في الكلام العربي ، منها:

١- الايجاز ، إذ يُذكر اللفظُ القليل ويُراد به المعنى الكثير، وذلك لأنّ كلامَ الله موجزٌ ببلاغة عالية.

٢- التأدُّب ، فتميل لغة القرآن الى استعمال اللّفظ المهذَّب ، ولاسيَّما عندما تذكر الآيات الموضحة لعلاقة الرجل بالمرأة ، والأشياء الكريهة الخارجة من جسم الانسان ، وكُلّ فِعل قبيح لايُستطاع التعبير عنه بصريح ألفاظه، لأنَّها تخدش جمالية الاسلوب القرآني ورقته. وكذلك السبُّ واللعن وذكر الصفات القبيحة ، فكلُّ ذلك إنَّما جاء في القرآن جاء عن طريق الكناية والرمز، وهذا ما سنوضحه لنبين كيف تطوَّرت دلالاتُ الألفاظ ، عبر السياق ، عن طريق الكناية.

قال تعالى : ﴿ ***أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ*** ﴾[١] ، فكلمة (الرفَث) في اللّغة تعني : الفحشَ في القول ، والكلامَ البذيء، فـ (رَفَثَ في كلامه، يَرْفُثُ رَفْثاً ، ورَفِثَ رَفْثاً ، ورَفُثَ بالضم ، وأرْفَثَ) كُلَّه بمعنى : أفحش[٢]، و(الرَّفث) : كلام متضمن لما يُستقبَحُ ذكرُه ، مِن ذِكر الجِماع ودواعيه ، فجُعِلَ كنايةً عن (الجماع) ، كما في قوله تعالى الآنف الذكر ، وذلك تنبيهاً على عدم جواز دعوتهنَّ الى ذلك والتحدث معهنَّ فيه. وعُدِّي بـ (الى) لتضمِّنه معنى الإفضاء، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ ***فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ*** ﴾ [٣] ، فهذا نهيٌ عن تعاطي الجماع ، وعن الحديث فيه ، إذ هو من دواعيه[٤] .

وقد كنى الله تعالى به في هذا الموضع تناسباً مع الحال المنهي فيه إتيان هذا الفعل ، إذ لم يُكْنِ عنه بالكنايات المألوفة عن (الجماع) في مواضع أُخر ، كـ(المباشرة، والملامسة، والحرث) وغير ذلك ، وإنَّما جاء بكلمة (الرَّفَثِ) عندما تحدَّث عن الصوم والحَج. فلقُدسية هذه الأوقات استُهجِنَ القيام بهذه العملية. فلمّا كانت كلمة (الرَّفث) تعني الفُحشَ والبذاءةَ ، عُبِّر بها عن الشيء المكروه أو المستهجن. لذا جيءَ بهذه المفردة للتّنفير عن هذا الفعل ، فنهى الله تعالى عن ذلك،

---

(١) سورة البقرة ١٨٧.

(٢) ينظر: لسان العرب (رفث).

(٣) سورة البقرة ١٩٧.

(٤) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٠٤.

في قوله ﴿ ***فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ*** ﴾ لأنّه لايريد لهم أن يقعوا فيه ، فَعُبِّر عنه بما يُهَجِّنُهُ ليكونَ مُنَفِّرًا لهم عن التَّوَرُّطِ فيه [1].

فالله ﷻ جعل تناسباً جميلاً وعجيباً بين ألفاظ القرآن ومواضع الإتيان بها. فعلى سبيل المثال نجد أنَّ الكنايات في القرآن الكريم في بعض المواضع تتعدد الألفاظ المكني بها ولكنّ المعنى واحداً ، إلاَّ إنَّنا عندما نطابق بين اللفظة والسياق نكتشف السِّرَّ الذي جاءت به لفظة من بين مجموعة ألفاظ ، ومن هذه الألفاظ الألفاظُ المُعَبَّر بها عن علاقة الرجل بالمرأة . نأخذ كلمة (السِّر) في قوله تعالى : ﴿ ***وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا*** ﴾ [2] . وقد وردت كلمة (السِّر) في القرآن الكريم في صيغ مختلفة . منها قوله تعالى : ﴿ ***الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً*** ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ ***وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى***﴾[4]، فجميعُها بمعنى : الإخفاء ، وعدم إظهار الشيء ، أي ضدَّ العلانية. فـ(السِّرُّ) خلافُ (العَلَنِ) ، قال تعالى : ﴿ ***سِرًّا وَعَلانِيَةً***﴾ [5] ، وقوله تعالى : ﴿***يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ***﴾ [6] . فاستعمالات هذه الكلمة في القرآن كانت استعمالات حقيقية عدا قوله تعالى : ﴿ ***وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا***﴾ [7] فقد

---

(١) ينظر: الكشاف ٣٣٧/١ ، وتفسير النَّسفي ٩١/١.
(٢) سورة البقرة ٢٣٥.
(٣) سورة البقرة ٢٧٤.
(٤) سورة طه ٧.
(٥) سورة الرعد٢٢.
(٦) سورة هود ٥.
(٧) سورة البقرة ٢٣٥.

خرجت كلمة (سرًّا) على سبيل الكناية الى معنى آخر هو (النكاح) ، وقد كُنِّي بها عن النكاح لأنَّهُ يكون بالسِّر من حيث أنَّه يُخفى . فعملية الوعد خرجت لشيء آخر هو (الزنا) أو (النكاح) ، فأطلق عليها شيء من لوازمها فَسُمِّيَت سِرًّا [1] ، على أنَّ المواعدَة في السِّرِّ عبارة عن المواعدة بما يُستَهجَنُ ، لأنَّ مسارَّتَهُّن في الغالب بما يُستَحيا من المُجاهرة به [2] .

ومن الألفاظ التي جاءت على سبيل الكناية والرمز ، للدّلالة على علاقة الرجل بالمرأة : كلمة (حَرث) ، فكلمة (الحرث) في اللغة من : (حَرَثَ، يَحْرُثُ، حَرْثاً) و(الحَرْثُ) و(الحِراثَةُ) : العمل في الأرض زرعاً كان أو غرساً ، وقد يكون الحَرْثُ الزَّرع نفسه ، و(الحَرَّاثُ) : الزَّرَّاعُ . و(الحرثُ) : إلقاء البذر في الأرض، وتهيئتُها للزرع ، ويُسمَّى (المحروث) : حرثاً [3] . قال تعالى : ﴿ ***إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الارْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ*** ﴾ [4] ، فالذي يُسقى : الزرعُ . وبذا تكون كلمة الحرث بمعنى : (الزَّرع) . وفي قوله تعالى : ﴿ ***مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ*** ﴾ [5] . أعطي (الحَرْثُ) معنى (الرزق) . وهنا قد تباين المعنى، ففي الآية الاولى كان استعمالها حقيقياً، وفي الأخرى كان على سبيل

---

(1) ينظر: روح المعاني ١٥١/٢.

(2) ينظر: الكشاف ٣٧٣/١، ومعاني القرآن ، للنحاس ٢٢٧/١، ومعاني القرآن ، للفرَّاء ١٥٣/١.

(3) ينظر: لسان العرب (حرث) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ١١١.

(4) سورة البقرة ٧١.

(5) سورة الشورى ٢٠.

الإستعارة، وكأنَّما جعل أجر الدنيا والآخرة أشبهَ بالرزق الذي يؤتى من الـــزرع، لذا شبَّهَهُ بالحرث. وقد وردت كلمة (الحرث) (١٣) مرة بمعان مختلفة [١] ، منهـــا ما يوافق معناها اللغوي ، ومنها ماجاء على سبيل الرمز لمعنى آخر غير معنـــاه الحقيقي ، ومن ألطف تلك الرموز جَعلُ (الحرث) كنايةً عن عملية إتيان المـــرأة ، كما في قوله تعالى : ﴿ ***نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّـــى شِـئْتُمْ*** ﴾ [٢] ، فجعلَ عمليةَ إتيان المرأة أشبَهَ بعمليّة الحراثة ، فقال: (حرثٌ لكم) ، لأنَّه يُستحصَلُ منها الولد بعدَ الإتيان يُستحصَلُ الزرعُ من الأرض بعدَ الحرثِ. فكنَى عن عمليـــة الالتقاء بين الرجل والمرأة ، ومابنتج عنها من أطفال ، بعملية الحراثـــة. والـــذي سوَّغ ذلك (التَّشبيه) ، فالنساء زرعُ ما فيه بقاءُ نوع الإنسان ، كمـــا أنَّ بـــالأرض زرع ما فيه بقاءُ النبات [٣] . وفي قوله ﷻ : ﴿ ***وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِـــي الارْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَـــسَادَ*** ﴾ [٤] ، عطـــف (النَسْلَ) على (الحَرْثَ)، فكلاهما يُدمَّر في عملية الإهلاك لإبـــادة الأرض . وقـــد استعملت كلمة (الحرث) بمعناها اللغوي ، إلاّ أنَّ قولَه تعالى: ﴿ ***نِسَاؤُكُمْ حَـــرْثٌ لَكُمْ*** ﴾ تشبيه للنساء بالأرض، ولِما يُلقى في أرحامِهُنَّ من النُّطَف التي منها النَّـــسلُ بالبذور . ولو تساءلنا لماذا كلمة (الحرث) ولـــيس (الـــزرع) ؟ ، فـــالجواب لأنَّ "(الحرث) : إلقاءُ البذر في الأرض ، وهو غيرُ (الزَّرع) ، لأنَّ إنباتَه يُرشدُكَ الى

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٠٣.

(٢) سورة البقرة ٢٢٣.

(٣) ينظر: الكشاف ٣٦٢/١.

(٤) سورة البقرة ٢٠٥.

ذلك .. فتشبيهُ النُّطَف بالبذور من حيثُ إنَّ كُلاًّ منهما مــادة لمــا يحــصل منــه، ولايحسن بدونه، فهو تشبيهٌ يُكْنى به عن تشبيه آخر هو (فأتوا حرثكم)"[١]. كما في قوله تعالى : ﴿ **فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ** ﴾ [٢] ، فــ (حَرْثَكُم) من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة . وكلمة (حرث) في الاستعمال القرآني أصــابها تطــوّرٌ دلالي ، إذ ذُكرت في مواضع مختلفة، منها ماهو حقيقي ، ومنها ماهو مجــازي، زادت من جمالية النص الموضوعة فيه.

والتطوُّر الحاصل في معاني ألفاظ القرآن الكريم جاء لأسباب عديدة منهــا: اللّغة التي يتمتَّعُ بها النصُّ القرآني من سمات العُلوُّ والرفعة، والتأدُّب في القــول، والابتعاد عن الفحش كما ذكرنا في الآيات السابقة، وكيف كنى الله ﷻ عن عمليــة الجماع بين الرجل والمرأة بألفاظ يؤدِّي تفسيرها الى المعنى المراد[٣]. ومثل ذلك كثير ، كما في قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَــيْهِمْ سَــمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ** ﴾ [٤] ، فــ (جلودهم) كناية عن (العورَة) كما ذكر الفرَّاء -والله أعلم- [٥] . وكذلك قوله تعالى : ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾[٦]،

---

(١) روح المعاني ١٣٤/٢.
(٢) سورة البقرة ٢٢٣.
(٣) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ١٨٥/١ ، وتفسير النَّسفي ١٠٧/١.
(٤) سورة فصلت٢٠.
(٥) ينظر: معاني القرآن ، للفراء ١٦/٣.
(٦) سورة البقرة ١٨٧.

فكلمة (لباس) كناية أيضاً عن علاقة الرجل بالمرأة [1] . وكذلك قوله تعالى: ﴿ **أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ** ﴾ [2] ، فكلمة (لامستم) أيضاً كناية عن (الجماع) .

وكذلك الأمور الكريهة التي تتبو الآذانُ عن سماعها ، فقد إستعاض القرآن الكريم بالكناية للتعبير عنها ، كقوله تعالى : ﴿ **أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ** ﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ** ﴾[4] ، فكلمة (الغائط) وردت في السياق القرآني مرَّتين على سبيل الكناية، لأنّ (الغائط) في اللّغة من : (غَاطَ يُغُوطُ غَوْطَاً) ، و(الغَوطْ) و(الغَائِطُ) المُتَّسَعِ من الأرض، و(الغائِطُ) : أسمُ المكان المُنقطع الذي يقصده الشخصُ لقضاء حاجته ، إذ يغيبُ عن أعيُنِ الناس [5] .

أمّا في السّياق القرآني فـ (الغائِطُ) كلمة يُكْنَى بها عن (الحَدَث) ، أي: خروج الشيء الخبيث من الانسان ؛ لأنَّ (الغائط) هو المكان المُطمئِنُّ من الأرض، وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة أتَوا غائطًا [6] . وقيل: (الغائط) : ما انخفضَ من

---

(1) ينظر: معاني القرآن، للنحاس ١١٤/١.

(2) سورة النساء ٤٣.

(3) سورة النساء ٤٣.

(4) سورة المائدة ٦.

(5) ينظر: لسان العرب (غوط).

(6) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ١٦٨/١ ، ومعاني القرآن ، للفرَّاء٣٠٣/١.

الأرض [١] . وقيل: هو الصحراء [٢] . لذا استُعيضَ بالمكان عن الشيء الذي يُحدثُ فيه.

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ ***مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ*** ﴾ [٣] ، فـ (أكل الطعام) هنا كناية عن مايحدث بعد الأكل [٤] . وعن ابن عباس رضي الله عنه عندما سُئِلَ عن (يأكلان الطعام) قال : " هو كناية عن قضاء الحاجة ، لأنَّ مَن أَكَلَ الطَّعام احتاج الى النَّفضِ ، لما في ذلك من دلالة على الاحتياجِ المُنافِ للأُلوهيَّة " [٥] . وقد وردت كلمة (الأكل) ومشتقَّاتُها بصيغ ومعانٍ مختلفة [٦] ، كلٌّ حسب السِّياق الذي دُعيت له ، كما في قوله تعالى : ﴿ ***وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ*** ﴾[٧] ، فـ(الأكل) هنا كناية عن (الغِيْبَة) ، ففي قوله تعالى تمثيل وتصوير لما يناله المُغتاب على أفحَش وجه . وفيه مبالغات ، منها : الاستفهام الذي معناه التَّقرير ، وجَعلُ ماهو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبَّة [٨] .

---

(١) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٢٧٤/٢ ، وتفسير النَّسفي ٢٢٤/١.

(٢) ينظر: روح المعاني ٤١/٥.

(٣) سورة المائدة ٧٥.

(٤) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٣٤٤/٢ ، وتفسير النَّسفي ٢٩٥/١.

(٥) روح المعاني ٢٠٩/٦.

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٤-٤٥.

(٧) سورة الحُجرات ١٢.

(٨) ينظر: تفسير النَّسفي ١٦٦/٤.

وممَّا يؤتى به كنايةً عن الصفة ما جاء في قوله تعالى : ﴿ ***وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا*** ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ ***وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ*** ﴾ [2] ، فـ(اليد المغلولة) وردت مرّتين في القرآن الكريم كنايةً عن البخل ، وجُعِلت (مغلولةً) لأنَّ الأيدي فيها كأنَّها مَغْلولة ، أي : ممنوعة ، جُعِلَ فيها (غُلٌّ) ، وهي الحديدةُ التي تجمعُ يدُ الأسيرِ الى عُنُقِهِ ، ويُقال لها : (جامعة) [3] . فـ " (غَلُّ) اليدِ و(بَسطُها) مجازٌ عن (البُخلِ) و(الجودِ) ، وقوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة) " [4] معناه : لاتَمتنِع من النَفَقَةِ في الطاعة ولا تَنفعْ في معصيةٍ " [5] .

ومن الكنايات عن الصفة قوله تعالى : ﴿ ***يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ*** ﴾ [6] ، فـ (السَّاق) في اللغة هي جزءٌ من جسم الإنسان مابين الركبة والقدمِ[7]. و(الكشف عن السّاق) كناية عن شِدَّة الأمر وصعوبة الخطب، فمعنى (يوم يكشف عن ساق) : يوم يشدُّ الأمرُ ويصعب ، ولا كشفَ ثَمَّ ولا ساقَ ، ولكن كَنَى به عن الشِّدّة ، لأنَّهم إذا ابتلوا بشدَّةٍ كشفوا عن

---

(١) سورة الإسراء ٢٩.
(٢) سورة المائدة ٦٤.
(٣) ينظر: لسان العرب (غلل).
(٤) تفسير النَّسفي ٩١/١.
(٥) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ١٤٥/٤.
(٦) سورة القلم ٤٢.
(٧) ينظر لسان العرب (ساق).

السّاق " [1] . فــ(اليوم) عند الجمهور : يوم القيامة ، و(السّاق) : مافوق القــدم ، و(كشفها): مَثَلٌ في شدّة الأمر ، وصعوبة الخطــب ، وتنكيــر الــسَّاق للتّهويــل والتّعظيم [2] .

فاستعمال الجوارح مجازاً أو كنايةً كَثُرَ في القرآن الكريم لتــصوير أمــر معيّن بصورة فنية جميلة ، كما في قولــه تعــالى : ﴿ ***فَــرَدُّوا أَيْــدِيَهُمْ فِــي أَفْوَاهِهِمْ*** ﴾[3] ، فــ(الرَّد) لغةً هو : صَرفُ الشّيءِ بذاته، أو بحالة مــن أحوالــه، يُقالُ: ردَدْتُهُ فارتدَّ ، وهو في الآية الكريمة كناية ورمز عن السُّكوت . فأومأوا الى السُّكوت ، وأشاروا إليه بِضَمِّ اليد الى الفم [4] .

---

(١) ينظر: تفسير النَّسفي ٢٧١/٤ ، والكشاف ١٤٧/٤.

(٢) ينظر: روح المعاني ٢٩/ ٣٤.

(٣) سورة ابراهيم ٩.

(٤) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ١٩٧.

الفصل الثاني

ظواهر التطوّر الدّلالي في ألفاظ القرآن الكريم

المبحث الأول : تطور الدّلالة الصوتيّة

المبحث الثاني : تطور الدّلالة الإجتماعيّة

المبحث الثالث: تطور الدّلالة الإيحائيّة

المبحث الرابع: تطور الدّلالة الهامشيّة

الفصل الثانـي
ظواهر التَّطوُّر الدَّلالـي فـي ألفاظ القُرآن الكريم

إنَّ للتطور الدَّلالي للألفاظ في النصِّ ظواهر متعددة تظهر من خلال العلاقة بين اللفظ والمعنى ، ومن حيث قنوات التوصيل الدلالي المهيمن على الإبلاغ ، من دون أن ينقصه شيء من عناصر التأثير والإدهاش ، فلا تعدو العمليـــة اللغويـــة الإقناع والتأثير ، أو الكشف والإبلاغ [1] ، فالأسلوب ليس ســوى "خــصوصية تحدث في المعنى " [2] ، على نحو من الاختيار والعــدول ، فعنــصر الاختيــار للمفردات هو ما يميز اللغة التأثرية عن غيرها ، إذ تظــل مراعيــة لمقتــضيات الحدث اللغوي ، من خلال تحولاتها السياقية بحسب تحــولات المقــام، فتــصوغ عباراتها صوغاً جمالياً ، فلا يكون المعنى تبعًا لذلك بمعزل عن عناصر الــسياق كلِّها ، فإنَّ إنتاجه يتشكَّلُ بتشكُّلِ العملية اللغوية التي لا تنفك تقوم على ثنائية الدال والمدلول [3] .

فلكلِّ لفظ في موضعه دلالة خاصة تشكِّلُ المعنى المتولِّد ، إذ إنَّ اللفظ فــي السياق يعطي معنًى إلى جانب دلالته الأساسية ، وهو المعنى التَّصوُّري ، فيكــون زائدًا على المعنى الأساس ، فإن " كُلَّ كلمة ، أيًّا كانت ، توقظ دائماً فــي الــذهن صورةً ما ، بهيجةً أو حزينة ، رضيَّةً أو كريهةً ، كبيرةً أو صغيرةً ، تفعل ذلــك

---

(١) ينظر : الأصول ٢١٣ – ٢١٤ .

(٢) ينظر : الأسلوبية بين التراث والمعاصرة ١٠ .

(٣) ينظر : بنية اللغة الشعرية ١٢٤ .

مستقلّةً عن المعنى الذي تعبِّر عنه " [1] ، وهذا مرتبط بأبعاد التخييل وجوانبه الإيحائية ، ودوافعه النفسية ، وما ينتجه من أبعاد رمزية للألفاظ ، فقلَّ ما نجد لفظة تشير إلى دلالة واحدة ، فلا تخلو لفظة من إثارة دلالية ، وهذا ما يمكن ربطه بالظواهر الدَّلالية وتنوعها في السِّياق كالدَّلالة الصوتية وما يُشَكِّلُهُ اللَّفظُ من عملية تأكيد المعنى ، من خلال عملية التناسب بينه وبين المعنى المُستدعى ، وكذلك في الدلالة الاجتماعية ، إذ تنحصر بعض الألفاظ في معانٍ متعددة . أمَّا في الدلالة الإيحائية والهامشية فنجد ظلال المعنى تهيمن على النّص .

لذا سنبين في هذا الفصل هذه الظواهرَ الدّلالية .

---

(١) علم اللغة الاجتماعي ١٦٢ .

المبحث الأوّل
تطور الدلالة الصوتية

(الصَّوْتُ) في اللغة هو : الجَرْسُ [١] ، وهو صوتُ الإنسان وغيرِه، و(الصَّائِتُ) : الصَّائِحُ. وفي الحديث: " كان العباس رجلاً صيِّتًا" أي: شديدَ الصَّوتِ، عالِيَهُ. و(أصاتَ القَوْسَ) : جَعَلَها تُصوِّتُ [٢] . و(الصَّوْتُ) : جنسٌ لكلِّ ماوقر في الأذن [٣] ، ويسبِّب حدوثَه " تموُّجُ الهواء ودفعُه بقوَّةٍ وسرعةٍ مِن أيِّ سببٍ كان" [٤] ويحُدُّ المعاصرون (الصَّوتَ) بأنَّه : " عمليةٌ حركيّةٌ يقومُ بها الجهازُ النُّطقي، وتصحبُه آثارٌ سمعيّةٌ معيّنة، تأتي من تحريك الهواء فيما بين مصدر إرسال الصَّوت (وهو الجهاز النطقي)، ومركز استقباله (وهو الأذن)" [٥] .

والكلام المُركَّبُ من ألفاظ إنَّما هو مصدرٌ من مصادر الصَّوت، وقد عرَّفه العرب بأنّه : " اللفظُ المفيدُ فائدةً يَحسنُ السُّكوتُ عليها " [٦] . وكذلك حَدَّهُ أرسطو: " الكلامُ : هو صوتٌ مُرَكَّبٌ دالٌّ " [٧] .

فلا بُدَّ إذن من وجود صلة بين اللفظ الذي هو صوت ، ومايدلُّ عليه من المعنى، يقول ابن جنّي (٣٩٥هـ) : " وإنَّما جُعِلَتِ الألفاظُ أدلَّةً على إثبات

---

(١) (الجَرْسُ) : الصَّوْتُ نفسُهُ من كُلِّ ذي صَوتٍ، يقال: (أَجْرَسَ الحَيُّ) إذا سَمِعْتَ صوتَ جَرْسِهِ، و(أجْرَسَني السَّبُعُ) : سَمِعَ جَرْسِي. ينظر: لسان العرب (جرس).

(٢) ينظر: لسان العرب (صوت).

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٣/ ٣١٨.

(٤) الشفاء ٦/٧٠.

(٥) اللغة العربية معناها ومبناها ٦٦.

(٦) شرح ابن عقيل ١٤.

(٧) الشعر ١١٦.

معانيها، لاعلى سَلبِها" [1] فالألفاظ عبارة عن أصوات تكتَسِبُ دلالاتها من جــرسِ أصواتها، فينشأ مــايمكن أن يُــسمّى بــــ (الدلالــة الطبيعيــة بــين الأصــوات والدلالات"[2]. والدَّلالةُ الصوتيَّةُ هي ماتعتمد على طبيعة الأصــوات فــي نَغَمِهــا وجَرْسِها" [3] ، لأنَّ (الصّوتَ) كما يقول الجاحظ (٢٥٥هــ) هو : " آلــةُ اللَّفــظ، والجَوهرُ الذي يقوم به التَّقطيعُ، وبه يوجَدُ التّأليفُ، لن تكون حركاتُ اللِّسان لفظًــا ولا كلامًا موزونًا ولامنثورًا إلاّ بظهور الصَّوتِ، ولاتكونُ الحــروفُ كلامــاً إلاّ بالتّقطيع والتّأليف " [4] ، لأنّ لكلِّ حرفٍ صوتاً ترجع طبقتُــه مــن التَّنغــيم إلــى مَخرجِه من جهاز النُّطقِ، ولكلِّ صوتٍ قيمةٌ سمعيَّةٌ، فعندما نريد دراســة الكلمــة وأثرها في المعنى ، لابدّ لنا من دراسة أصواتها اللغوية وعلاقاتها بالمعاني.

والأصوات اللغوية تُدرَسُ بشكل عام على حالين:

(الأوّل): على حال إفرادها، فتُدْرَسُ صفاتُها ، ومخارجُها، وتطوُّرُها تاريخياً، وهو مايُسمَّى بــ (علم الأصوات).

(والثاني): على حال تَشَكُّلِها، فتُدْرَسُ المقاطعُ، والنَّبرُ، والتَّنغيمُ ، وهــو مايُــسمَّى بــ(علم الأصوات الوظيفي) [5] .

---

(1) الخصائص ١٠٠/٣.

(2) العلاقة بين الصوت والمدلول ٦٣.

(3) ينظر: دلالة الألفاظ ٤٦.

(4) البيان والتبيين ٧٩/١.

(5) ينظر: التنغيم ودلالته في العربية ١.

ولابدَّ لنا من الاستعانة بـــ (علم الأصوات) لدراســـة (علـــم الأصـــوات الوظيفي) ، لأنّنا : " لاننطق أصواتًا مُجَرَّدَةً ، بل سياقاتٍ مُنَظَّمَـــةٍ مـــن الكـــلام ، تُخضِعُ هذه الأصواتَ لقواعدَ معيَّنةٍ في تجاوُرِها وارتباطها ومواقعهـــا، وإمكـــانِ وجودِها في هذا المقطع أو ذاك، وارتباطها بالمجموعة الكلاميَّة، كالموقعيَّةِ والنَّبرِ والتَّنغيم، وسلوكها في موقعها" [1] ، لذا فإنّنا نجد للَّفظة في نَصٍّ مزيَّةً قد لانجـــدها لغيرها لو كانت في مكانها، فالفارقُ بين الكلام العادي والأسلوب الأدبي ليس فارقاً في الاستعمالات اللغوية فحسب ، بل في دِقَّةً تَخَيُّرِ المعاني، ومن ثَـــمَّ فـــي دقَّـــة التّعبير عنها.

وهذا ماجعل من نظْمِ القرآن نظماً متميِّزاً ، لأنَّ الكلمة فيه صوتُ الـــنَّفسِ، وخطوة المعنى، لما تتركهُ الذبذبات الصوتية من أثرٍ في السمع [2] ، فنجد تَخَيُّـــرَ اللَّفظ ينسجم مع الصوت الموسيقي المُتَّسِق مع جَوِّ الآية وجَوِّ السياق. لذا فالإعجاز الذي وقفت العرب أمامه مبهورةً، إنَّما هو تخَيُّرُ القرآن لألفاظٍ مُنتَخَبَةٍ دون سواها، جعلت منه زخمًا لغويًا ينحو بهم نحو التّهذيب لمخارج الحروف، والموازنة بـــين النَّبرات. فألفاظ القرآن وُضِعَتْ في التركيب الجملي بدِقَّةٍ متناهيةٍ، رُوعِـــيَ فيهـــا الطَّبع والانتفاء، على أنَّها ذات وقعٍ موسيقيٍ خاص، يحقِّق الدلالة من جرس الكلمة في توافق حروفها وتلاؤم مقاطِعِها، إذ تتولَّد في النَّص دلالاتٌ مختلفـــة بحـــسب استعمال المُفردةِ في السِّياق، كالدلالة الصوتية، والدلالـــة الاجتماعيـــة، والدلالـــة الايحائية، والدلالة الهامشية.

---

(١) مناهج البحث في اللغة ١١١.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٤٩.

فالدلالةُ الصوتيَّةُ التي سنتناولها بالدراسة، هي من جملة تلك الدلالات ، وإن ارتباط الموسيقى كأداة فنِّيَّةٍ بالتَّعبير عن قيم القرآن ومفاهيمه ، عن الله والطبيعة والإنسان، جعلها من أهمِّ الأدوات ذات التأثير المباشر في نفس العربي ووجدانه، ولاسيَّما " أنَّ موسيقى النَّص في جملتها وتفصيلها، أي : في نَغمةِ الجُمَلِ، وجَرْسِ الألفاظِ، وفواصل الآيات، مناسبةٌ للمشهد والأفكار، ومُقابلةٌ لها، وتتنوَّع بتنوُّعها، وتنسجمُ بانسجامها" [1] ، إذ لايمكن التَّعبيرُ عن الغرض الفنِّي بكلمةٍ مفردة، وإنّما يُنظَر إلى قيمة المفردة الجماليَّة من خلال السِّياق الذي جاءت فيه، ومدى ملاءمة أصوات الكلمات للمعاني الموضوعة لها ، إذ يُقال : " إنَّ المعنى والصوت كليهما مرتبطٌ بالآخرِ ارتباطاً لايَقبلُ التفرقة" [2] فالانسجام بين موسيقى اللفظ ومعناه هو مايُبرزُ جمالية التّعبير، من خلال مايتركه الإيقاع من إيحاءٍ نفسي مُستفاد من شدَّة الصوت وضَعفِه، أيْ : من تنوعه النَّغَمي، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ***وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ*** ﴾ [3] وقوله تعالى : ﴿ ***وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ*** ﴾ [4] ، وقوله تعالى : ﴿***وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ*** ﴾ [5] . فكلمة (المطر) في اللغة تعني: الماء المُنسكب من السَّحاب ، والجَمعُ (أمطار) . و (المَطَرُ) مرادف لـ (الغيثِ) ، لذا يُفَسَّرُ كُلٌّ منهما

---

(١) دراسة أدبية لنصوص من القرآن ٢١.

(٢) قواعد النقد الأدبي ٣٩.

(٣) سورة الشعراء ١٧٣ ، وسورة النحل ٥٨.

(٤) سورة الفرقان ٤٠.

(٥) سورة الحجر ٧٤.

بالآخر [1] . بينما نجد في الاصطلاح القرآني ، أنَّ لكلٍّ منهما دلالةً خاصةً بــه، فكلمة (مطر) وردت بمشتقّاتها في (١٥) آية من القرآن الكريم [2] ، وردت فيهــا كُلِّها بمعنى: العذاب والنِّقمَة، أي : بمعنى جديد لم تألَفْهُ العرب ، كما فــي قولــه تعالى: ﴿ ***وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ*** ﴾ .

أمّا كلمةُ (الغيث) فوردت في ثلاث آيات من القــرآن الكــريم [3] ، وردت كلُّها بمعنى : الماء المُنَزَّل من السماء رحمةً للعباد، وسببًا للخير والنَّماء [4] . كما في قوله تعالى : ﴿ ***وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ*** ﴾ [5] ، وإنَّ هذا الاختلافَ في دلالتي (الغيــث) و (المطــر) دليلٌ على نَفيِ التَّرادُفِ في القرآن ، ومَظْهَرٌ من مظاهر الإعجــاز فــي التعبيــر القرآني[6].

و(الغَيثُ) كلمةٌ قد انسجمت أصواتها مع معناها، فالانتقال في أصواتِ هذه الكلمة من الاستعلاء المتمثِّل بحرف (الغين)، في ارتفاع مؤخرة اللِّــسان صــوب الحَنَك الأعلى، إلى الانخفاض بتوالي حرفين منخفضين (الياء) و (الثاء) [7] ، يُمثِّل تلاؤمًا مع منظر نزول المطر من السَّماء ، فالتَّنغيم الحاصلُ من الارتفــاع إلــى

---

[1] ينظر: لسان العرب (مطر).

[2] ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٦٧٤.

[3] ينظر: سورة لقمان ٣٤، والشورى ٢٨، والحديد ٢٠.

[4] ينظر : الإتقان في علوم القرآن ٤٢٣/١

[5] سورة الشورى ٤٨.

[6] ينظر: ظاهرة الترادف في القرآن الكريم.

[7] ينظر: في البحث الصوتي عند العرب ٥٧.

الانخفاض الصَّوتي في الكلمةِ، هو ما يولِّد هذا التجانس الصوتي في اللفظ والمعنى.

بينما لو عُدنا إلى كلمة (مطر) ومشتقّاتها، لوجدنا ثقل الطّاء، وجاء تكرار الكلمة في أكثر من آية ، ملائمًا لمشاهد العذاب والنقمة المُنَزَّلَةِ على الكافرين والمعارضين ، فالإيقاعُ اللّفظي للكلمة ، بِتَدَرُّج أصواتها من الانخفاض المُتَمَثِّلِ بصوت الميم، إلى القَلْقَلَة المتمثِّلة بصوت الطّاء، إلى التّكرار المتمثِّل بصوت الرّاء، يوحي بتَدَرُّجِ وقوع العذابِ شيئًا فشيئًا، فضلاً عن أنَّ هذا التكرار اللفظيَّ لكلمة (المطر) أكثَرَ من مرَّة ، في أكثرِ من آية ، يمُدُّ المَغزى قوّةً في الجَرْسِ والإيحاء[1] .

وللتَّعبير القرآني خصوصيَّةٌ يختلف بها عن غيره، ومن خصوصيَّة هذا التعبير : التَّراكم الدلالي للَّفظ ، ففي قوله تعالى: ﴿ ***الْقَارِعَةُ*مَا الْقَارِعَةُ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ*** ﴾ [2] تكرَّرت كلمةُ (القارعة) ثلاث مرات، وهي مظهر من مظاهر يوم القيامة، وكلمة (القارعة) في اللغة : من (القَرع) وهو ضربُ الشّيء بشيءٍ فيحصل به صوت شديد، و(قَرَعَ الشَّيءَ يقرعُه قَرعًا): ضربَهُ . و(القارعة) من شدائد الدّهر، وهي الداهية والنازلة الشّديدة، تنزِلُ عليهم بأمرٍ عظيم ، لذلك قيل ليوم القيامةِ (القارعة) [3] .

وسُمِّيَت بهذا الإسم لأنّها تقرعُ القلوب والأسماع ، فلكلمة (القارعة)، بحروفها المجهورة: (القافِ) بقَلقلتِها الكبرى، و(الرّاء) بذَبذَباتها المتكرِّرة،

---

(١) ينظر: التنغيم اللغوي في القرآن الكريم ١٠٨.
(٢) سورة القارعة ١-٣.
(٣) ينظر: لسان العرب (قرع).

و(العَينِ) المُضَخَّمَةِ، جرسُها المدوِّي في الأذن، يوحي بالعنف والشِّدة، وقد قال الخليل في اجتماع (العين) و (القاف): " إنَّهما أطلقُ الحروف وأضخمُها جرساً، وإذا ما دخلتا في بناءٍ حَسُنَ البناء لنصاعتهما" [١] .

وفضلاً عن هذا جاء تكرار كلمةُ (القارعة) بلفظها ثلاث مرَّات، ليُضفي على السِّياق تجانسًا صوتيًا رائعًا بين اللَّفظ والمعنى، ولاسيَّما أنّ تكرارَ اللفظ يُحدثُ لازمةً بلاغية ذات ايقاع عنيف، ابتدأ الكلامُ إخبارًا بمبتدإٍ لاخبر له : "القارعةُ " ، إذ لاخبر بمُستطاعِهِ أن يُفصِحَ عن ماهيَّة (القارعةِ) وحقيقتِها، وكأنّ السُّكوت عن الخبر أفصحُ من أيِّ خبرٍ، ثم جاء الاستفهامُ مكرَّراً عن ماهيتها ﴿ ***مَا الْقَارِعَةُ* وما أدراك ما الْقَارِعَةُ*** ﴾ ؟ ليزيدَها مهابةً، وفخامةً ، وغموضًا، وليزيد المُستَفهَمَ منه عن حقيقتِها تَجهيلاً بحقيقتها[٢] ! فإنَّ دلالة هذا اليوم قد تراكمت بالاستفهام المُكرَّرِ للمبالغة في وصف أهواله ، وماتُسبِّبَهُ من قرعٍ شديد[٣]. وفي القرآن الكريم كثيرٌ من الأمثلة لهذا التَّراكم الدلالي في الآيات التي تصف يوم القيامة وأهواله ، كقوله تعالى : ﴿***الْحَاقَّةُ***[٤] **** مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا***

---

(١) العين (قرع) ٥٣/١.

(٢) استعمالُ الاستفهام في معنى التَّفخيم والتَّهويل في القرآن الكريم ، بحث مخطوط للدكتور قيس اسماعيل الأوسي ١٥.

(٣) ينظر: الطراز ١٤٨/٣ ، والدلالة الصوتية في القرآن الكريم ٣٤ ، والتراكم الدلالي في النص القرآني ٣٩ ، ١٠٦.

(٤) (الحاقَّة) : يُقال : (حقَّ اللهُ الأمرَ) أثبته وأوجبه. و(حقَّقتُ الأمرَ وأحقَقتُهُ) : كنتُ على يقين منه ، (وحقَّقْتُ الخبر فأنا أَحُقُّهُ) : وقفتُ على حقيقته . ويوم القيامة تكون حواقُّ الأمور، لذلك سُمِّي (الحاقَّة) ، و(أحَقَّ اللهُ الحَقَّ) : أثبَتَهُ وأظهَرَهُ، ينظر: لسان العرب (حقق).

الْحَاقَّةُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ **كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ** [2] * **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ**﴾ [3] فالتّكرير في هذه الآيات أفاد التهويل وتعظيم الشّأن.

إنَّ القرآن الكريم يُعنَى بالجرس والايقاع عنايتَه بالمعنى، وهو لذلك يتخيَّر الألفاظ تَخَيُّراً يقومُ على أساس من تحقيق الموسيقى المناسبة لجوِّ الآية وجوِّ السّياق، فيُحدِثُ ما يُسمَّى بـ (التَّقابُلِ الموسيقي في التَّعبير القرآني) [4] فالجِرْسُ في وصف آيات العذاب نجده شديداً عنيفاً، وفي وصف آيات الطبيعة والقَسَم بها نجده رخواً ليِّناً، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**﴾ [5] .

فكلمة (عَسْعَسَ) وردت مرّةً واحدةً في القرآن الكريم، وهناك مَنْ يرى أنَّها من الأضداد، إذ قيل في معنى (عسعسَ اللَّيلُ) : أقبلَ أو أدبرَ بظلامِه. و(عَسْعَسَ) في اللُّغة: من (عسَّ ، يَعُسُّ، عَسًّا) أي : طاف باللّيل، و(عسعس اللّيلُ عَسْعَسَةً) : هو إقبالُه ، وقيل : هو إدبارُه [6] .

---

(1) سورة الحاقة ١-٣.

(2) (الحُطَمَةُ) من (الحَطْم) وهو الكسرُ في أيِّ وجه كان ، وقيل: هو كسر الشيء اليابس خاصة، و(حطَّمَه فانحطمَ وتَحَطَّمَ). و(الحُطَمة والحُطام) : ما تحطَّم من ذلك . و(الحُطْمَة والحُطَمة والحاطوم) : السّنة الشّديدة لأنّها تحطّم كلَّ شيء. و(الحُطَمَةُ) : إسم من أسماء النار نعوذ بالله منها لأنها تحطم ماتَلْقَى ، ينظر: لسان العرب (حطم).

(3) سورة الهمزة ٤-٥.

(4) ينظر: الجرس والإيقاع في التعبير القرآني ٣٣٥.

(5) سورة التكوير ١٧-١٨.

(6) ينظر: لسان العرب (عسس).

وقال الفرّاء : " اجتمع المفسِّرون على أنَّ معنى " عَسْعَسَ " : أدبرَ، وكـــان بعض أصحابنا يزعُم أنّ عَسعَس : دنا من أوَّلِه وأظلمَ .. وقولـــه : (والـــصُّبح إذا تَنَفَّسَ) اذا ارتفعَ النَّهارُ، فهو تنفُّسُ الصُّبحِ" [١]. ولفظ (عسعس) يُفَـــسَّر بالإدبـــارِ، لمجيءِ الصُّبحَ بعدَه، ولمجيئِه رَوحٌ ونسيمٌ، فَجُعِلَ ذلك له تنفُّساً على المجاز [٢] .

وما التَّضعيفُ في لفظ (عَسعَس) إلاّ لزيادة المعنى قُوّةً ، وكـــأنّ اســـتمرار اللّيل في إدباره من خلال استطالة الكلمة، إذ نجد لاجتماع صوت (العَـــينِ) وهـــو صوتٌ مجهور ناصع، مع صوت (السِّين) وهو صوتٌ مهموس يتميَّـــزُ بالهـــدوء والسَّكينة، نَغَماً صاعداً وهابطاً يوحي باستطالة زمانِ ذهاب اللَّيل. وإنّ ممّا يزيـــد من جماليَّة هذه اللّفظة عطفَ متجانسٍ صوتي عليها، هو كلمةُ (تَنَفَّسَ) ، فإنّ لإيقاعِ صوتِ السّين وتَكرارِه مزيَّةً جماليّةً في النّص، وهذا من باب التّجانسِ الـــصّوتي بين اللفظ والمعنى [٣] ، فضلاً عمَّا توحي به لفظةُ (تَنَفَّسَ) من معنـــى اســـتراحة (الصُّبحِ) بعد عنائِه في إزاحة اللَّيل بظَلامِه المُستطيل[٤].

فلِلتجانس الصّوتي إرتباطٌ وثيق بـــالمعنى، ومـــن أمثلـــة ذلـــك أنَّ كلمـــة (صَرْصَر) وردت في القرآن (٣) مراتٍ [٥] ، وَصفاً للريح العاتية، ومنـــه قولـــه تعالى : ﴿ ***وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ*** ﴾ [٦] ، وكلمة (صَرْصَـــرٍ)

---

(١) معاني القرآن ، للفراء ٢٤٢/٣.

(٢) ينظر: ثلاثة كتب في الاضـــداد ٩٧ ، وتفـــسير البيـــضاوي ٤٥٨/٥ ، والكـــشّاف ٢٢٤/٤.

(٣) ينظر: جمالية المفردة القرآنية ٨٨.

(٤) التّناسُبُ في القرآن الكريم ، بحث مخطوط للدكتور قيس اسماعيل الأوسي ٢١.

(٥) ينظر: الحاقة ٦ ، وفصلت ١٦ ، والقمر ١٩.

(٦) سورة القمر ١٩.

في اللغة من (صَرَّ البابُ يَصرُّ) ، وكُلُّ صَوْتٍ شِبهُ ذلك فهو (صَرِيرٌ) إذا امتــدَّ ، ومنه (صريرُ الجُنْدُبِ). فإذا كان فيه تخفيفٌ وترجيعٌ في إعادةٍ ضوعف ، كقولك: (صَرْصَرَ الأخْطَبُ صَرْصَرةً) كأنَّهم قدَّرُوا في صوتِ الجُنْدُبِ المَدَّ ، وفي صوت الأخْطَبِ التَّرجيعَ فحكَوه على ذلــك ، وكــذلك الــصَّقَرُ. و(الــصَّرَّةُ) : الــضَّجَّةُ والصَّيْحَةُ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ***فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَــصَكَّتْ وَجْهَهَــا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ*** ﴾ [١] ، و(الصَّرُّ) : الصياحُ والجَلَبَةُ، و(الريح صَرْصَرٌ) أي: باردة، و(الصَّرْصَرُ) : هي الرِّيحُ المدمِّرة [٢] .

و(الصَّرْصَرُ) وَصْفٌ مخصوصٌ بالرِّيح المُرسَلَة للعذاب، وقد اختير وصفاً لها لما فيه من امتداد الصَّوتِ وتَكريرِهِ وتَرجيعهِ [٣] ، فصوت الــصّاد بــصفيره، مُجتمعاً مع الرّاء المتكرِّرة، ولَّدَ تقطيعًا صوتيًّا يوحي بشدَّة الريح وتلاحُقِها وطول زمنِها، وكأنَّ اصطكاكَ الأسنانِ في نُطقِ الصّاد، مع ذبذبات نُطقِ الــرّاء، يُولِّــد صفيرًا ودويًّا يُشبِهُ صوت الريح، وهذا مايسمَّى بالمناسبة الطبيعيــة بــين اللّفــظ والمعنى، لدلالة جرس الكلمة على معناها [٤] ، وهذا ما قال عنه ابن جنِّي: " قــوّةُ المعنى لقوّةِ اللّفظِ " [٥] .

---

(١) سورة الذاريات ٢٩.

(٢) ينظر: لسان العرب (صرر).

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣٦٢/٣ ، والكشّاف ٤٤٩/٣.

(٤) ينظر: فقه اللغة العربية ١٠٤ ، والصورة السمعية في القرآن الكريم ١٦٤.

(٥) الخصائص ٢٦٤/٣.

ومن الأسرار الصوتيّة وقيمتها الجماليّة: التَّناسبُ بين الـدّلالات الـصوتيّة والانفعالات التي تتراسلُ معَها، فالتنوُّعُ في النَّغَمِ يتَّصِل ببِنْيَـةِ الكلمـة، ومقـدار تأثيرها وتفاعُلِها مع غيرها من الكلمات ، فلا يخضعُ الإيقـاعُ لخاصـيَّةٍ صـوتيَّةٍ مستقلّةٍ عن الدلالة. ومن أمثلة ذلك أنَّنا نجد للجناس التَّامّ في قوله تعالى : ﴿ ***وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ*** ﴾[1] أثَراً في تطابق الصوت مع المعنى، فكلمةُ (السَّاعةِ) الأولى مصطلحٌ قرآني يُطلَقُ على يوم القيامة، وقد وردت (٤٦) مرّة في القرآن الكـريم، أغلبُهـا بمعنى يوم القيامة [2]. وكلمة (السّاعة) الثانية تدلُّ على جزءٍ مـن أجـزاء الليـل والنهار [3] .

فلطرفي الجناس التّام في هذه الآية الكريمة تجانسٌ دلالـيٌّ، إذ وقـع فـي السياق تفاوت مقطعي للكلمتين أثّر في المعنى، فكلمةُ (ساعة) الأولى تكوّنت فـي السِّياق من ثلاثة مقاطع، وفيها ينتقلُ النُّطقُ من الميمِ التـي تتـصل مـع الـسّين السَّاكنة، ثم تأتي (السّين) المُتحرِّكةُ على النَّحو الآتي: (تقومُسْـسَاعَة) ، فعُـرِض الطَّرفُ الأوّلُ من الجناسِ بإيقاعٍ بطيءٍ يتلاءمُ ومعناها الدّالّ على يـوم القيامـة، الذي يدلُّ على دِقَّةِ مجيئِها ودِقَّةِ حسابِها، وانضباط وَقتِها. أَمّا الكلمةُ الثانية (ساعة) فتتكوَّنُ من مقطعين صوتيَّين، وينتقل فيها النَّطقُ من الراء إلى الـسين المتحركـة على النحو الآتي: (غيرَ ساعةٍ) فَعُرِضَ الطَّرفُ الثاني بايقاعٍ سريع ينـسجم مـع

---

(١) سورة الروم ٥٥.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ١٥٠-١٥٢.

(٣) ينظر: لسان العرب (سوع) ، والكشاف ٢٢٧/٣.

إحساس المجرمين، بأنَّهم لم يعيشوا في الحياة الدُّنيا غير ساعة، وللتَّعبير عن إحساسهم بِقِصَرِ الوقت الذي عاشوا فيه، لذا اختيرت كلمةُ (ساعة) [1] . إلاّ أنّنا نرى أنّ اختيار كلمة (ساعة) في الطرف الأوّلَ جاء للدَّلالة على المُفاجئة والسُّرعة، فمعلومٌ أنَّ القيامة تأتي بغتةً ، وتقع أحداثُها ووقائعها مُتسارعةٍ، وهذا يتلاءمُ مع المعنى الحقيقي المُعَبَّرُ عنه في الطَّرف الثاني من الآية.

ومن بلاغةِ القرآن أنَّه يتخيَّرُ للمعنى لفظةً، تجدُها على غرابتها لايصلح غيرُها أن يحلَّ محلَّها، ومن ذلك كلمةُ (***ضِيزَى***) التي وردت في القرآن الكريم مرَّةً واحدةً ، في قوله تعالى : ﴿ ***أَلَكُمْ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى* تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى*** ﴾ [2] . وهي كلمةٌ غريبةٌ حَسُنَتْ بِحُسنِ موقعها، لايَسُدُّ غيرُها مَسَدَّها، إذ لم يقل (جائرة) أو (ظالمة) ، وقد جاءت هذه الآيةُ إنكارًا لقولِهم: الملائكةُ بناتُ اللهِ، فتلك إذن قسمةٌ ضيزى جائرةٌ ، إذ جعلتم له ما تستنكِفون منه [3] . وكلمة (ضيزى) في اللغة من : (ضازَ في الحُكمِ) أيْ : جارَ. و(ضازَهُ حَقَّهُ، يَضيِزَهُ،ضَيْزاً) : نقصَهُ وبخسَهُ ومنَعهُ. و(ضِزْتُ فلاناً، أضيِزُه، ضَيزاً) : جُرْتُ عليه [4] . وقد جاءت هذه الكلمة بلفظها الغريب لتُفيد معنى الاستغراب من قسمة الكافرين ، فهي قسمةٌ مُستنكرَةٌ ، وفضلاً عن ذلك جاءت هذه الكلمةُ متوافقةً مع

---

(١) ينظر: الجناس في القرآن الكريم ٥١-٥٢.

(٢) سورة النجم ٢١-٢٢.

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي ٢٥٦/٥ ، وتفسير ابن كثير ٥٧٤/٢ ، وتفسير القرطبي ١٠٣/١٧ ، والاتقان في علوم القرآن ٣٧١/١.

(٤) ينظر: لسان العرب (ضيز) ، والكشّاف ٣١/٤.

الفاصلة في السورة ، ففي مراعاة التَّقارب في الفواصل يتمُّ الائتلافُ والانسجامُ الايقاعي، وهكذا تنسجمُ غرابةُ اللفظة مع غرابةِ قسمة الكافرين، بجعلهم الملائكة بناتَ اللهِ، مع وَأدهم البنات، إذ يُفهَم من جملة الاستفهام (أَلَكُم الذَّكرُ ولهُ الأُنثى) إنكارُ هذه القسمة، ثم أُردِفَت بجملةٍ تقريريَّةٍ " تلك إذاً قسمةٌ ضيزى" أضفَتْ نوعًا من التّراكم الدّلالي، أفاد المُبالغة في إنكار هذه القسمة. وفضلاً عن هذا التراكم الدّلالي تبقى غرابةُ اللفظةِ (ضِيزى) أكثر عناصر السِّياق ملاءمةً لغرابة هذه القسمة. [1]

ولاشك أنّ لِكُلِّ كلمةٍ ذائقةً سمعيَّةً تختلفُ عن ذائقة سواها من الكلمات التي قد تؤدِّي المعنى نفسَه، ممّا يجعل ميزةً لكلمةٍ دون أخرى وإن اتَّحدتا في المعنى، ومن ثَمَّ يجعلُها في سياق الكلام ونظمه مؤثِّرةً في النَّفْس أكثر من غيرها. وعلى هذا الاساس كان للجرس الموسيقي أثَرُهُ في التّعبير ، ففي وصف يوم القيامة استعمل القرآن صفاتٍ عديدةً، انسجمت كلُّ صفة من هذه الصفات بحروفها وأصواتها المتولِّدة مع المشهد المرسوم في السِّياق.

ومن هذه الصفاتِ (الصّاخَّةُ) ، وردت في القرآن الكريم مرّةً واحدةً ، في قوله تعالى ﴿ ***فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ*** ﴾ [2] وهي صفةٌ من صفات يوم القيامة، و(الصَّاخَّةُ)

---

(1) ينظر: التعبير الفني في القرآن ٢٠٩ ، وموسيقى الفواصل في القرآن الكريم ٢٠ ، والجرس والايقاع في التعبير القرآني ٣٤٦.

(2) سورة عبس ٣٣-٣٦.

لُغةً: هي الدّاهية العظيمة، من (صَخَّ ، يَصِخُّ فهو صاخٌّ) : أي: شـديدُ الـصوت، وهي بمعنى الصَّائحَة مجازاً، وقيل : مأخوذة من (صَخَّهُ بـالحجرِ) أي : صـكَّهُ. وصَخُّ الصخرةِ وصَخيخُها: صوتُها إذا ضُرِبَت بحجر أو غيره. وكلُّ صوت مـن وَقعِ صخرةٍ على صخرةٍ ونحوه: صَخٌّ وصَخيخٌ ، تقول : (ضربتُ الصّخرةَ بحجرٍ فَسَمِعْتُ لها صَخَّةً)، و(الصّاخّةُ) : القيامةُ ... وهي الصَّيحةُ التي تكون فيها القيامة تصِخُّ الأسماعَ أي : تصمُّها فلا تسمعُ إلاّ ماتُدعى به للإحياء [1] . وقد وُصِفَ بها يومُ القيامة مجازاً ؛ لأنَّ الناسَ يصخّونَ لها يومَ يفرُّ المَرءُ من أخيه وأمِّـه وأبيـه وصاحبته وبنيه ، لانشغاله بشأنِه، وعلمه بأنَّهم لايعنون به، أو للحَذَرِ من مطالبتهم بما قَصَّرَ في حقهم [2] . وتأخيرُ الأحَبِّ فالأحبِّ للمُبالغةِ ، كأنّه قيل: يفرُّ من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه [3] . فلفظة (الصّاخّة) كأنّها بأصواتها المُفَخَّمَةِ تحكي المعنى العام، فهي تمتاز بجِرْسٍ صوتي عنيف، وهي قليلة الاستعمال، أو تختصُّ بمناطق الشدّة والعنف، لأنّ النفخ في الصّور وشـدّة الأمـر تـصِخّ مـن يسمعها، أي يخترق صوتها صماخ الاذن، وهو يشقُّ الهواء شقًّا، وكذلك يـوحي حرفُ (الصَّادِ المُشدَّد) بحالة الفرار من خطر داهمٍ، ومـن مواجهـة أهوالـه، إذ استطالة نُطق الحرف تُبيِّنُ استطالةَ عمليَّةِ الفرار وتصوِّرُ سوقَ المجـرمين إلـى جهنَّم، ولاسيّما أنّ وجود صوت الخاء (المُفَخَّمَة) أعطى الحدث قـوَّةً وبـروزاً ، حيث وقوع الواقعة والاستصراخ الذي لايسمع له سامع، فهو الـصيحة الـشديدة، فاللفظة عنيفة تتوافق مع هول المشهد ، وهو هول نفسي بحـت، يُفـزِعُ الـنفس

---

[1] ينظر: لسان العرب (صخخ).

[2] ينظر: روح المعاني ٤٨/٣٠ ، والتبيان في تفسير غريب القرآن ٤٥٠/١.

[3] ينظر: تفسير البيضاوي ٤٥٤/٥ ، والاتقان في علوم القرآن ٣٣٨/١.

ويفصلُها عن محيطها، ويستَبِدُّ بها استبدادًا ، فلكلٍّ نَفْسُهُ وشأنُه، ولديه الكفاية من الهمِّ الخاصِّ بهِ ، فشدّةُ اللّفظ وقوّته مناسبةٌ لشدّة المعنى وقوّته [1] .

وعلى هذا الأساس من إعطاء الجرْسِ الموسيقي حقّه في التعبير، استعمل القرآن الأوصاف التي اشتقَّها ليوم القيامة، إذ تتلاءم أصواتُ كلِّ صفة مع الاحداث التي تريد وصفَها ، ففي قوله تعالى : ﴿ ***فَإِذَا جَاءَتْ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى*** ﴾ [2]، أطلقت كلمة (الطّامَّة) على يوم القيامة لطمومها كلّ شيء، إذ إنّ الطّامّةَ في اللغة من : (طَمَّ الماءُ يَطمُّ طمًّا وطموماً): علا وغَمَرَ. وكلُّ ماكثر وعلا حتى غلبَ فقد طَمَّ. والطَّامَّةُ : الدَّاهِيَةُ تَغلِبُ ماسواها . والطّامَّة هي الصَّيحَةُ تطُمُّ على كلِّ شيء [3] .

وسمِّيَت القيامة طامَّة لأنّها تكبس كلّ شيء وتكسره، ولو أردنا الموازنة بين (الطَّامَّة) و(الصَّاخَّة) ، وكلاهما من صفات يوم القيامة ، معتمدين على الجانب الصَّوتي ، لوجدنا أنَّ كلمةَ (الطّامَّة) أرهبُ وأنبأُ بأهوال يوم القيامة ، من كلمة (الصّاخَّة)، لذا خُصَّتِ (النَّازعاتُ) بالطّامَّة، لأنّ الطّمَّ قبل الصّخِّ، والفَـزَعَ قبل الصّوت، فكانت هي السّابقة، وخُصَّتْ (عبَس) بالصّاخَّة لأنّها بعدَها، وهي

---

(1) ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ٣٦٦، والدلالة الصوتية في القرآن الكريم ٦٧.

(2) سورة النازعات ٣٤-٣٥.

(3) ينظر: لسان العرب (طمم).

اللاّحقةُ[1] . وذلك لأنّ أصوات كلمة (الطّامَّة) أعطت ايحاءً صوتيًّا أرهــب فــي السّمع ، لما يتمتع به حرف الطّاء من قوّة وفخامة، لأنّه حرف استعلاء مجهــور، ولاسيّما أنّه جاء في الكلمة مضعَّفًا، وممّا زاد اللفظَ قوّة وجود صوت (الميم) فــي الكلمة، وهو صوت مجهور مصحوب بغُنّة ممتدّة بمقدار الطّاء، ولاسيّما أنّ هــذه الميم تمكَّنَ منها النَّطقُ لورودها بعد ألف المدِّ اللازم للسكون ، فأخذ أقصى حــدٍّ لامتداد الصوت . فصوت (الطّاء) و(الميم) أعطيا لفظةَ (الطّامَّــة) صــورة مــن الرّهبة مسموعةً كانت أدلَّ في تبليغها على التخويف من لفظة (الصّاخَّة) [2] .

---

(١) ينظر: أسرار التكرار في القرآن ٢١٤/١.

(٢) ينظر: الدلالة الصوتية في القرآن الكريم ٤٩ ، والجــرس والايقــاع فــي القــرآن الكريم٣٤٨.

المبحث الثانـي
تطور الدَّلالة الاجتماعية

إنَّ الدراسات الدَّلالية قد اتسعت كثيرًا علـــى أيـــدي البـــاحثين المُحْـــدَثينَ، ووُضِعَت فيها الآراءُ، وأُسِّسَتْ فيها النظريات المتعددة، حتى صارت علمًا مستقلاً بذاته من علوم اللُّغة، يعرف بـــ(علم الدَّلالة) [1] ، و(الدَّلالـــة) : " هـــي المعنـــى، و(دلالة أيِّ لفظ) هي : ماينصرف إليه هذا اللفظ في الذهن من معنًـــى مـــدرك أو محسوس، والتلازم بين الكلمة ودلالتها أمر لابد منه في اللُّغة ليـــتم التفـــاهم بـــين النَّاسِ " [2] ، أي أنَّ هذه الألفاظ الدَّالة والمعاني المدلول عنها ماهي إلاَّ " علاقـــةٌ اعتباطية لاسند لها إلاَّ ما يقع من اتفاق النَّاسِ، وتعارفهم على إنشائها وفهمهـــا" [3] ، وبذلك تصبح لدى كل جماعة لغة معينة ، يسود بها التفاهم وفق نظـــم خاصَّـــة، وهذا التفاهم هو مايُعرف بـــ(العرف اللغوي الـــدَّلالي) أو (الدَّلالـــة العرفيـــة) [4] الناتجة عن ثبوت المعنى إزاء اللفظ الموضوع له ، فيكتسب أبناء اللُّغـــة جميـــع الدَّلالات عن طريق التَّلَقِّي والمشافهة، ويتطلّب هذا الاكتساب زمنًا ليس بالقصير، وماتلبث الدَّلالات الصَّرْفِيَّةُ والنَّحويَّةُ، بعد المران الكافي ، أن تحتل في كـــلٍّ منَّـــا منطقته اللاَّشعوريَّة أو شبه الشُّعوريَّة ، فيأخذ يمارسها بطريقةٍ تكاد تكون آليَّـــةً ، من غير جهد أو عناء كبير، وتلك هي المرحلة التي يُعَرِّفُها اللغويون بـــ(الـــسليقة

---

(١) ينظر : النَّظم في التَّطور النحوي والبلاغي ١٧٤ ، والترادف في اللُّغة ١٣.

(٢) الأضداد في اللُّغة ٤٦.

(٣) الأصول ٣٢٣.

(٤) ينظر: دلالة الألفاظ ١٠٤.

اللغوية) [١] . وبشيوع هذه الدَّلالات وكثرة استعمالها، تتداخل مع تجارب النَّـــاسِ، وبذلك تبدأ مرحلة جديدة لهذه الدَّلالة ، وهي : الدَّلالة الاجتماعية. إذن فــ(الدَّلالــة الاجتماعية) هي : توسُّعُ نطاق الدَّلالة العرفية في الفهم والشيوع والاستعمال، و " الدَّلالة الاجتماعية للكلمات تظلُّ تحتلُّ بؤرة الشعور، لأنَّها الهدف الأساس في كــلِّ كلام . وليست العمليات العضليَّة التي نقوم بها في النُّطق بالأصوات، إلاَّ وســائل يرجو المتكلِّمُ أن يصل ، عن طريقها، إلى مايهدف من فهمٍ أو إفهام" [٢] . وسمَّى تمَّام حسَّان الدَّلالة الاجتماعية بــ (اللُّغة المعينة) [٣] .

والطريقة التي تحصل بها الدَّلالة الاجتماعية هي عملية تفريع المعنى العام إلى: المنطوق، والتحليل اللغوي، والمجريات ، ونوع المناسبة والأثر.

فالعلاقة بين المنطوق ومعناه هي التي توصف بأنَّهـا علاقــة اجتماعيــة، وغرض الدَّلالة الاجتماعية إعطاء معنًى للعلاقات بين النَّاسِ، وتنظيم المجتمــع ، فــ " الإيصال الإجتماعي ، يرمي إلى اعطاء معنًى للعلاقات بين النَّاسِ، والنتيجة بين المرسل والمُتَلَقِّي . أما المفردات الإجتماعية، فهي نظام المجتمع ومعناه ، لذا فإنَّ البشر يعدون فيه بمثابة المدلولات، أي : بمثابة المجموعات وعلاقاتها، ولكن الإنسان يمثِّلُ واسطةً لنقل الإشارة ومادَّتِها، إنَّهُ الدَّالُّ والمدلول في الوقت نفــسه، وهو في الواقع إشارة، والإشارةُ الاجتماعيةُ العامة من جهة أخرى هــي إشــارة

---

(١) ينظر: دلالة الألفاظ ٤٩.

(٢) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

(٣) ينظر: مناهج البحث في اللُّغة ٤٠.

(مشاركةٍ) بالمعنى الذي حدَّدنا فيه هذا المصطلح " [1] . فالدَّلالات لايمكن أن تكون ذات نفع، أو تكوِّن معرفةً مهمة تخدم الأهداف الاجتماعية، من دون أن تكون بين الجماعة . فتحول الدَّلالة إلى مفهوم عام ذي منفعة لابد ان يتم عن طريق الفهم الجماعي الهادف إلى حقيقة مشتركة.

و " الألفاظ تتطور ، فتكتسب من المعاني أشباهً جديدةً لم تكن لها ، وليست اللُّغة العربية بنجوة من التَّطور، فالألفاظ العربية كما يدل البحث التاريخي، كانت عرضة للتبدل الذي اقتضاه الزمان، وتقلب الاحوال، والنظم الاجتماعية. وما الألفاظ الإسلامية إلاَّ لونٌ من أَلوان هذا التَّطور الذي عرض للَّفظة العربية البدويَّة القديمة، فاستحالت شيئًا آخر يتطلَّبه الدِّين الجديد والبيئة الجديدة" [2] ، وما سَنُبَيِّنُهُ في هذا المبحث انتقال بعض الألفاظ من معانيها العرفيَّة إلى معانٍ جديدة تعارف عليها المجتمع من خلال السياق، فأطلق عليها: الألفاظ الإسلامية .

ومن ذلك ألفاظ العبادات الإسلامية المعروفة من (صلاة وزكاة وصيام وحج) ، فجميع هذه العبادات عرفتها الأديان القديمة قبل الاسلام على صورة من الصور، فالله تعالى يقول عن بعض الأنبياء : ﴿ ***وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاة وَإِيتَاءَ الزَّكَاة وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ*** ﴾ [3] .

---

(1) علم الإشارة ١٣٧-١٣٨.

(2) التَّطور اللغوي التاريخي ٤١.

(3) سورة الأنبياء ٧٣.

وفي (الصِّيام) قال تعالى : ﴿ ***يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيام كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ*** ﴾ [1] ، وفي (الحجّ) قال تعالى : ﴿ ***وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۞ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحجّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ*** ﴾ [2] ، فالمتأمِّلُ هذه الآيات يجد أنَّ الألفاظ التي خصت بعبادةٍ معينة ، في الاسلام ، قد جعلت للدلالة على عبادات معينة ، في تلك الديانات ، مناسبةٍ لعصرها وبيئتها، وعندما جاء النبي محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة الملائمة للبشرية، فرض الله ﷻ هذه العبادات بأساليب جديدة، وبأكمل صورها، فأصبحت هذه الكلمات عندما تطلق يُفهم منها المعنى الجديد ، وليس القديم، فـ (الصَّلاة) لم تعد مجرَّد ابتهالٍ ودعاء، كما ذُكرت في المعنى اللغوي المتعارف عليه[3] ، الذي ذكره الله تعالى بقوله : ﴿***خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ***﴾[4]، أي: (ادعُ لهم)[5].أَمَّا استعمال القرآن الكريم فقد أضفى عليها معنًى جديدًا،فلو تَأَمَّلْنا قوله تعالى:﴿***يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاة فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ***

---

(١) سورة البقرة ١٨٣.

(٢) سورة الحجّ ٢٦-٢٧.

(٣) ينظر: لسان العرب (صلا).

(٤) سورة التوبة ١٠٣.

(٥) تفسير الجلالين ٢٥٩.

وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [١] فاصبحت (الصَّلاة) تدلُّ على معنًى شرعي مخصوص بعبادة معينة ، إشترط الإسلام لها النَّظافة والطَّهارة، ومن مظاهرها القيام والرُّكوعُ والسُّجودُ والدُّعاءُ والتَّسبيحُ[٢] . كما في قوله تعالى: ﴿***وَأَقِيمُوا الصَّلاة وَآتُوا الزَّكَاة وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ*** ﴾ [٣] ، وقد وزَّعها على اوقات النهار والليل وبمواقيت معينة، كما في قوله تعالى : ﴿***وَأَقِمْ الصَّلاة طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ*** ﴾ [٤] ، وقوله تعالى ﴿ ***فَأَقِيمُوا الصَّلاة إِنَّ الصَّلاة كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا*** ﴾ [٥] . وغير ذلك من الآيات الدَّالة على هذه العبادة [٦] . فهذه الصَّلاة الإسلامية بهذه الصورة الجديدة لم تكن معروفةً في الأديان السَّابقة، وبذلك فقد تخصَّصت لَّفظة (الصَّلاة) بعد الإسلام بما أشرنا اليه، وقد تعارف المجتمع عليها بهذا المعنى، فاكتسبت اللَّفظة دلالةً اجتماعيَّةً جديدة.

---

(١) سورة المائدة ٦.

(٢) ينظر: العبادة في الاسلام ٢٠٥ ، والتَّطور الدَّلالي للألفاظ الاسلامية حتى نهاية القرن الثالث الهجري ١٤٧.

(٣) سورة البقرة ٤٣.

(٤) سورة هود ١١٤.

(٥) سورة النساء ١٠٧.

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤١٦-٤١٧.

ومثل ذلك لَّفظة (الزَّكاة) ، فهي لغة تعني: الزِّيادة والنَّماء.. فــ (زكا المال يزكو زكا) ، إذا زاد ونما [١] ،وقد اعتاد النَّاسُ قبل الإسلام على أنَّ الذي يــزدادُ مالُه يتبرَّع بشيءٍ منه إحسانًا وتطوُّعًا ، وقد استعملت كلمة (الزَّكاة) مجازًا للتَّعبير عن هذا الفعل بحُكم العلاقة السببية، فلكونه إزداد ماله، أغــدق بالاحــسان علــى غيره، فسمِّيت هذه العملِّيةُ بــ(الزَّكاة) . أمّا في الاستعمال القرآني فــ (الزَّكــاة) عبادة معينة، فلم تعد مجرَّد احسان محسنٍ ، أو صدقةً يتطوَّع بها المتطوِّع، وإنّما هي حقٌّ معلوم، وضريبةٌ مُقدرَّةٌ على كلِّ من يملكُ نصابًا مُحدَّدًا ناميًا من المــال حال عليه الحول ، فاضلاً عن الحاجات الأصلية لمالكه [٢] ، كما في قوله تعــالى : ﴿ ***وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّــهِ***﴾[٣] ، وقولــه تعالى : ﴿ ***إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَــدِينَ*** ﴾ [٤] فجعلت (الزَّكاة) جزءًا من الإيمان بالله، وقُرنت في أكثر مــن موضــع مــع (الصَّلاة) [٥] . وهي ركنٌ من الأركان الأساسية للعبادة ، لما لها من أهمية بالغة . وليس هذا فحسب ، ففي قوله تعالى : ﴿***خُذْ مِنْ أَمْــوَالِهِمْ صَــدَقَةً تُطَهِّــرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ*** ﴾ [٦] ، أصبحت (الزَّكاةُ) حقًّا معلومًا لله فيما أنعم به من مال أو تجارة

---

(١) ينظر: لسان العرب (زكا).

(٢) ينظر: العبادة في الإسلام ٢٠٦.

(٣) سورة النساء ١٦٢.

(٤) سورة التوبة ١٨.

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٣٣٦.

(٦) سورة التوبة ١٠٣.

أو زرع، يدفع إيمان المرء إلى أدائه، فَمَنْ أدَّاها بنفسٍ طيِّبةٍ، فقد كسب رضا الله والنَّاسِ، وفاز بخير الآخرة والأولى ، لتجنبه النَّار ، لقوله تعالى: ﴿***سَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى(*)الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى***﴾ [١] ، وهكذا نجد أنَّ (الزَّكاة) قد اكتسبت دلالةً اجتماعيَّةً جديدةً وفق العبادة الجديدة.

وكذلك لفظ (الصِّيام) ، فهو : كلُّ إمساكٍ عن الطعام والشراب، أو عن الكلام، فهو لغةً من : (صَامَ يَصُومُ صَوْمًا وصِيَامًا ، ورجلٌ صائمٌ وصَوْمٌ من قومٍ صُوَّام وصِيَّامٍ وصُوَّم ، و(صام الفرسُ) : قام على غير اعتلاف [٢] ، فكل هذه المعاني كانت معروفة لدى العرب . أمَّا (الصِّيامُ) في القرآن، فهو : الإمساك المكلَّف بالنِّيَّةِ ، من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود ، عن تناول الطعام والشراب والجماع [٣] ، لقوله تعالى ﴿ ***أَتِمُّوا الصِّيام إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ***﴾[٤] ، و(الصِّيام) : فريضةٌ من الله تعالى ، لقوله : ﴿ ***يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ*** ﴾ [٥] ، فـ(كُتِب عليكم) : (فُرِضَ عليكم) [٦] . فـ(الصِّيامُ) معروف عند العرب ، إلا أنه في القرآن وضع لمعنًى اسلامي جديد، لعبادة معينة، وقد حدَّده الشرع بأحكام مبينة ، وبوقت

---

(١) سورة الليل ١٧-١٨.

(٢) ينظر: لسان العرب (صوم).

(٣) ينظر: التعريفات ٧.

(٤) سورة البقرة ١٨٧.

(٥) سورة البقرة ١٨٣.

(٦) تفسير الجلالين ٣٥.

مخصص(١) ، لقوله تعالى : ﴿ ***فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ*** ﴾ (٢) ، وبذا تكون لَّفظة (الصِّيام) في العرف الاجتماعي قد تغيَّرت عمَّا هي عليه في العرف اللغوي السابق.

ومن ألفاظ العبادة التي تغير معناها، وحُدِّد بشيء لم يكن معلومًا سابقًا: لَّفظة (الحجّ) ، فهي في اللُّغة : القَصْد ، يقال : (قد حَجَجْتُ الموضعَ، أَحُجُّهُ ، حَجًّا) إذا قَصَدْتُهُ، و(الحَجُّ) : الزيارةُ والقُدُومُ وإتيانُ الشيء مَّرةً بعدَ مرّة، وَ(رجُلٌ حَاجٌّ وقومٌ حُجَّاجٌ وحَجِيجٌ)(٣) . وهذه المعاني معروفةٌ قبل الاسلام ومستعملة . أمَّا في السياق القرآني فلَّفظة (الحجّ) اختصَّت بأحكام اسلامية جديدة، وقصد بـ (الحجّ) : الذهاب إلى الكعبة والطَّوافُ حولها في وقت معلوم، وبشروط معينة، وبأحكام معينة(٤). ففي قوله تعالى: ﴿ ***الحجّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحجّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الحجّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ*** ﴾ (٥) ، بيانٌ لشروطه وأحكامه ، وهو فريضةٌ من الله ، لقوله تعالى : ﴿ ***وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا*** ﴾ (٦)، أي : أنَّ (الحجّ)

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٢٠.

(٢) سورة البقرة ١٨٥.

(٣) ينظر: لسان العرب (حجج).

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٠١.

(٥) سورة البقرة ١٩٧.

(٦) سورة آل عمران ٩٧.

هو " حقٌّ واجبٌ لله في رقاب النَّاسِ لاينفكُّون عن أَدائه والخروج من عهدته" [1] .
وبذلك يكون الإسلام قد أعطى لَّفظة (الحجّ) معنًى جديدًا لم تكن العرب تعرفه من قبل، فالحجّ " لم يكن عندهم غير القصد، ثم زادت الشريعة مازادته من شرائط الحجّ وشعائره" [2] .

وهكذا نجد أنَّ القرآن حين حدَّد المعاني الجديد لهذهِ الألفاظ ، لم يكن ذلك بمعزل عن السياق ، لأنَّ كلَّ كلمة يتحدَّد معناها في علاقاتها مع الألفاظ المتجاورة في النص ، لذا نجد أنَّ النص قد يحدد بعض الدَّلالات ، أو يضيف أخرى ، كما بينا في الفاظ العبادة السابقة، وقد يخلق النَّصُّ دلالات لم تكن معروفة من قبل، فتشيع، ويتعارف عليها المجتمع ، كالالفاظ المتعلقة باليوم الآخر ، ووصف مشاهد يوم القيامة والجنَّة والنَّار. ومن هذه الالفاظ التي وصف بها اليوم الآخر : لَّفظة (الحشر) ومعناها في اللُّغة: الجمع ، لقولهم : (حَشَرهم ، يَحْشُرهم ، ويَحْشِرهم حَشْرًا) : جمعهم، و(المَحْشَرُ): المَجمعُ الذي يُحشر إليه القوم [3] ، أمَّا في الاستعمال القرآني فنجد أنَّ لَّفظة (الحشر) ، وبجميع صيغها التي وردت (٤٣) مرة [4] ، قد أعطت معنًى محددًا ، هو : جمع الخلق يوم القيامة، لقوله تعالى : ﴿ ***يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا*** ﴾ [5] ، وقوله تعالى :

---

(١) الكشاف ٤٤٨/١.

(٢) المزهر ٢٩٥/١.

(٣) ينظر: لسان العرب (حشر).

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢١١-٢١٢.

(٥) سورة طه ١٠٢.

﴿ ***نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا*** ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ ***وَمَا منْ دَابَّةٍ فِي الارْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ*** ﴾ [2] ، فمن خلال هذه الآيات نجد أنَّ لفظ (الحشر) قد اختصَّ بيوم القيامة .

وهكذا نجد العديد من الألفاظ قد ضُيِّقت دلالتها واختصَّت بهذا اليوم ومايحدث فيه ، كـ(الصُّور، والقارعة، والحاقَّة، والقيامة، والنَّاقور، واليوم الآخر، ويوم التَّغابن، ويوم التَّلاقي، ويوم التَّنادي ، ويوم الجمع، ويوم الحساب، ويوم الحسرة، واليوم الحق، ويوم الدين، ...) .

ومن الألفاظ التي أطلعت النَّاسَ على دلالةٍ جديدة لم تكن معهودةً : لفظ (الجنَّةِ) ، فهو في اللُّغة من : (جنَّ الشَّيءَ، يَجُنُّهُ جنًّا) : ستره. و(الجَنان): الليل ، و(الجَنان): القلبُ لاستتاره في الصَّدرِ ، و(الجنَّة) : البُستانُ ، و(الجِنَّةُ): الجِنُّ ، واحدُهم (جانٌّ)، و(الجُنَّةُ): السِّترُ [3] .

---

[1] سورة الاسراء ٩٧.

[2] سورة الأنعام ٣٨.

[3] ينظر: لسان العرب (جنن).

أمَّا في القرآن الكريم فقد ذُكرت في مواضع عديدة [١] ، وبأوصاف عديدة جميعها تشير إلى دار قرار وخلود يؤول اليها الإنسان المؤمن في الحياة الآخــرة، لتقواه في الحياة الدنيا، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ***ادْخُلُوا الجنَّة لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ*** ﴾ [٢] ، وقوله تعالى ﴿ ***مَثَلُ الجنَّة الَّتِــي وُعِــدَ الْمُتَّقُــونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الانْهَارُ*** ﴾ [٣] ، وبذلك تحدَّد معنًى لفظة (الجنَّة) في الاســلام، فأصبحت له دلالة اجتماعية جديدة، تدل على دار الثواب في الآخرة، وقد وصفت هذه الدار بألفاظ عديدة كــ (الفردوس، وعدن، والنعيم، والخلد ، ..) ، وجميعها ألفاظ سُحِبت من دلالتها العرفية وأطلقت على دار القرار التي وصفها القرآن .

ومثلُ ذلك الألفاظُ التي وصفتْ نارَ الآخرة ، فــ (النَّارُ) في اللُّغة معروفة مؤنثة ، وتصغيرها (نُوَيْرة)، والجمع: (أَنْوُرٌ) و(نيرانٌ) و(نيرةٌ) و(نُورٌ) [٤] .

أَمّا في القرآن الكريم فقد وردت لَّفظة (النَّار) فــي مواضــع عديــدة [٥] ، ووصفت بأوصاف كثيرة، كما في قوله تعالى : ﴿ ***فَاتَّقُوا النَّار الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسِ وَالحجّارَةُ*** ﴾[٦] ، وقوله تعالى : ﴿ ***أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّار وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الجنَّــة وَالْمَغْفِرَةِ*** ﴾ [٧] ، وقوله تعالى : ﴿ ***وَمَأْوَاهُمْ النَّار وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّــالِمِينَ*** ﴾ [١] ،

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ١٨٩.

(٢) سورة الأعراف ٤٩.

(٣) سورة الرعد ٣٥.

(٤) ينظر: لسان العرب (نور).

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٧٢٨-٧٣٠.

(٦) سورة البقرة ٢٤.

(٧) سورة البقرة ٢٢١.

وقوله تعالى : ﴿ ***فإنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَــا*** ﴾ [٢] وبذلك تكون لَّفظة (النَّار) في القرآن قد تخصَّصت بجهنَّم مثوى الكافرين التي تختلف بلا شك عــن كــل نــار معروفة، فهي مكان العذاب لمن حقَّ عليه العذاب بعد مشيئة الخالق جلَّ شأنه [٣] .

---

[١] سورة آل عمران ١٥١.

[٢] سورة التوبة ٦٣.

[٣] ينظر: الكشاف ٢٥١/١-٢٥٢ ، والزينة في الكلمات العربية الإسلامية ٢٠٦/٢.

المبحث الثالث
تطور الدلالة الإيحائية

(الإيحاء) لغة : الإشارة والإلهام والكلام الخَفِيُّ وكُلُّ ما أَلقيته إلى غَيْرِكَ، يقال: (وَحَى إليه الكلامَ وَحْيًا) و (أَوْحَى) أيضًا وهو أن يكَلِّمهُ بكلامٍ يُخْفية. ويغلبُ استعمالُه في الإلهام ملحوظًا في أصل دلالته على السرعة والخفاء. ويأخذ في القرآن دلالة اسلامية ممَّا يوحي به الله تعالى إلى الرسل والأنبياء، فإذا تعلَّق بغير الأنبياء فهو من الإلهام [١] ، كقوله تعالى : ﴿***وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى***﴾ [٢] وقوله تعالى: ﴿***وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا***﴾ [٣] ، و(الدَّلالة الإيحائية) اصطلاحًا هي : مجموعة المعاني التي يمكن أن تتولَّد من اللَّفظة الواحدة داخل السياق، فيكون أحَدُها المعنى المركزي أو الرئيس للَّفظة، وتكون المعاني الأُخَرُ كالظِّلالِ له . لذا نجد أنَّ للألفاظ دلالاتٍ واسعةً يكون الإفصاح عن بعضها ، دون غيرها ، من خلال السياق، بل قد يُرشِّحُ السِّياقُ للَّفظة دلالةً تغايرُ دلالاتِها المعجمية كلَّها ، يقول عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) : "إنَّ لكلِّ نوعٍ من المعنى نوعًا من اللفظ، هو به أخصُّ وأَولى، وضروبًا في العبارة هو بتأديتها أقوم" [٤] ، فاللَّفظ لايُحكم عليه منفردًا بمزيَّةٍ أو قُبحٍ، وإنَّما يُحكَمُ عليه بذلك

---

[١] ينظر: لسان العرب (وحى).

[٢] سورة القصص ٧.

[٣] سورة النحل ٦٨.

[٤] الرسالة الشافية ١٠٧.

وهو مُرتَّبٌ ومؤلّفٌ مع غيرهِ داخل السياق ، لأنَّ " الألفاظ لاتفيد حتى تؤلّف ضربًا خاصًّا من التأليف، ويُعمدُ بها إلى وجه دونَ وجهٍ من التَّركيبِ والتَّرتيبِ" (١) .

فاختيار اللفظ وإحلاله في الموقع المناسب له في السِّياق هو أساس البلاغة، لأنَّ لبعض الألفاظ وقعًا خاصًّا يسيطرُ على النَّفْسِ، لايوحيه لفظٌ يوازيه لغةً ، فهو مجال الانفعالات النفسية والتأثر الداخلي للإنسان، و " كلَّما كانت إيحائيَّـة الكلمـة عاليةً، كانت قيمة تلك الكلمة فَنِّيًّا عاليةً أيضًا ، والعكس بالعكسِ" (٢) .

وفي الاستعمال القرآني كثيرٌ من الصيغ والألفاظ تُوحي بأَكثر من مـدلول، وتنطوي على جملة من المعاني، ويأتي السِّياقُ لِيُرَشِّحَ واحدًا منها (٣) .

فظاهرة اختيار اللفظ المناسب للسياق في القُرآن ، ظاهرة شائعة ، لايمكن أن يُحيط بها بحثٌ مهما كان واسعًا أو دقيقًا، إلاَّ أنَّنا سـنحاول جاهـدين ضـرب بعض الأمثلة القُرآنية التي ندلُّ بها على مدى العلاقة بين اللفظ ومعناه، من خلال مايوحي به السِّياق من معنًى ، فالنَّصُّ القرآني قد امتاز بِتَخَيُّرِ الألفـاظِ وانتقائهـا للكشف عمَّا لها من "قوة تعبيرية، بحيث يؤدِّي بها ، فضلاً عن معانيها العقليـة، كلَّ ماتحمل في أحشائها من صورٍ مُدَّخرة، ومشاعر كامنةٍ، لفَّتْ نفسها لفًّا حـول

---

(١) أسرار البلاغة ٨.

(٢) نظرية النقد العربي في ثلاثة محاور متطورة ٩٦.

(٣) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني ٢٦٩.

ذلك المعنى العقلي"[1]، ففي قوله تعالى : ﴿ ***وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ*** ﴾[2] ، تظهر الطَّاقةُ الإيحائيَّةُ لكلمة (جاثمين) ، فـ (الجَثْمُ) في اللغة من (جَثَمَ، يَجْثَمُ ويَجْثُمُ، جَثْمًا وجُثُومًا، فهو جاثم) ، أي: لَزم مكانه فلم يبرح ، أي تلبَّد بالأرض، وقوله تعالى : ﴿ ***فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ*** ﴾ أي : أجسادًا ملقاةً على الأرض، أي : أصابهم البلاء فبركوا فيها، أو أصابهم العذاب فماتوا جاثمين، أي: باركين [3] أو لاصقين بالأرض [4] ، وورودها في السياق القرآني في تصوير حال من أصابهم العذاب بسبب الصَّيحة أَعطى معنًى (ساقطين) ، إذ بيَّنت الصورة كأنَّ هؤلاء الذين أَخذتهم الصَّيحة سقطوا على وجوههم هامدين موتى لايتحركون، فاللَّفظة توحي بشدَّةِ الأخذ وسُرعته، فجاءت مناسبةً للسِّياق، لائقةً به ، لما توحيه من بيانٍ وتصويرٍ وتقرير مشهدٍ، إذ تتضمّن صورًا سريعة للأخذ والسقوط وعدم الحراك، ولو أُبدلت اللَّفظة بأيِّ لَّفظة أخرى لما أشارت إلى ما أشارت اليه من معانٍ [5] .

وقد عبَّر الجاحظ (٢٥٥هـ) عن هذا بقوله : " لكلِّ ضرب من الحديث ضربٌ من اللَّفظ، ولكلِّ نوعٍ من المعاني نوعٌ من الأسماء " [6] ، فلا يخفى على كُلِّ صاحب بصيرةٍ في القرآن الكريم أنَّه موحٍ بأَلفاظه وتراكيبه وصيغه وأَساليبه

---

(١) فنون الأدب ٧٦.

(٢) سورة هود ٦٧.

(٣) ينظر: لسان العرب (جثم).

(٤) ينظر: مفردات غريب القرآن ١٦٧.

(٥) ينظر: سورة هود – دراسة لغوية دلالية ٢٢٧.

(٦) الحيوان ٣/٣٩.

التي يدلُّ بها على المعاني، فهناك من الالفاظ ما توحي بأكثر من المعاني المعهودة فيها، أي أنَّ اللفظ يدل على معانٍ أُخر تكون ظلالاً للمعنًى المركزي، ومن ذلك لفظة (عبوسًا) في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (۝) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا** ﴾ [١] ، و(عبوسًا) في اللغة من : (عَبَسَ، يَعْبسُ، عَبْسًا) و (عَبَّسَ) : تَجَهَّمَ، و(رجل عابسٌ) من (قومٍ عُبُوس). و(يومٌ عابسٌ وعبوسٌ) شديدٌ [٢] .

واستعملت لَّفظة (عبوسًا) في السياق القرآني استعمالاً مجازيًا ، إذ جاءَ وصفًا ليوم القيامة ، لما يُرى فيه النَّاسِ من حالة الفزع والرهبة التي تضيق على المرء ، فتبدو هيأته عابسة، لما يرى من شدة الموقف، فأُجريت الصفة المنطبقة على وجه الكافر على يوم القيامة، لما فيه من هول وشدة ، فالمعنى : نخاف يومًا ذا عبوس [٣]. فكان اختيار لَّفظة (عبوسًا) لما تثيره في النفس من فزع.

فالعلاقة المجازية هي التي ربطت بين هيأة الوجه ومايحدث في ذلك اليوم من ذلك الزمن [٤] ، وهذا مايجعلنا نستشعر وجود ترابط بين صوت الكلمة وماتوحي به من معنًى ، فضلاً عن المعاني الاخرى التي تُوَلِّدُها هذه اللَّفظة، إذ تُعطِي انطباعًا عن أَهوال يوم القيامة، وشدَّةِ الفزع الذي يستولي على النَّاسِ،

---

(١) سورة الإنسان ١٠-١١.

(٢) ينظر: لسان العرب (عبس).

(٣) ينظر: فتح القدير ٣٤٨ ، وتفسير القرطبي ١٣٥/١٩.

(٤) ينظر: الكشاف ١٩٦/٤ ، والتعبير الفني في القرآن الكريم ١٨٨.

فيجعلُ وجوههم منقبضةً من شدَّة الخوف، فكأنما ذلك اليومَ يَتَلَوَّنُ بِلَونِ تلم الوجوه العابسة، وهذا على سبيل المبالغة في الوصف.

ولو تتبعنا الألفاظ المُوحِيةَ في السِّياق القرآني لوجدنا الكثير منهـا ، ففـي قوله تعالى : ﴿ ***وَمَا بِكُمْ مِنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ*** ﴾[1]، جاءت لَّفظة (تجأرون) من (جَأَرَ ، يجأرُ، جأرًا وجـؤرًا) ، أَيْ: رفعَ صوتَه بالدعاء معَ تَضَرُّعٍ واستغاثة [2] .

والجؤار في الأصل: صياح الحيوانات [3] . ووقع الاختيـار علـى هـذه المفردة لتدلَّ على أَصوات المستصرخين من البشرفي تضرعهم واسـتغاثتهم [4] . وهل يمكن على سبيل التقدير أن نستبدل هـذه اللَّفظـة بلَّفظـة (يستـصرخون) أو(يتضرعون) في طلب الاستغاثة والرحمة من الله ؟ ، والجواب: إنَّ (تجـأرون) أعطت لنا صورة موحيةً بارتفاع الاصوات بالدُّعاء والتَّضَرَّع والاستغاثة لكـشف الضُّرِّ، وإنَّ هذه الأَصوات قد اختلَطَت ببعضِها حتى عادت مبهمةً كجؤار البهائم .

ومثل ذلك من استعارة أَلفاظٍ خاصَّة بالحيوانات وإطلاقها على البشر ، لما فيها من تراكم دلالي وإيحائي ، استعارة (الخرطوم) في قوله تعالى : ﴿ ***سَنَسِمُهُ***

---

(١) سورة النحل ٥٣.
(٢) ينظر: لسان العرب (جور).
(٣) ينظر: أساس البلاغة ٥٠.
(٤) ينظر: الكشاف ٤١٣/٢ ، وتفسير البيضاوي ٤٠٤/٣.

عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ [1] ، فـ (الخرطوم) : أنف الفيل، ويقومُ مقامَ يدهِ ، واستعير بمقدَّمِ أنفِ الانسان لانه من الممكن أن يُقَبَّحَ يومَ القيامةِ فَيُجعلَ كخرطوم الفيل [2] . ففي السياق القرآني دلَّ الخرطوم على انف الشخص الملقى في النار – استقباحًا له كذلك يوحي اللفظ بشدة الذِّلَّة، وغاية الاهانة، والتشويه، والعار الذي لايفارقه [3]

فاختيار كلمة (الخرطوم) ، دون غيرها، أوحى بمذلة الكافر وقبحه في ذلك اليوم، وذلك أنّ العرب اعتادت على أن يكون الأنف رمزًا للعزِّ والحميّة ، فاشتُّقوا منه: (الأَنَفَة) ، وقالوا : (الآنف) ، و(فلان شامخ الأنف)، وقالوا في الذليل: (جُدِعَ أنفه) ، فَعُبِّرَ بالوسم على الخرطوم عن غاية الاذلال والاهانة [4] .

ومن الالفاظ التي استعملت في السياق القرآني فكانت لها دلالتها الإيحائية المتطورة : كلمة (ذائقة) ، في قوله تعالى : ﴿ ***كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ*** ﴾ [5] ، فلَّفظة (ذائقة) من (ذاقَ الشَّيْءَ) أي

---

[1] سورة القلم ١٦.

[2] ينظر: لسان العرب (خرط).

[3] ينظر: روح المعاني ٣٩/٣٩ ، وتأويل مشكل القرآن ١٥٦-١٥٧.

[4] ينظر: المفردات في غريب القرآن ١٤٦ ، والتبيان في تفسير غريب القرآن ٤٢١/١، وقيل إنّ الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، لأنَّه أصيب بجرح على أنفه في معركة بدر، فبقي أثره ، فاستعير له هذا الوصف استقباحًا وتشنيعًا وإشارة إلى الشر . ينظر: مناهل العرفان٢٧٦/٢.

[5] سورة آل عمران ١٨٥.

: اختبر طعمه، و(تَذَوَّقَهُ) ذاقه شيئًا بعد شيء. و(أمْرٌ مُستذَاقٌ) أَي : مُجَرَّبٌ معلوم [1] . ويستعمل هذا اللَّفظُ مع " مايقلُّ تناوله دون ما يكثر ، فإنَّما يكثـر يُقـال لـه (الاكل) " [2].

وقد استعمل القرآن لفظ (ذاق) بمشتقاتها فعلاً واسمًا (٦٣) مرة ، أَغلبها في العذاب[3] ، فعُبِّر بهذا اللفظ عن الموت النازل بالانسان، فيقال: (ذاقه) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ***كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ*** ﴾ ، أَيْ : نازل بها لامحالـة. فأوحـت اللَّفظة بتصوُّر عملية الموت وكأنّها شيء يذاق، لأنَّ كلمة (ذائقة) خلعـت علـى الموت سمةً تَتَّصِلُ بعملية الأكل المُسَبِّبَةِ لاستمرارِ حياة الانسان، لكنها هنا ذائقـة تتصل بنهاية عمره، أي : تتصل بعملية الموت، إلاَّ انّ المعنى ، من خلال السياق يوحي بأنَّ هذا التذُّوق للموت الذي يُلغي كلَّ الحاجات يختلف عن تذوقه للطعام او الشراب ، ففي هذا المجاز نجد مقارنةً بين عمليتي تذوُّق ، إحداهما تذوُّق يتَّـصلُ بالطعام المُسَبِّب للحياة الدنيا، والأُخرى تذوُّقٌ يتـصل بـالموت المـسبِّب للحيـاة الأُخرى حيث توفية الأُجور. وممَّا يعزِّز هذه الصورة الإيحائية الصورة اللاَّحقـةُ بما يوحيه الفعل (زُحْزِحَ) من تصور عملية تكرار الإبعاد والتنحية عن النار، ذلك التَّكرار الذي دَلَّت عليه صيغة (فُعْلِلَ) في قوله تعالى : ﴿ ***فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ*** ﴾ [4] ، فجمالية المفردة تكمن في توافـق الـصوت مـع الصورة، ففي كلمة (زُحْزِحَ) إشارة إلى تجسيم الحركة المتكـرِّرة تبعًـا لتكـرُّر

---

(١) ينظر: لسان العرب (ذوق).

(٢) المفردات في غريب القرآن ١٨٥.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٨٤.

(٤) سورة آل عمران ١٨٥.

الحروف، وهو يقرِّر هنا ماجاء به فقهاء اللغة، إذ يقال : إنَّ الزحزحة هي التَّنحيةُ والإبعاد ، وهي تكرير الزَّح ، وهو : الجَذبُ بعجلةٍ[(1)]

وفي قوله تعالى : ﴿ ***وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ*** ﴾[(2)] ، فلَّفظة (عُقْدَة) من (عَقَدَ)، و (العَقْدُ) : الإبرامُ ، وهو نقيضُ (الحَـل ِّ)، يُقالُ : (عقدتُ الحبلَ ، فهو معقود) ، ومنه (عقدةُ النكاح) ، و(عقدةُ البيع)، فهو من (الشَّدِّ) و(الرَّبط)، و(عَقْدُ كُلِّ شيءٍ) : ابرامه [(3)] . وقد وردت هذه الصيغة في القرآن ثلاث مرات [(4)] على سبيل الاستعارة، فأخرجت المعنى الذهني في قوله تعالى : ﴿ ***وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ*** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ***إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ*** ﴾ [(5)] وهو الرابطة التي تربط بين قلبي الزوجين في صورة حسية مجسدة، لتأكيد قوة العلاقة بين الرجل والمرأة ، فَشُبِّهتِ الرابطة الزوجية برباط مادي محسوس يُعقد ، ثم حذف المشبه به (المستعار منه) وابقي على شيءٍ من لوازمه يدل عليه في التعبير ، يتمثل بـ(العقدة) على طريق الاستعارة المكنية، ففي الاستعارة دلالة موحية تشير إلى أهمية الرابطة الزوجية

---

(1) ينظر: الكشاف ٤٨٥/١.
(2) سورة البقرة ٢٣٥.
(3) ينظر: لسان العرب (عقد).
(4) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٧٠.
(5) سورة البقرة ٢٣٧.

التي تربط بين الرجل والمرأة ، والتي تبنى عليها حياة مقدسة ، هي أساس بناء المجتمع السليم، فكلَّما قوي بناء الأسرة قوي بناء المجتمع [١] .

ومن الأمثلة على تطور الدلالة الإيحائية للألفاظ : لَّفظة(غليظ) في قوله تعالى:

﴿ **مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۞ يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ** ﴾ [٢] ، فلَّفظة (غَلِيظ) من (غَلُظَ) و (الغِلْظَةُ) ضِدُّ (الرِّقَّةِ) في الخلق والطبع والمنطق والعيش ونحو ذلك [٣] .

ولفظ (غليظ) لفظ مستعار ، لأنَّه وصف للعذاب ، والعذاب في الحقيقة لايوصف بالغلظ والرّقّة ، لأنَّه الألم الذي يلحق الحيَّ في قلبه أو جسمه ، وإنَّما وصفه تعالى بالغلظ على طريقة كلام العرب لأنَّهم يصفون الأمر الهين بالضؤولة والرقة ، كما يصفون الأمْرَ الشاقّ بالغلظ والشدَّة ، حملاً لذلك على عرفهم في مراعاة الشيء الغليظ الكثيف ، وقلة الاحتفال بالشيء الرقيق الضئيل [٤] ، فقوله تعالى : " ومن ورائه عذاب غليظ " أي : وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ

---

(١) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٣٤ ، والاستعارة في القرآن الكريم ١١٢.

(٢) سورة ابراهيم ١٦-١٧.

(٣) ينظر: لسان العرب (غلظ).

(٤) ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٦٢ .

، أي : مؤلمٌ صعبٌ شديدٌ أغلظ من الذي قبله وأدهى وأَمــرّ [1] ، فلفــظ (غلــيظ) مستعار أوحى بالتناسب بين غلظة الكافر الجبار العنيد ، وغلظة العــذاب الــذي ينتظره ، وهنا تكمن الدلالة الإيحائية .

ومن الألفاظ التي أوحت بمعناها عبر السياق الــذي وردت فيــه : لَّفظــة (دَمْدَمَ) في قوله تعالى : ﴿ ***فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا*** ﴾ [2] أي : أهلكهم ربُّهم ، وأَطبقَ عليهم العذاب بــذنبهم ، بقتلهم النَّاقةَ وتكذيبهم صالحًا " [3] ، وحقيقة (الدَّمدمةِ) : تضعيفُ العذاب وترديــدُه وإطباقُه عليه[4] .

فلَّفظة (دمدم) أوحت بسرعة العذاب وتضعيفه وتريد يده وإطباقــه علــيهم حين غشاهم الله به . ومِمَّا أَفادَ هذا الأثر الدّلالي ما للتكرار المقطعي فيه من دلالة إيحائية مشعرة بهول العذاب وتواليه بما يتناسب مع سوء الذنب الذي اقترفوه .

وهكذا نجد للكناية والرمز جانبًا كبيرًا في جمالية تصوير المعنــى ، ففــي قوله تعالى : ﴿ ***وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ***

---

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ٥٢٨/٢ ، وتفسير الثعالبي ٢٧٧/٢ .

(٢) سورة الشمس ١٤ – ١٥ .

(٣) ينظر : معاني القرآن ، للفرّاء ٢٦٩/٣ ، وتنوير المقياس من تفسير ابن عبــاس ٣٩٠ ، ولسان العرب (دمم) .

(٤) ينظر : تفسير القرطبي ٧٩/٢٠ .

مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ [1] ، استعملت لفظة (مغلولة) وهي : الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه ، ويقال لها : (جامعة) أيضًا [2] .

وجاءت لفظة (مغلولة) في السياق القرآني كناية عن البخل ، فأوحت بصورة يد البخيل التي لاتستطيع أن تمتَّد للإنفاق والعطيَّة [3] ، إذ يدهُ مغلولةٌ إلى عنقه ، للإيحاء بهذه الخلة المذمومة في صورة بغيضة منفِّرة [4] ، وعلى النقيض من ذلك قوله : (لاتبسطها كلَّ البسط) لتصوير حال المبذر الذي لايبقي من مالهِ على شيءٍ، كهذا الذي يبسط يده فلا يبقي فيها شيئًا، وهكذا استطاعت الألفاظ أن توحي بالمعاني بصورة قوية مؤثرة .

---

(١) سورة الاسراء ٢٩ .

(٢) ينظر : لسان العرب (غلل) .

(٣) ينظر : تفسير البيضاوي ٤٤٢/٣ ، ومن بلاغة القرآن ٢٢٢ .

(٤) ينظر : التعبير الفني في القرآن الكريم ٢٠٧ .

المبحث الرابع
تطور الدَّلالة الهامشية

لدلالة الكلمة بشكل عام تقسيم ثنائي هو المركز والهــامش [١] . و(الدَّلالــة المركزية) هي : المعنى الحقيقي المتفق عليه، أو هي القدر المشترك من الدَّلالــة الذي يُسجله اللغوي في معجمه. أَمَّا المعاني المتفرِّعة الأخرى ، التــي يُــضفيها المُتَلَقِّي على المعنى الأصلي ، فهي ما يسمى بــ (الدَّلالة الهامــشية) أي : هــي إنعكاسات المعنى[٢]، فــ " الكلمة لاتحمل فقط معناها المعجمي ، بــل هالــة مــن المترادفات والمتجانسات، والكلمات لاتكتفي بأن يكون لها معنًى فقط ، بــل تثيــر معاني كلمات تتصل فيها بالصوت، أو بالمعنى ، أو بالاشتقاق ، أو حتى كلمــات تعارضها أو تنفيها"[٣] . والدَّلالة الهامشية هي أوسع من الدَّلالات الأخرى، لأنَّهــا تعتمد على ثقافة المُتَلَقِّي وتفسيره لمعنًى اللفظ في ذهنه، فمجال الاستنتاج وتعــدُّد التفسيرات في هذه الدَّلالة أَكثر من غيرها [٤] .

فقد " نجد في سياق العبارات من الألفاظ أثرًا للمطابقة والمقابلة في مجانسة الاضداد والجمع بين المتقابلين، والتفريق بين المتجانسين، مِمَّا يلحظُــه البلاغــي بحسب ذائقته الفنية، بينما يلحظ فيها النَّحويُّ مجالاً آخر في الاستفادة من تخــريج

---

(١) ينظر: مشكلة الحياة ٩٥.

(٢) ينظر: دلالة الألفاظ ١٠٦.

(٣) نظرية الأدب ١٨١.

(٤) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني ٢٥٨.

اللفظ على الوجه النحوي في الاستعمال القياسي او السماعي، حتى لايهمُّ اللغـــوي منه هذا الفَهمُ أَو ذاك ، بل يبحث عن ضالَّته في تكثيف معجمه اللغوي بما يفيـــده هذا اللفظ أو ذاك "[1]، وإنَّ ارتباط الدَّلالة الهامشية بالمُتَلَقِّي يجعلها ذاتيَّـــةً، وهـــو مايميزها من الدَّلالة الإيحائية التي تكون موضوعية، ذلك لأنها تنطلق في اللفظ بما يملكه من أثر إيحائي يثير في ذهن المُتَلَقِّي دلالات معينة. وهكـــذا تجـــدُ الدَّلالـــة الهامشية مجالاً خصبًا لمختلف الاجتهادات المتفاوتة في فهم دلالة الألفاظ ، بحسب تخصص المُتَلَقِّي وتجاربه وثقافته[2].

فـــ " (الدَّلالة الهامشية) هي : تلك الظلال التي تختلف بـــاختلاف الافـــراد وتجاربهم وأمزجتهم وماورثوه عن آبائهم وأجدادهم . وهي لدى فرد مـــن البيئـــة الاجتماعية توحي بظلال من الدَّلالة قد لاتحظى في ذهن آخر من البيئة نفسها، لأنَّ تجاربه مع الكلمة مختلفة " [3] .

وتكتسب هذه الدَّلالة هامشيتها عن طريق " التَّطور اللغوي الذي يحدث في الألفاظ ، إذ يُخضعها الاستعمالُ، فنجد فيها خصوصيّاتٍ معنويَّةً ذات ظلالٍ دلالية جديدة يستدعيها الزمان والمكان ، فيبعدها الاستعمال عن أصلها بُعدًا كثيرًا" [4] .

---

(١) نظرية النقد العربي في ثلاثة محاور متطورة ١٠٧.
(٢) ينظر: المصدر نفسه ، الموضع نفسه .
(٣) دلالة الألفاظ ١٧٣.
(٤) الدَّلالة الجديدة والتَّطور اللغوي ٨.

وعملية فهم ظلال المعنى وملاحظتها في الكــلام أو النــصوص تتطلــب التغلغل في علاقات الوحدات اللغوية مع بعضها ، واستشفاف مابينها مــن معــانٍ أصلية ومتغيرة، للتمكُّن من الوصول إلى الانعكاسات النفسية والعاطفيــة لمنــتج الكلام او النص. فالنظام اللغوي يمكنه التَّعبير عن المعاني الموضوعية، ويــتمكَّن أيضًا من ترجمة المعاني النفسية الفردية التي هي نتاج صاحبها، تكمــن وراءهــا دلالالت غير مباشرة، يحتاج لمعرفتها إلى تأمل وتفهم ، إذ إنَّ هذه النواحي هــي انفعالية ضمنية توحي بغرض إيصالي انفعالي بين المتكلم والمُتَلَقِّي، الذي يطغــى عليه المعنى الذاتي للمتكلِّم ، تبعًا لصفاته التعبيرية المختلفة ، وهذا كُلُّه من أهداف اللغة (١) .

وقد عُني البلاغيون بموضوع المعنى والمستويات الدَّلالية ومعالجتها ، لذلك جعلوا الدَّلالة المركزية القسم الاول من أقسام التأويل ، ومن الذين ذهبوا إلى هــذا التقسيم ابن الاثير (٦٣٧هـ) ، إذ قال : " إمَّا أن يُفْهَمَ منه ، أيْ : مــن المعنــى، شيءٌ واحد لايحتمل غيره، وإما أن يفهم منه الشَّيء وغيره، وتلك الغيرية إمَّــا أن تكون ضِدًّا أو لاتكون ضِدًّا، وليس له قسم رابع " (٢) .

وعلى هذا فالعناصر الدَّالة في اللغة لاتقف عند حَدِّ الألفاظ، فالمعنى أيــضًا يمكن أن يتحوَّل إلى دالٍّ ، فتصبح العلاقة بين البنية اللغويــة الماثلــة، والمعنــى المراد، علاقةً مركَّبةً ، أو علاقة من درجة ثانية، وقد عَبَّر الجرجاني (٤٧١هـــ)

---

(١) ينظر: الدَّلالة المركزية والدَّلالة الهامشية بين اللغويين والبلاغيين ٨.

(٢) المثل السائر ٣٣/١.

عن ذلك بـ(الواسطة المدركة بالتأويل العقلي، لدقة العلاقة بين المعنى الأول والمعنى الثاني)[1].

ووافق القزويني (٧٣٩هـ) السكاكي (٦٢٦هـ) على أنّ الدَّلالات العقلية وسائل تورد المعنى الواحد بطرق مختلفة وهي التي تحدد مستوى المعنى الثانوي في عمله الدَّلالي [2] .

وأشار الفارابي (٣٣٩ هـ) إلى (الطور الثاني) ، ويسمِّيه (طور النسخ والتَّجَوُّز) في العبارة بالألفاظ ، وفيه يكون التجرد بلفظ معنًى ما عن التصريح بلفظ المعنى الذي يتلوه ، متى كان الثاني يفهم من الاول [3] . وبهذه العملية ستتولد العلاقات اللغوية المجازية الجديدة ، وهو ما يعبَّر عنه بالخروج عن الدَّلالة بالذات إلى الدَّلالة بالموضع والسياق والقرائن، مكوِّنا (التغييرات المركبة) و(الإبدالات الكثيرة)، قاصدًا بها الفنون المجازية [4] .

وسنعرض نماذج من الألفاظ التي أضفى عليها الاستعمال القرآني معنًى جديدًا، ومنها لفظ (كفر) ، الذي يعني في اللغة : السَّترَ والتغطية للأشياء المادية، بينما اتسع مدلولها ليشمل ستر الأشياء المعنوية غير المحسوسة ، كستر البرهان والآية والدليل. و(الكفر): جحود النعمة ، وهو ضدُّ (الشكر)، و(كفرَ نعمةَ اللهِ) :

---

(١) ينظر: التفكير البلاغي عند العرب ٤١٢.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم ٧٧ ، ١٥٦ ، والإيضاح ١٧٠.

(٣) ينظر: الحروف ١٤١.

(٤) ينظر: تلخيص الخطابة ٥٣٤-٥٣٥.

جحدها [١] ، ومِن استعمالها في شعر العرب الجاهليين قبل نزول القرآن الكريم قول لبيد:

يعلو طريقة متنها متواتر   في ليلةٍ كفر النجوم غمامها [٢]

أيْ : ستَرَ النُّجومَ غمَامُها .

وقد استعمل القرآن (كَفَر) ومشتقاته في (٥٢٤) موضعًا [٣] ، جاء في أكثرها مصطلحاً إسلامياً جديدًا ، ففي قوله تعالى : ﴿ ***وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ*** ﴾[٤] ، أصبح لفظ (الكفر) في الآية نقيض (الايمان)، فالإيمان هو : التَّصديق، و(الكفر) : عدم التَّصديق. وبهذا نرى أنَّ (الكفر) غير (النفاق) ، وغير (الفسوق) ، كما فهمنا معناها، وقد ورد مصطلحا (الإيمان) و(الكفر) في معنيين متضادَّين مُتقابلينِ في أكثر من موضع [٥] . إلاَّ أنَّ هذا لا ينفي ورود كلمة (كفر) ومشتقاتها في بعض الآيات بمعنى كفران النعمة وجحودها أَو ستر الشيء وتغطيته ، وهو معناها (الأول) ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ ***قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ***

---

(١) ينظر: لسان العرب (كفر).

(٢) ديوانه ٢٢٣.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٦١٠ – ٦١٨ .

(٤) سورة آل عمران ١٦٧.

(٥) ينظر: سورة النساء ١٠١ ، ١٥١ ، وسورة مريم ٧٣.

لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [١] . وقولــه تعــالى : ﴿ ***فَــاذْكُرُونِـي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِـي وَلا تَكْفُرُونِ*** ﴾[٢]، فَمَنْ لايؤمن بآيات ربه، ولايشكر نعمته ، يكون كمن سترها وغطاها، فلا يراها هو ، ولايريد أن يراها أحد [٣].

ومن الجوانب المهمة لتغير اللفظ بطرق الكناية : إضافة معانٍ ثانوية مــن شأنها أن تستر المعنى المركزيَّ المباشرَ، وتُجَنِّبَ سماعَ أَلفاظِ الفُحشِ، مَمَّا يخدشُ الشُّعور ويُسَبِّبُ الحرجَ ، فيما لو استُعمِلَ اللَّفظُ الموضوعُ للمعنًى المباشر، فهــذا اللفظ الجديد لايغيِّر المعنى المركزي، وإنَّما يزيح عنه بعض الفحش ، وهو فضلا عن ذلك يكون دالاً جديدًا للمعنى. وهكذا " كلّما ازداد المُستَعارُ له خفــاءً ازدادت الاستعارة حسنًا [٤]، لكي تتمكَّنَ الدَّلالةُ الثانويَّةُ من السيطرة على التأثير المعنــوي على نحوٍ تامٍّ في ذكر المستعار او محاولة ايجاد المسوِّغ للــربط بــين الطــرفين تَخَيُّلاً، كما في قوله تعالى : ﴿ ***وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَــةِ*** ﴾ [٥] ، فإنّه يستحيل حمل قوله تعالى على الظَّاهرِ، لاستحالة أن تكون للانسان أَجنحــة ، فَيُحْمَلُ على الخُضوعِ وحُسنِ الخُلُقِ، لأنَّ الله أمرَ الولد بالذُّلِّ لوالديه رحمةً [٦] .

---

(١) سورة النمل ٤٠.
(٢) سورة البقرة ١٥٢.
(٣) ينظر: التَّطور الدَّلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ٢٧٢.
(٤) الطراز ٢١١/١.
(٥) سورة الاسراء ٢٤.
(٦) ينظر: لسان العرب (جَنَح).

وقد أُستُعِيرَ لِلرِّفقِ بالوالدين واللِّين معهما (جَناحُ الذُّلِّ) ، وحكمة الاستعارة في هذا جعل ماليس بمرئيٍّ مرئيًّا لأجل حسن البيان [1] ، فقد جعل الله ﷻ الـذُّلَّ طائرًا متحرِّكًا يتحصَّلُ فيه انخفاضُ جناحِه وارتفاعُه ، تقريبًا للمعنى مـن عقـل الانسان ، على وجه التخييل ، في خفض الجناح ولينه للوالدين، وذلك إيحاءٌ منـه ﷻ بحيوية هذه الاستعارة وغزارة إحساسها بأنّ الذُّلَّ ذلٌّ راقٍ سامٍ للوالدين طلبًـا لرضا الله تعالى.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿ ***مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُـولٌ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ*** ﴾ [2] . فالكناية فـي قوله تعالى ﴿ ***كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ*** ﴾ إشارة إلى أنَّ السيد المسيح وأمَّـهُ -عليهمـا الصلاة والسلام- بَشَرٌ ، وتنطبق عليهما جميع الصفات البشرية ، فظاهرُ الـنَّصِّ يُعطي معنًى قريبًا ، هو الذي يتبادر إلى ذهنك في الوهلة الأولـى ، وهـو أكـل الطعام، لكنَّ المقصود ، وهو ماوراء (أكل الطعام) ، وهو مايشير اليه ذلك الأكل [3] . ففي التَّعبيرِ أدَبٌ ، وذوقٌ رفيع ، إذ أُريد بهذا التعبير أنَّ أَكْلَ الطَّعامِ يحتاجُ إلى هضم ، والمهضوم يسري في الجسد منه شيءٌ ، ويزيدُ منه شـيءٌ ، وهـذا الزائد يخرج من سبيله المعلوم [4] . فَالمُرادُ بهذه الكناية (الغائطُ) ، وذلـك لنفـي الألوهية عن هذين الشخصين، وللرَّدِّ على من اتَّخَذَهُما إلهينِ. فبهذا اللَّفظ القليـل

---

(1) ينظر: الاتقان في علوم القرآن ٢/٨٤ ، ١٢٠.

(2) سورة المائدة ٧٥.

(3) ينظر: خزانة الأدب ٢/٢٦٤ ، والتعبير الفني في القرآن الكريم ٢٠٨.

(4) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٢/٣٠٤-٣٠٥.

نقلَ معنًى كثيرٌ، فكثيرًا ماتعجز الحقيقة أن تؤدي المعنى كما يؤدِّيه المجاز، لذا قال الشريف المرتضى (٤٠٦ هـ) : " إنَّ الكلام متى خلا من الاستعارة ، وجرى كلُّه على الحقيقة ، كان بعيدًا عن الفصاحة ، بريًّا من البلاغة"[١] ، وما ذلك إلاَّ لأنَّها لونٌ مهمٌ في التعبير عن المعاني الدقيقة البعيدة ، على نحو تجسيدي للمعنًى الثانوي ، يكتسبه في السياق الذي استُعمِلَ فيه اللَّفظُ في غير معناه الأصلي. وقد أومأ عبد القاهر إلى هذا التَّفسير في قوله : " إنَّها تُريك الجماد حيًّا ناطقًا، والأَعْجَمَ فصيحًا، والأجسامَ الخُرْسَ مُبِينَةً ، والمعاني الخفيَّةَ بَادِيَةً " [٢] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ***إِذَا رَأَتْهُم مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا*** ﴾ [٣] ، فلفظ (زفير) [4] أُستعير من معناه المركزي ، الذي يُطلقُ على النَّفسَ الخارج من صدر الانسان ، إلى (جهنم) وهي جماد، فهو نقلُ صفةٍ حَيّةٍ من الصفات الخاصَّة بالمخلوقات الواعية كالبشر ، إلى (النار) وهي عنصرٌ جامدٌ ، لجعل المعنى شيئًا خياليًا مجسدًا مصوّرًا ، وممَّا زاد في جمالية الصورة إستعارة (الرؤية والغيظ)، وهي صفات بشرية أيضًا للنار ، لاستكمال تجسيد الصورة ، وكأنّ النارَ وحشٌ ضخمٌ مهتاجٌ على فريسته، فهذه اللوازم بمعانيها الإضافية جسَّدَت الحالةَ على نحو يمكن تخيُّله وإدراكُه.

---

(١) أمالي المرتضى ١ / ٤.

(٢) أسرار البلاغة ٣٠.

(٣) سورة الفرقان ١٢.

(٤) ينظر : لسان العرب (زفر) .

والعدول في اللفظ ، عن معناه إلى معنًى آخر ، لابد أن يكون بقرينة رابطة تسوِّغ انتقال المعنى المركزي إلى المعنى الاضافي أو المعنى الثانوي [1] . ففـــي قوله تعالى:﴿ **يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *قُمْ فَأَنذِرْ*وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ* وَثِيَابَكَ فَطَهِّــرْ**﴾ [2] ، فلفظ (ثيابك) في ظاهره يدلُّ على مايُلبس، ومن تأوَّل ذهب إلى أنَّ المُــرَادَ هــو القلب، لا الملبوس ، على سبيل الكناية، لأنّ العرب كَنَتْ بالثياب عن النَّفسِ والقلب فقالوا : (فلانٌ دنس الثِّياب) إذا كان خبيث الفعل ، وقال الفرَّاء في (وثيابَكَ فَطَهِّرْ) : أَيْ : لاتكنْ غادرًا فتدنس ثيابك، فإنَّ الغادرَ دَنِسُ الثِّيــاب . ويُقــال : (وثيابَــكَ فَطهِّرْ) : عَمَلَكَ فأَصلِحْ [3] . وسُئِل ابن عباس رضي الله عنه عن قــول الله عز وجل : (وثيابَــكَ فَطَهِّر) ، فقال : لاتلبسْ ثيابَكَ على غدرٍ ولاعلى معصية [4] ، فأُعْطِيَــتِ الكلمــةُ معنى البراءةِ من الدَّنَسِ والغَدرِ ، وتطهير العمل وجعله صالحًا في طاعة الله.

وكلُّ معنًى من المعاني المجازية يحملُ فائدةً ينتفعُ بها المتحدِّث في إيصال فكرته على نحو يُمكِّن المُتَلَقِّي من إدراك المعنى مجسدًا ، عن طريق ربط الكــلام بصورة حية من الواقع ، يُمكنه تجميعُ اجزائها ذهنيا فيتخيَّلُها. وفي كلتا الحــالتين سيكون الربط بين الكلام وبين الصورة المقصودة عقليًّا يستهدف زيادة في توصيل المعنى ، لاتوجد في الكلام المعتاد.

---

(١) ينظر: المثل السائر ٣٣/١.
(٢) سورة المدثر ١-٤.
(٣) ينظر: لسان العرب (ثَوَب).
(٤) ينظر: تفسير القرطبي ٢٥/١ ، وتفسير الطبري ١٤٤/٢٩.

ومنها (الظلمات) في قوله تعالى : ﴿ ***اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ*** ﴾ (١) .

فـ(الظلماتُ) لغةً: جمع (ظُلْمة) ، وهي خلاف (النـور) الـذي هـو : الضياء .

وقد وردت لَّفظة (الظُّلمات) في ثلاث وعشرين آية أَغلبها بمعنـى: الكفـر والشر والفسوق (٢) ، أَمّا لَّفظة (النُّور) فقد وردت ومشتقاتها في تسعٍ واربعين آية أغلبها بمعنًى الايمان والهداية (٣) .

وفي قوله تعالى: ﴿ ***اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ..*** ﴾ صورةٍ فنية تنتسب إلـى (الرمز) ، مثل رمزي (النُّور) و(الظلمات) ، إن هذه الرِّموز تقول إِنَّ الله تعـالى وَلِيُّ المؤمنين ، وإنّ الشيطان ولي الكافرين، وذهب البلاغيون إلـى أنّ (النُّـور) و(الظلمات) هما تشبيهان أو استعارتان(٤). أي : إنَّ الله ﷻ استعار للإيمان النور، وللكفر الظلمة، فكلمة (النور) إشارة إلى الإيمان ، وكلمة (الظلمات) إشـارة إلـى الكفر (٥) .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٧.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٤٠-٤٤١.

(٣) ينظر: المصدر نفسه ٧٣٠-٧٣١.

(٤) ينظر: المثل السائر ٣٥٩/١.

(٥) ينظر: تفسير القرطبي ٢٨٣/٣ ، وتفسير البيضاوي ٢٩٧/٥.

ولو تأمّلنا لفظتي (النُّور) و (الظُّلمات) لأمكننا ان نــستوحي كثيــرًا مــن الدَّلالات، فلَّفظة (النور) توحي بكل مايحقق السعادة للإنــسان مثــل (الايمــان ، والخير، والهداية، والاستقرار ، والاطمئنان، ...) . فعندما تُتّخذ لَّفظــة رمــزاً تكون لها قابلية على تفجير المعاني، ولَّفظة (الظُّلمات) توحي بـــ (الكفر، والفسوق ، والشر، والخوف، والقلق ، والاختلال..) إلى غير ذلك من الدَّلالات التي يمكن أن توحي بها الألفاظ داخل النص.

وفي قوله تعالى : ﴿ ***وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّــنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْــرٌ وَأَبْقَــى*** ﴾ [1] ، وردت استعارات ممتعة مثل (مَدُّ العينِ) ، و (زهرةُ الحياة) . فلو تأملنا الآيةَ لوجــدنا أنَّ معناها : لايلتفت المؤمنون إلى مايستمتع به الكفار من النَّعيم الدنيوي، لأَنَّ ماعنــد الله تعالى خيرٌ مما عندهم وابقى . وللتعبير عن هــذا المعنــى اســتعمل القــرآن الاستعارات التي ذكرناها ، إذ لو تأملنا الاستعارة الاولى ﴿ ***وَلا تَمُــدَّنَّ عَيْنَيْــكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا*** ﴾ لوجدناها تحفل بدلالات عميقة على الرَّغم من كونها صورة مألوفة ذات وواضحة ، فـــ (المدُّ) في اللغــة يعني : التَّطويلَ والمَطْلَ . مَدَّهُ يَمُدُّه مَدًّا ، ومَدَّ بهِ فَامْتَدَّ ، .. ومَــدَّه فــي الغــي والضلال يَمُدُّه مَدًّا وَمَدَّ له : أملى له وتركه [2] .

---

(١) سورة طه ١٣١ .

(٢) ينظر: لسان العرب (مَدَد).

إنَّ (مَدَّ العين) يعني : النَّظَرَ إلى الاشخاص الذين غمرهم نعـيمُ الـدنيا ، وكان من الممكن أن يقول النَّصُّ مثلا : (لاتنظر إلى مامتَّعنا به أزواجًا مـنهم) ، ولكنّه قال : (لاتَمُدَّنَّ عينيكَ) ، إذ إنّ مجرَّدَ النَّظر إلى ما فيه الآخرون من النّعـيم لا يحمل إلاَّ دلالةً عادية على نظر معهود لايستتبعُ حسرةً أو تَطَلُّعًا أو تفكيرًا فـي الشيء، على عكس ماقيل (لاتَمُدَّنَّ عينيك) ، لأنَّ (المَدَّ) يعني تركيز النظر وإطالتَه ، ويعني ايجاد حلقة موصلة بين طرفين : طرف النّاظر ، وطرف المنظور إليه ، ممَّا يحمل دلالةً خاصَّة هي أَنَّ النَّاظر سيقترن نظرُه إلـى الآخـرين بِالحـسد أو بالتَّطَلُّع أو بتمنِّي امتلاك مايجده عند غيره. وفي ضوء هذه الحقيقة يمكنك أن تتبيَّنَ النُّكتةَ الفَنِّيَّةَ لهذه الاستعارة ، التي يمكن أن يستخلص المُتَلَقِّي منها مايأتي: أَنّ على المؤمنين أَلاَّ يُعْنَوا بالنَّعيمِ الدنيوي الذي يستمتع به المنحرفون عن منهج الله تعالى، إذ إنّ هذا النَّعيمَ سيكون وبالاً عليهم، فضلا عن كونه نعيمًا زائلاً لابقاء له . لكـنَّ النَّصَّ القرآني لم يقف عند هذه الاستعارة، بل أَردفَها صورة فنية تجسِّدُ هذا المعنى ، فما فيه الآخرون من نعيم هو (زهرة الحياة الـدنيا) ، إذ إِنَّ (الزهـرة) تمتـاز بمرأى جميل، رائحة منعشة ، وهذا مايتصلُ بخصائصها الجمالية ، أمّا مايتـصل بخصائصها الحيوية فهو سرعة ذبولها وتلاشيها ، فما يبقى لها أيّ أثـرٍ . وهـذه الخصائص تنطبق تمامًا على خصائص النعيم الدنيوي ، فالمال والبنون ، والعقار والنساء تُشكِّلُ جميعًا نعيما يحمل خصائص الزهرة نفسها، فهي تتلاشى مع تلاشي العمر، واذا كان الأمرُ كذلك فما قيمة مثل هذا النعيم الزائل؟[١] .

---

(١) ينظر: دراسات فنية في سور القرآن الكريم ٢٤٥.

إذن ، فلكلِّ مفردة في القرآن الكريم جماليَّةٌ خاصَّـــة ، وفضلا عـــن هـــذه الجمالية هناك معنًى لايُؤَدَّى إلاَّ بها، ومن الشواهد على ذلك الآية الكريمة :﴿ ***خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُـمْ عَـذَابٌ عَظِيمٌ*** ﴾[١] في وصف الكافرين ، فاستعملت لَّفظة (ختم) على سبيل المجاز للدلالة على أنّ قلوب الكافرين مقفلةٌ بشدة، لاينفذ إليها بصيصٌ من نور ، وليس فيها تقلّب او تذبذب [٢]، والخَتْمُ على القلب : (خَتَمَ) و(طَبَعَ) في اللغة واحدٌ ، وهو : التَّغطية على الشَّيْءِ[٣].

فكلمة (ختم) منطبقة على الحال التي فيها الكفار ، بينما اختلف اللفـظُ فـي وصف المنافقين ، إذ قال تعالى ﴿ ***فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ*** ﴾ [٤] ، فكلمة (مرض) هنا قُصِدَ بهـا (المـرض النفسي)، وليس (العضوي) ، لأنَّ النِّفاق من أَخطر الأَمراض، ومايُلفِتُ النَّظَـرَ أَنَّ النصَّ القرآني لم يكتف بما هم عليه مِن مرضٍ طبعَ شهصيَّتهم المنافقة ، بل زادهم اللهُ مرضًا ، أيْ : ضاعف مرضَهم، حتى لايُرجى لهم شفاءٌ أَبدًا.

---

(١) سورة البقرة ٧.

(٢) ينظر: جمالية المفردة القرآنية ١١٦.

(٣) ينظر: لسان العرب (ختم) .

(٤) سورة البقرة ١٠.

فلو وازنّا بين لفظتي (ختم) و(مرض) [1]لوجدنا أنَّ (الخَتْمَ) علـــى قلـــوبهم يوحي بثباتهم على كفرهم ، " لأنَّ أصْلَ (الخَتْمِ): الطبعُ ، و(الخاتِم) هو : الطَّـــابِع، يُقال : (ختمتُ الكتاب) إذا طبعته، فإنْقال لنا قائل : وكيف يُخْتَمُ علـــى القلـــوب ، وإنَّما الخَتْمُ طَبْعٌ على الأَوعية والظُّروف والأَغلفة ؟ ، قيل : فإنَّ قلـــوب العبـــاد أوعيةٌ لما أُودعت من العلوم، وظروفٌ لما جُعل فيها من المعارف بالأمور، فـــــ (خَتَمَ اللهُ على قلوبِهم): طبع عليها ووسمها بِسِمَةِ الكُفرِ " [2] . بينمـــا تـــدلُّ كلمـــة (المرض) على التذبذب بين الزيادة والنقصان، فـــ (في قلوبهم مرض) أي : شكٌّ وريبةٌ ونفاقٌ ، يزداد تارةً ويفترُ أخرى. والقلب هو الفؤاد ، وسُمِّيَ قلبًـــا لِتقلُّبـــهِ بالخواطر والعزوم، وهو محل العزم والفكر والعلم والقصد [3] .

---

(١) ينظر: لسان العرب (مرض).

(٢) ينظر: تفسير الطبري ١/١١٢ ، وتفسير البيضاوي ١/١٤٣.

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ١/٢٧٥.

الفصل الثالث

وظيفة التَّطور الدّلالي في ألفاظ النَّص القرآني

المبحث الأول: وظيفته الفنية

المبحث الثاني : وظيفته العقلية

المبحث الثالث: وظيفته النفسية

الفصل الثالث

وظيفة التطور الدّلالي في ألفاظ النص القرآني

الدّلالة النَّصيّة للآيات القرآنية متطورة من ناحية التعبير المتساوق لها نحو المعاني، تبعًا للوظيفة المبتغاة منها، فتارة تكون صورة (فنيَّـــة) ، وتـــارة تـــؤدي محاورة فكريّة (عقليّة) ، وفي أغلب الأحيان يؤدّي النّص القرآني أثـــرًا نفـــسيًا . وجميع هذه الدّلالات مجالها اللفظ خارج حدود استعمالاته الاعتيادية، ولاتخـــرج هذه الدّلالات إلى الشذوذ اللفظي والمعنوي، بل إلى الثراء المعنوي في مواضـــع التراكيب الجميلة للقرآن، من ناحية الألفاظ وماتحمله من دلالات ، فتحس وكأنـــك بإزاء لفظة دافقة بالحيوية فيما تنطوي عليه من معانٍ دلالية وفق السياق الذي ترد فيه، فجمال النّص يرسم ملامَحه الأداءُ البياني ، ووظيفة الأداء البيـــاني لا تكمـــن عند حدّ اللفظ الظاهري ، وانّما تتّسع لتشمل عدّة دلالات فنيّة ونفسيّة يوحي بهـــا السياق ، فتبرز المعاني في تشكيلات بلاغية مميّزة تُدخِلُ الكلماتِ في نسج صور معبّرة ، لتؤدي وظائف عقليّة ونفسيّة تدعم السياق بانفعالية معيّنـــة ، ولا يوجـــد ترابط كترابط الألفاظ في النص القرآني ؛ لأنّ القرآن العظيم كان دقيقًا في وضع الألفاظ في مكانها ، واختيارها بدقّة متناهية ، إذ تتفاوت الألفـــاظ بـــدلالتها علـــى المعاني قوّة وضعفًا ، تبعًا للنظم الذي تأتي فيه ، والمغزى المعبِّرة عنه، وهذا مـــا أعجز بني البشر في كثير من الأحيان من إحضار كل تلك الألفاظ التي تدل علـــى معنى بعينه وسط سياق معين، لكنه متيسِّر سهل حاصل في قدرة الله تعالى، وهذا ما سَنبيِّنُه في هذا الفصل من تتبّع وظائف الألفاظ في سياقاتها وفق النظم القرآني.

المبحث الأول
وظيفته الفنية

إنّ المفردات في اللغة تشكِّل حركة عضويِّة صوتيِّة ترمز إلى شيء حقيقي وضعي [1] ، أما المفردات في السّياق فهي عبارة عن تعانق اللغة والفكر لتوليد رموز جديدة.

وقد ميّز عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) بين اللغة والكلام ، وبيَّن أنّ المقصود بالكلام معاني الألفاظ ، وعَدَّ الألفاظ رموزًا للمعاني، والفكر عنده لايتعلق باللفظة، وإنّما يتعلّق بما بين المعاني من علاقات [2] .

وعلى هذا الأساس يمكن عدّ المفردات محدودة ، لكن تألّفها هو الذي يغيّر الإيحاءات، فينظر إلى تصديق العبارة أو تكذيبها على أنّ الأسلوب الفنّي هو الذي ينبِّه إلى المعنى، ولولا الطرائق الفنيّة في الكلام لنفدت المفردات.

وهذا يعني أنّ الاستعمال البياني والاستعمال المجازي للغة هو ما ينشش بنية النص الخاص، فالنّصُّ عالم قائم بذاته، تتزايد فيه العلاقات بين الدّوال المنتجة لعددٍ غير متناه من الدّلالات، تدور جميعها داخل إطار موحد، ومايحكمها ويجمعها هو السياق، لذا لايمكن ان تكون العلاقات بين الدوال سائبة، فلابد من نُظم تحكمها، مفعِّلةً قدرتها اللغوية والإيحائية على الخلق والابتكار، إذ تعمل هذه النظم

---

(١) ينظر: النقد الأدبي الحديث ٤٢.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ٤١٥-٤١٦.

المختلفة على خلق دلالة النص، مغيِّرةً من وظائفه التعبيريّة ، ليتسنى للدوال فرز مخزونها اللغوي ، وجعله اشارة تنمو وتتحرَّك داخلَ النَّصّ ، في علاقة تفاعل مع مثيلاتها، لخلق بنية تعبيرية متميزة، فيتم بذلك انحـــراف اللغـــة المعجميـــة عـــن معيارها، متحوِّلةً إلى لغة فنية، الأمر الذي يؤدِّي إلى كسر بنية التوقعات ومفاجأة المتلِّقي، إذ تخرج بنية جديدة تختلف عن الاحتمالات الكثيرة التـــي يمكـــن للبنيـــة العامة أَن تحدِّدَها [(١)].

والخروج بالكلمات عن وظيفتها الوضعية الحقيقية هو انزياح عن طبيعـــة اللغة ، لخلق لغة جديدة مبتكرة ، وهذا لا يكون إلاَّ في النَّظم، وســـرٌّ الـــنَّظم فـــي المجاز ، ذلك أنّ محاسن الكلام ، معظمَها إن لم نقل كُلَّها متفرِّعة عـــن صـــناعة المجاز، فهناك فرق بين اللغة العادية (الحياتية) ، وبين اللغة الفنيّة ، ومـــا أســـماه عبد القاهر الجرجاني (معنى المعنى) هو الذي تؤدِّيه اللغة الفنية ، وفَنِّيَّـــةُ اللغـــةِ تكمن في حسن النَّظم ودقّة الصّنع [(٢)] .

وللخواصِّ الفنية للغة قدرةٌ على إبراز المعنويات وتشخيص القضايا العقليّة بقوالب تغلب عليها عناصر الحسّ والمشاهدة، لتلتقي الصورة بالمضمون ، وتقترن المعاني بالألفاظ ، بل لتتعانق اللغة والفكر مُتضامنينِ في إخـــراج وظيفـــة الأداء الفني للقول. وعلى هذا فالوظيفة الفنية للقول تكون في كشف المجهولات للعيان ،

---

(١) ينظر: قضايا شعرية ٢١ .

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ٦٩ ، ٧٤.

وتشخيص المعنويّات ، بعرض المعقولات وإبرازها بمثال حسيٍّ، حتـــى يـــزولَ الخَفاءُ ويتلاشى الإبهام [(١)] .

وطالما أنّ الفَنَّ القولي هو أَعظمُ موروث للأمة العربية ، إذن فهـــي أُمَّـــةُ بيان، والعربُ أئمَّةُ لسان، جاء القرآن معجزةً لهم؛ لأنّهُ من جنس ما يُحسِنُونَ ومن سُنْحِ مايعرفون، لذا قال الله تعالى : ﴿ ***وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِـــينٌ*** ﴾ [(٢)] ، إذ إِنَّ الإعجاز البياني أعمق شيء في نفس العربي، لأَنَّهُ جُبِلَ في صحرائه على حـــبِ الكلمة وتوخِّي عذوبة اللفظة، تهزّه الخطبة وتطربه القصيدة ، لذا بهرهم القـــرآن بجمال نظمه ودقة اختيار ألفاظه، إذ كان النظم القرآني مخزونًـــا جماليًّـــا بلاغيًّـــا لايبلى في استجلاء الدّلالات القرآنية الأدبية والفنون القولية، إذ تتميـــز المفـــردة القرآنية بتجاوز حدودها المعجمية، وقد تتجاوز أحيانًا إيحاءاتها المعهودة، اعتمدت التأثير الحسِّي، وحافظت على تلازم الشكل والمضمون [(٣)] ، مُوَلِّدَةً رَبطًا قويًّا بين المتلقِّي والنَّصِّ القرآني، كما في قوله تعالى : ﴿ ***مَثَلُ الَّـــذِينَ كَفَـــرُوا بِـــرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ*** ﴾ [(٤)] ، فكلمـــةُ (رمـــاد) وردت مَرَّةً واحدة في القرآن الكريم ، خلقت من خلال التَّشبيه صـــورةً لوصـــف كيفية ضياع أَعمال الكافرين سُدًى، إذ إنَّ (الرَّمادَ) في اللغة هو : دقاق الفحم مـــن حُراقة النار، وماهبا من الجمر فطار دقاقًا، والطائفة منه رمادة، وقـــد اســـتعملت

---

(١) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) سورة النحل ١٠٣ ، وسورة الشعراء ١٩٥.

(٣) ينظر: جمالية المفردة القرآنية ٣٤.

(٤) سورة ابراهيم ١٨.

العرب كلمة (الرماد) كنايةً عن كثرة الضيف في قــولهم : (كثيــر الرمــاد) ، أو (عظيم الرماد) ، أَيْ كثير الأضياف ، لذا يكثر الرماد لكثرة الطبخ [1] .

أمّا في قوله تعالى الآنف الذكر فنجدُ التَّعبيرَ القرآني قد جعلَ مـن مـشهد الرماد الذي اشتدَّ به عصفُ الرِّيح صورةً فنية متحرِّكة خاصة ، ليجسِّدَ هذا المشهدُ العاصفُ المتحرِّكُ مالايبلغُه التَّعبيرُ الذهني المجرد [2] .

إنَّ الصورة الفنَّيةَ القرآنية استعارت كلمة (الرماد) لأعمال الـذين كفـروا بربِّهم وعبدوا غيره ، وقوله (في يومٍ) مجاز ، إذ جعل العصوف تابعًا لليوم فـي إِعرابه، وأنَّما العصوف للريح [3] .

فالوظيفة الفنية تكون في نقل المعنوي إلى حسي، ونقل ما يدرك بالفكر إلى مالايدرك بالطبع ، فهي ميزان القوة الاستدلالية لإثبات مايستفاد من جهة العقل بما يمثل له من جهة الحسِّ ، كما في الآية في تمثيل أعمال الكافرين .

ومن صور هؤلاء الكافرين التي يجسِّدُها التعبير القرآني قوله تعالى : ﴿**قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ**﴾ [4] ، ومعنى كلمة (المكر) في اللغة هو : الاحتيالُ في خفية، و(مَكَر به) : أَوقعَ به ، وقال ابن الأثير : (مَكْرُ

---

(١) ينظر: لسان العرب (رمد).

(٢) ينظر: معاني القرآن للنحاس ٧٢/٢ ، وفي ظلال القرآن ١٤٧/٣.

(٣) ينظر: الدر المنثور ١٧/٥ ، المثل السائر ٣٩٥/١.

(٤) سورة النحل ٢٦.

الله) : إيقاعُ بلائه بأعدائه دونَ أوليائه[١] ، وهذا مانجده في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، قد اختلفت فيه دلالات (المكر) ، ففي قوله تعالى : ﴿ **قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ ، كلمة (مَكَرَ) هنا بمعنى : كَفَرَ ، وهذهِ صورة واضحة لقومٍ جالسين في بيوتهم وقد تزلزلت بهم أسس البناء فتهدمت ، وانهار السقف من فوقهم على رؤوسهم، وراح الدمار والهلاك ينهال عليهم من حيث لايشعرون بسبب كفرهم[٢]. وكلمة (المكر) في القرآن تدل على عمل، سواءٌ أكانَ شَرًّا أَم كفرًا أم خديعةً ، كما في قوله تعالى: ﴿ **مَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا** ﴾ [4] ، فـ(المكرُ) إنْ كان من البشر فهو الاحتيال في خفية وخديعة، وإنْ كان من الله فهو أَخذُه العبدَ بالبلاءِ من حيثُ لايشعر [٥] .

---

(١) ينظر: لسان العرب (مكر).

(٢) ينظر: مجمع البحرين ٦/ ٥٣٢ ، وتفسير النَّسفي ٢٢١/٢.

(٣) سورة آل عمران ٥٤ .

(٤) سورة الرعد ٤٢ .

(٥) ينظر: روح المعاني١٧٨/٣ ، والدر المنثور ١٢٧/٥؛ وينظر فيهما : تفسير قوله تعالى : ﴿ **أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ** ﴾ سورة النحل ٤٥ ، وتفسير قوله تعالى: ﴿ **وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ سورة النمل ٥٠.

ومن الآيات التي تصف اليهودَ قولُه تعالى : ﴿ ***مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا*** ﴾ [١] . فالمراد من هذه الآية هــو تشبيه اليهود بالحمار ، لعدم انتفاعهم بالتوراة وتركهم العمل بها، فأَتعبوا أَبــدانَهم ولم ينتفعوا بها. والذي جسَّدَ هذا المعنى تشبيههم بالحمار الذي يحمل كتب العلــم ولايدري ماعليه [٢] . فالمُراد من التشبيه هو صورة الحمل غير الواعي ، وبــذا يكون الحامل للتوراة ولم يَفِدْ منها، كمثل الحمار الذي لايعرف مايحمل [3] ، فالله ﷻ في هذه الآية جعل التشبيه لفعل مخصوص هو (الحمل) للأسفار ، التي هــي أَوعية العلوم، والحمار جاهل بما فيها، وكذا في جانب المشبه، وبذا تكــون كلمــة (الحمار) هنا دلالة على (الحمل) غير الواعي ، وليس المقصود شكل الحمــار أو جنسه. ومايدعم جماليةَ التحليل قولهُ تعالى (يحمل أَسفارًا) ، فهذه الجملة أَوضحت المراد من التشبيه في الآية.

وفي قوله تعالى : ﴿ ***يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ*** ﴾ [٤] ، علاقة التشبيه التي عُقدت بين الناس والفراش أعطت دلالة الإنتشار بكثرة، و(الفراشةُ): حشرة تطير وتتهافت على السراج، والجمع (فَرَاش) [٥] ، ولو أنعمنا النَّظــر فــي وجه الشبه بين هذا الكائن الصغير المتطاير والناس، وجدنا كلمة(المبثوث) تفسِّرُه، إذ إنَّ المراد تشبيه الناس في يوم الحساب بالفراش في كثرته وانتشاره وضــعفه ،

---

(١) سورة الجمعة ٤ .

(٢) ينظر: معاني القرآن ، للفرَّاء ١١٧/٣ ، والدر المنثور ٨/ ١٥٤.

(٣) ينظر : روح المعاني ٨٤/١٦ ، والإيضاح في علوم البلاغة العربية ٢٢٠/١.

(٤) سورة القارعة ٤ ، وقد وردت هذه اللفظة مرة واحدة في القرآن الكريم.

(٥) ينظر: لسان العرب (فرش).

إذ يموج بعضه فوق بعض ، وقد سُمِّي فراشًا لتفرشه وانتشاره [1] . وبهذا تكـــون دلالة كلمة (الفراش) قد انتقلت من خلال النظم القرآني عن معناهـــا الموضـــوع للدلالة على كائن صغير معيَّن لتُعطي صورة انتشار الناس وضعفهم ، وبذا تكون الصورة الفنية من خلال هذا المشهد هي الدّلالة على حال الناس يوم القيامة.

ومن الألفاظ التي أَدَّت وظيفة فنية جميلة في السياق القرآني، وأَضفت دلالة جديدة ، كلمة (أُشربوا) في قوله تعالى : ﴿ ***وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ*** ﴾ [2] ، فـــ(الشُّربُ) هو ابتلاع الماء وغيره [3] ، ومنه قوله تعالى: ﴿ ***فَشَارِبُونَ عَلَيْـــهِ مِنَ الْحَمِيمِ (*) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ*** ﴾ [4] . أما قوله تعالى: (وأشربوا فـــي قلوبهم العجل) فمعناه : تَشَرَّبوا حُبَّ العجل ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه للدلالة عليه [5] . وبذا تكون دلالة (أُشربوا) قد ابتعدت عن معناهـــا المعجمـــي ، لتعطي معنىً مجازيًا هو (المخالطة) ، ولكثرة مخالطة حبِّ العجل قلوبَهم صورت هذه الآية هذا الحب وكأنّهُ شيءٌ تشرَّبَتْهُ في قلوبهم، وذكر (قلوبهم) لبيـــان مكـــان الإشراب، وذكر المحل المتعين يفيد المبالغةَ في الإثبات، والمعنى : داخلَهم حـــبُّ العجل، ورسخت في قلوبهم صورته ، لفرط شغفهم به ، كمـــا يتـــداخل الـــصبغ بالثوب، فيقال : (هذا مُشَرَّبٌ بحمرة أو صفرة) أَيْ : مخالط [6] .

---

(1) ينظر: معاني القرآن ، للفرَّاء ٢٨٦/١ ، وتفسير النَّسفي ٣٥٤/٤.
(2) سورة البقرة ٩٣.
(3) ينظر: لسان العرب (شرب) .
(4) سورة الواقعة ٥٤- ٥٥.
(5) ينظر: معاني القرآن ، للفرَّاء٦١/١ ، التبيان في تفسير غريب القرآن ٩٩/١.
(6) ينظر: روح المعاني ٣٢٦/١ ، والكشاف ٢٩٧/١ ، والدر المنثور ٢١٩/١.

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ**﴾ [1] ، فالعهن في اللغة هو : الصوف المصبوغ ألوانًا ، وقيل : كلُّ صوفٍ (عِهنٌ)، والقطعة منه (عِهْنة) ، والجمع : (عهون) [2] .

أَمَّا في قوله تعالى فقد شُبِّهت الجبال بـ(العهن) ، وهو الصوف المصبوغ ألوانًا ، لأنّها تحمل أَلوانًا عدة، فمن الجبال جدد بيض وحمر وغرابيب سود، فإذا بُسَّتْ وطُيِّرت في الجو تشبَّهت بالعهن المنفوش ، لتفرُّقِ أجزائها إذا طيَّرتها الريح[3] . وبذا تكون الدّلالة التي أَعطتها الآية من خلال التشبيه هي صورة تناثر الجبال بصورة دقيقة، فامتزجت أَلوانُها لشدَّةِ تناثرها ، فبدت هيأَتُها وكأَنَّها صوفٌ منفوش مختلطة أَلوانُه، فدلَّت كلمة (العهن) على صورة الجبال في ذلك اليوم .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**﴾[4] ، فـ (الدِّهانُ) في اللغة: جمع (دُهْن) ، أَيْ : تمور كَالدُّهْنِ صافيةً، وقيل : (الدِّهَانُ): الأَدِيمُ الأَحمرُ، و(دَهَنَ رأسَهُ وغيرَه ، يدهُنه دهنًا): بَلَّهُ . والإسم (الدُّهْنُ) [5] .

فالتَّعبير القرآني خَصَّ (الدِّهان) بالتَّشبيه باعتبار إشرابه الشيءَ ، ووجهُ الشَّبَهِ الذَّوبانُ ، وهو في السماء على ما قيل من شدَّة الحرارة ، وقيل : الحمرة،

---

(١) سورة القارعة ٥ .

(٢) ينظر: لسان العرب (عهن) ، والمفردات في غريب القرآن ٣٦٥ ، والتبيان في تفسير غريب القرآن ٤٧٣/١.

(٣) ينظر: تفسير النَّسفي ٤/ ٢٧٨ ، وروح المعاني ٥٩/٢٩.

(٤) سورة الرحمن ٣٧.

(٥) ينظر: لسان العرب (دهن) ، والتبيان في تفسير غريب القرآن ٤٠٢/١.

وقيل اللمعان ، وقيل الحسن ، أَيْ : كالدِّهان المختلطة ، لأنَّها تتلوَّنُ ألوانًــا [1] .

وما نلمسه في تحليل هذه الآية، تشبيه تلوُّن السماء ، عند حدوث شقوق وخروجات في أجرام السماء يوم تقوم القيامة ، بتلون الوردة، إذ شبَّهها بـــ (الدِّهان) ، وهـــذا يعني اختلاف ألوانها ولمعانها [2].

فالتعبير القرآني عمد إلى التشبيه في أغلب الآيات التي وردت فـــي رســـم مشاهد القيامة وما يؤول إليه أمر الخلق في ذلك اليوم، إذ إنَّ التشبيه يخلق صورة فنية ترتسم في الخيال عن طريق الكلمات المنظومة في السياق، وغالبًا مـــايعطي وجه الشبه دلالة معنوية، إذ تغادر اللفظة معناها إلى معنى آخر كمـــا فـــي قولـــه تعالى: ﴿***وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّـــى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِـــسَابَهُ وَاللَّـــهُ سَـــرِيعُ الْحِسَابِ***﴾ [3] ، فكلمة (كسراب) التي بُنيت عليها الـــصورة فـــي اللغـــة هـــي : ماتعكسهُ الشمس على الارض المستوية في منتصف النهار، فيُخيَّل إلى الرائي أَنَّه ماء [4] . فـــ(السَّرَاب) يُطْلَقُ على الشيء المُوهِم ، وليست له حقيقـــة واســـتعمل التعبير القرآني هذه الكلمة في موضعين من القرآن الكريم : الآية الكريمة السالفة، وقوله تعالى: ﴿ ***وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا***﴾ [5] ، وهذه الآية فـــي وصـــف

---

(1) ينظر: معاني القرآن ، للفرّاء ١١٧/٣

(2) ينظر: روح المعاني ١١٤/٢٧ ، والتفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ١٥٧.

(3) سورة النور ٣٩.

(4) ينظر : لسان العرب (سرب) .

(5) سورة النبأ ٢٠.

حالة الجبال يوم القيامة، إذ تُسَيَّرُ بأمر الله ثم تتلاشى ومايبقى منها شـــيء ســوى منظر موهم بأثرها. فنجد أنَّ كلمة (السَّراب) في الموضعين أُريد منها دلالة ذهاب الشيء هباءً منثورًا . ولو عدنا إلى الصورة التي رسمها الله تعالى فـــي وصـــف أعمال الكافرين يوم القيامة ، لوجدنا أعمالهم لاوزنَ لها ، وأَنَّهم يخدعون أنفـــسهم حين يظنُّونها شيئًا ، لذا شُبِّهت بـــ(السَّراب) ، وخُصَّ هذا السَّرابُ بأنَّـــه ســـراب

(بقيعة)، وهي الأرض المستوية ، التي ليس فيها تطامن ولا ارتفاع، لـــذا تعكـــس صورة السَّرابِ واضحةً [(١)] .

وما هذه الدِّقة المتناهية في الوصف إلاَّ ميزة جمالية تميَّز بها القرآن مِـــن غيره ، فنلاحظ أنَّ هذا المشهد يتأثر به الظمآن ، أي : الشخص الشديد العطـــش، وليس الناظر العادي؛ لأَنَّ الظمآن يتخيَّلُ الماءَ أَكثرَ من غيره بتفكُّـــره فيـــه ، ثـــم يخيب أَمَلهُ عندما يقترب فلا يجده ماءً، فكذلك الكافر يرى عمله مجدياً ، ذا منفعة، أو يعود عليه بثواب، وما ذلك الظَّنُّ منه إلاَّ وهم كـــ(السّراب). ثم تتوالى عناصر صورة أخرى تجسِّمُ معنى ضياع أعمال الكافرين، إذ يردف الله تعـــالى الـــصورة الآنفة بصورة فنية أخرى معطوفة على صورة السّراب، فيصور ذهـــاب أعمـــال الكافرين سُدًى بمشهد آخر في قوله تعالى : ﴿ ***أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَـــوْقَ بَعْـــضٍ إِذَا***

---

(١) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٣١٢/١ ، والدر المنثور ١٩٦/٦ .

أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّـــورٍ﴾[1]، فكلمة (ظلمات) قد وردت في ثلاثةٍ وعشرين موضعًا في القرآن الكريم، وبمعانٍ مختلفة كُلٌّ حسب السياق الواردة فيه [2] . إلا أنَّها في هــذه الآيــة دلــت علــى (الكافر)، فطالما إنَّه لايعقل ولايبصر فوصف قلبه بالظلمات، وعكسه جعل نور الله هدى للمؤمن، أي أنَّ قلوب المؤمنين وأعمالهم بمنزلة النور الذي وصفوا به، وأنهم يجدون ثواب أعمالهم عند الله، وجزاؤهم الجنة، بينما أعمال الكافرين إن مُثِّلتْ بما يُوجَد فهي كـــ(السَّراب) ، وإنْ مُثِّلَتْ بما يُرَى فهي كهذه الظلمات التي وصفها الله تعالى لايُرى منها شيء [3] .

فكثيرًا ما تصف الآيات القرآنية الكافرين والمنافقين واعتدادهم بأعمـــالهم ، بأنّهم كالمُتوهِّمِ شيئاً ثم يفاجأ بغيره، وقد أكد الله تعالى هذه الفكرة بــصورٍ عديــدة تُقرِّبَ إلى الأذهان مصير الكفرة والمنافقين لجهلهم بحقيقة كفرهم ونفاقهم ؛ لأنَّــه هذا شيء لايمكن أن يرى بل يُتَخَيَّل، ومثل ذلك قوله تعــالى : ﴿ ***مَثَــلُ الَّــذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَــذَتْ بَيْتًــا وَإِنَّ أَوْهَــنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ***﴾ [4] ، فالتشبيه بـــ (العنكبوت) هنا للدلالة على ضعف أعمالِهم وسرعةِ زوالها ، إذ بيَّن تعالى المــراد مــن التَّمثيــل

---

(1) سورة النور ٤٠.

(2) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٤١.

(3) ينظر: معاني القرآن ، للفرّاء ٢٥٥/٢ ، ومعاني القرآن وإعرابــه ، للزجــاج ٤٩/٤، والتصوير الفني في القرآن الكريم ١٩٨.

(4) سورة العنكبوت ٤١.

بقوله: ﴿ *وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون* ﴾ ، إذ إنَّ بيت العنكبوت ضعيف لايقي من حرٍ أو بردٍ، والمعنى : إنَّ أولياءهم لا ينقصونهم ولا يرزقونهم ولايدفعون عنهم ضررًا، فقد عدَّ الفرَّاء هذه الآية في باب التشبيه بمطلق المثل، إذ قال : "ضرب هذا المثل لمن اتخذ من دون الله وليًا إنَّه لا ينفعه ولا يضرُّه. كما أنَّ بيت العنكبوت لايقيها حرًّا ولابردًا" [١] ، أي : إنَّ الكافر عارٍ عن ستر الله ، يخرج إلى الله عاريًا ، فلا يكسى وتبدو فضائحه وقبائحه على رؤوس الأشهاد [٢] .

وفضلاً عن ذلك ، أشار بعض المفسرين إلى أنَّ بيت العنكبوت واهن بسبب رخاوة نسجه وضعف مادّته ، لأنَّ خيوطه ضعيفة تتقاذفها الرِّيح فتمزقها [٣] ، وثمة إشارة أخرى معنوية تكمن في أنَّ بيت العنكبوت واهٍ بسبب التفتت السريع للعائلة ، إذ إنَّ العلاقة في عائلة العنكبوت واهية ، فأنثى العنكبوت بعد أن تنتهي من عملية التزاوج تنقلب على الذكر فتفترسه [4] ، وهذا مثل ضربه الله ﷻ لتمزّق علاقات أولياء السوء [٥] .

---

(١) معاني القرآن ، للفرَّاء ٣١٧/٢.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ١٦٩/٤ ، والمثل السائر ٣٨/١.

(٣) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٣٣٢/١ ، والدر المنثور ١٠٣/١.

(٤) ينظر : التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن : ٤١ .

(٥) ينظر: روح المعاني ١٠٩/٨.

المبحث الثاني
وظيفته العقلية

عُني العرب بأساليب كلامهم ، وتحدَّث أوائلهم عنها، فهم أمَّةُ قول تحرصُ على تماسك خصائصه ، ولاشك في أنَّ الأسلوب مطالب بوظائف متعددة، فتارةً تكون وظيفته بلاغية (فنية) ، وتارة إقناعية (عقلية) ، وتارةً تأثرية (نفسية)، وهذه وظائف لاتؤدِّيها اللغة الحقيقية ، وإنَّما تجود بها اللغة المجازية ، ولفهم طبيعة اللغة المجازية والوظائف التي تؤديها ÷ لابدَّ لنا من معرفة دور النشاط العقلي في سعيه نحو المعرفة، فعلينا أنْ نتعرف على ماهيَّة العقل للتعرف على كيفية مخاطبة النص له ، ووظيفته في فهم النص.

فـ(العَقلُ) كما حدَّه ابن فارس (٣٩٥هـ) هو : " مايدلُّ على حُبسة في الشيء أو مايقارب الحبسة" [١] ، وهو مأخوذ من (عقلتُ البعيرَ) ، إذا جمعتُ قوائمَه لئلا ينفلت فيهرب [٢] .

والأصل في (العقل) إذن : الحبس والمنع والتقييد، وهو ناتج عن الفهم، وبه عُلِّل تسميته عقلاً "لأنَّ العرب إنَّما سمَّت (الفهم) : (عقلاً)، لأنَّ ما فَهِمْتَهُ فقد قَيَّدْتَهُ بعقلك وضبطته ، كما (يُعقَلُ البعيرُ) إذا قَيَّدْتَ ساقَه إلى فَخِذَيه. وقالوا : (إعتقل لسانُ فلان) ، أَي : استمسك [٣] . وقيل إنَّ سبب تسميته عقلاً لأنّه يعقلُ النَّفْسَ ،

---

(١) مقاييس اللغة ٦٩/٤.
(٢) ينظر: لسان العرب (عقل).
(٣) ينظر : العقل وفهم القرآن ٢٠٩.

أي : يمنعُها من الإنطلاق مع رغباتها . وذهب الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) إلى إن اصل (العقل) في اللغة : " الإمساك والاستمساك، كـ(عُقِلَ البعير بالعقال) ، و(عَقَلَ الدَّواءُ البَطْنَ) ، و(عقلتِ المرأةَ شعرَها)، و(عَقِّلَ لسانَه): كفَّه، ومنه قيل للحصن : (معقل) "[١] . إذن فـ(العَقُل) في اللغة هو : الفَهُم الناتجُ عن المعرفة بالشيءِ ، وطالما أنَّ الطريق إلى معرفة الله ﷻ هو العَقْلُ، لذا عَدَّ القرآنُ العقلَ الأداةَ الأساسيةَ لفهمهِ وتدبُّرِ آياتهِ ، فقال تعالى : ﴿ ***إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ*** ﴾ [٢] ، فأَكَّدَ القرآن دورَ العقل في فهم النص ودلالاته في أكثر من موضع ، كقوله تعالى: ﴿***وَتِلْكَ الامْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ***﴾ [٣] . إذ دعا القرآن إلى توظيف العقل واعتماده في معرفة الله ، وتحصيل المعارف، والعلوم الإسلامية ، وتنظيم الحياة. والعقل وفق هذا " قُوَّةٌ مَمَيِّزَةٌ بينَ الأمور الحَسَنَةِ والقبيحة" [٤] ، وهي التي تمنحُ الإنسانَ قيمةَ وجودهِ، وبها يصنع حياتَه كإنسان، وهي الفارقُ بينه وبين سائر المخلوقات على هذه الأرض، وإنَّ للعقل إمكانياته ومؤهلاته الإدراكية التي تصنع له حدوده وصلاحياته. وللوظيفة العقلية إتجاهانِ:

(الأول): الاحتجاج بالأمور العقلية والاستدلال بالبرهان.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٣٤١.
(٢) سورة يوسف ٢.
(٣) سورة العنكبوت ٤٣.
(٤) شرح التلويح على التوضيح ١٥٧/٢.

(والثاني): الدعوة إلى استعمال العقل، والإحالةِ على النَّظَر فيما يلقى من آيـــات لتدبر فهمها[1] .

وتُعَدُّ الحوَاسُّ منافذَ ووسائلَ للمعرفة ، لأنَّ " العقل في الحقيقـــة لايـــدرك الاشياء مباشرة ، بل عن طريق الحواس " [2] . والإدراكُ الحسِّي يُعَدُّ أولَ العلـــمِ بِالمُدركات[3]. لذا نجد القرآن في أكثر من موضع ينفي صفة العقل عمَّـــن عطَّـــل حواسَّه ، كالسمع والبصر والنطق ، عن أن تفيده في المعرفة والوصول إلى الحق والإيمان، إذ يصفهم تارة بالصُّمِّ، وتارة بالبُكمِ، وتارة بالعُمْيِ، كما في قوله تعالى : ﴿ ***وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُـــمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ*** ﴾ [4] ،فــ(النَّعيقُ) هو : دُعاءُ الرَّاعـــي لِلـــشَّاءِ،يُقال: (إنعقْ بِضَأْنِكَ)، أي: إدعُها، و(نَعَقَ الرَّاعي بِالغَنَمِ ، يَنعِقُ بـــ(الكسر) نَعْقًا ونُعَاقًا: ونَعِيقًا ونُعقَانًا): صاحَ بها وزجرَها، ويكون ذلك لِلـــضَّأنِ والمـــاعزِ [5] . فقولـــه تعالى: ﴿ ***يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً*** ﴾ ، أَي: يصيحُ بالغَنَمِ فلا تدري مايقولُ لها، إلاَّ أَنَّها تنزجر بالصَّوتِ عَمَّا هي فيه [6] .

---

(١) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني ٣٩٢.

(٢) العقل عند المعتزلة : ٦١.

(٣) ينظر: الاتجاه العقلي في التفسير : ٦٣.

(٤) سورة البقرة : ١٧١.

(٥) ينظر: لسان العرب (نعق).

(٦) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ١٢٧/١.

فلفظةُ (ينعق) في الآية استُعملت على سبيل الإتساع في اللغة، فلم يُشَبَّهْ بما ينعق، وإنّما شُبِّهَ بالمنعوق به، وإنّما المعنى: مَثَلُكُم ومَثَلُ الذين كفروا كَمَثَلِ النَّاعِقِ والمَنعوقِ الذي لا يَسمعُ [١] .

وهذا يعني أنّ النّصَّ القرآني يستهدف التأكيد على حقيقة ذات مغزى خاص، وهي لفت النظر إلى أنّ الكفار يشبهون البهائم بالنسبة إلى انعدام الوعي لديهم، ووَجهُ الشَّبَهِ بين الكفار والأنعام، أنَّ الأنعام لاتعي دلالة الكلام الموجَّه إليها، وكذلك الكفار، قال الفرَّاء : " أضاف المثل إلى الذين كفروا، ثم شبّههم بالراعي ولم يقل: كالغنم ، والمعنى – والله اعلم – : مَثَلُ الذين كفروا (كَمَثَلِ البهائم) التي لاتفقه مايقول الراعي أَكثرَ من الصّوت، فلو قال لها: (ارعي) أو (اشربي) ، لم تدر مايقول لها، فكذلك مثل الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن وإنذار الرسول، فَأُضيف التّشبيه إلى الراعي، والمعنى – والله أعلم – في المرعي" [٢] .

فاستعمالُ القرآن لـ (يَنْعِقْ) أَعطى دلالة : (يُنادَى بما لايَفْهَمُ) ، ووجهُ الشَّبَهِ بين الكفار والأغنام يكمن في عدم وعيها لدلالة الصَّوتِ المُوجَّهِ لها، فكذلك الكُفَّار في عدم وعيهم لِلنَّداءِ المُوَجَّهِ إليهم ، ومن هنا ندرك جمالية قوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً**﴾ ، إذ استعمل لفظتي (الدعاء) و(النداء) ، في الرَّمز إلى مجرد سماع الصوت ، دون ان يقترن ذلك السَّماعُ بدلالة معنى الصوت ، أي : كمثل الذي يُرسِلُ صوتًا إلى مخلوقات لا وعيَ لها ، فجاء التَّشبيه بالنَّعيق ليس تشبيها بالراعي ، بل بإرسال الصَّوتِ إلى

---

(١) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم : ٧٧.

(٢) معاني القرآن ، للفرَّاء ٩٩/١ ، وينظر: الدر المنثور ٤٠٥/١.

الغنم ، وما يؤكِّدُ هذا وَصْفُهم بــ(صم ، بكم ، عمي ، فهم لا يعقلــون) ، أي : لا يفهمون معاني الكلام الذي يوعظون به ، وليس لهم من معاني القرآن وكلام الخير إلاَّ دورة الكلام[1].

ففي الآية ، إذن ، إرشاد إلى نبذ التقليد الأعمى ، وإلــى تحكــيم العقــل ، وتحريك الحواس ، وعدم تعطيل تلك الجوارح التي وهبها الله تعــالى للإنــسان ، وميَّزه بها من الحيوان ، وبذا تكون وظيفة الكلام هنا (وظيفة عقليــة) ، إذ إنَّ الله تعالى بهذه الأمثال والصور يوصل الإنسان إلــى المعرفــة والحقيقــة الكبــرى بالاستدلال المنطقي ، فقد ذكر الله ﷻ ، في أكثر مــن آيــة ، أنَّ الأَمثــال التــي يضربُها براهين وأدلَّة يخاطب بها عقول القوم ، علَّهم يدركون ما يأتيهم من ربهم، كما في قوله تعالى : ﴿***وَتِلْكَ الامْثَــالُ نَــضْرِبُهَا لِلنَّــاسِ وَمَــا يَعْقِلُهَــا إِلاَّ الْعَالِمُونَ***﴾ [2] ، وقوله تعالى: ﴿ ***إِنَّ فِي ذَلِكَ لايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ***﴾ [3] ، لــذا يصف تعالى من لايعقل ولا يفقه كلامه بالأنعام ، لأنَّ ما يميز الإنسان مِن الانعام هو العقل ، وحين ينعدم يكون وصــفه بالبهــائم أقــرب لحــالهم ، إذ إنَّ العنــاد والتغاضي عن استماع المعرفة هو الذي يجعلهم كالبهائم في التفكيــر ، وهــم لا تفكير لهم ، كما في قوله تعالى : ﴿***إِنَّ شَرَّ الدَّواب عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ***

---

(1) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٣١٥/٣ ؛ والأمثال في القرآن الكريم ٢١.

(2) سورة العنكبوت : ٤٣.

(3) سورة الرعد : ٤.

لا يَعْقِلُونَ ﴾ [1] ، فـــ(الدَّواب) في اللغة : اسم عام لجميع الحيوانات يُستعمَلُ في الحيوان وفي الحشرات [2] .

أَمَّا في النَّصِّ القرآني فقد جاءت لفظة (الدَّواب) رمـــزًا للإيحـــاء بـــضآلة مستوى تفكير هؤلاء المعاندين الذين لايرتقون إلى مستوى الآدمية. وكان اختيـــار كلمة (الدَّواب) لتجسيم الحالة التي تمنعهم من الانتفاع بالهدى ، بوصفهم (صـــم ، بكم) ، فكلاهما يكمل صورة الغفلة والحيوانية التي يرسمها النص لهـــؤلاء الـــذين لايؤمنون ، لأنّهم لايعقلون . ومِمَّا يلفتُ النَّظَرَ التقابلُ في الـــنص القرآنـــي بـــين الإنسان والحيوان من خلال الفعل (لايعقلون) ، فقد جاء اشـــارةً إلـــى أَنَّ المُـــرَاد بـــ(الدَّواب) في النَّصِّ هم البشر ، وليس البهائم الحقيقية [3] .

فالله ﷻ أَكَّدَ الاستماع لآي الذكر الحكيم ، لأنّ في الاستماع عِظَةً وتبصرةً وتفهيمًا ، قال تعـــالى : ﴿ ***يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ*** ﴾ [4] .

فالقرآن يدعو إلى التَّدبُّرِ والنَّظَرِ والتَّأَمُّلِ في آياته ، وينهى عن الإعـــراض عنها، كما في قوله تعالى:﴿ ***أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا*** ﴾ [5]، وفي قوله تعالى : ﴿ ***أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الارْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا***

---

(1) سورة الأنفال ٢٠-٢٢.

(2) ينظر: لسان العرب (دبب) ، والتبيان في تفسير غريب القرآن ٩٤/١.

(3) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم ٧٧.

(4) سورة يونس ٥٧.

(5) سورة محمد ٢٤.

أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الابْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) ، و(القلب) في اللغة هو تحويل الشيء عن وجهه، وهــو ايــضًا خالص الشيء ولبه، و(القلب) هو المضغة الصنبورية في جسد الإنسان (٢) . وقد يعبر بـــ (القلب) عن (العقل) مجازًا ، وهذا ماعبرت عنه كلمة (قلب) في الآيـــات الآنفة ، إذ قال الفرَّاء: "جائز في العربية ان تقول (مالك قلب) و(ماقلبـــك معـــك)، تقول (ماعقلك معك) و(أين ذهب قلبك ؟) أي : أين ذهب عقلك ؟ " (٣) .

فـــ (القلوبُ) في السِّياق القرآني تُشعِرُكَ بأنّها العقول ، لوجـــود القرينـــة السياقية ، في نحو قوله تعالى (يعقلون بها) ، فَجُعِلَ (القلب) كنايةً عـــن الخـــاطر والتَّدَبُّرِ (٤) .

وقد عَبَّر القرآن في مواضع عديدة عن القلوب التي لاتفقه بالطَّبع والخَـــتمِ عليها ، ووَضْعِ الأقفال عليها ، كما في قوله تعالى: ﴿ ***أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُـــرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا*** ﴾ (٥) فأضاف الأقفال إلى القلوب للدَّلالـــة علـــى أنَّهـــا أقفـــال مخصوصة ، مناسبة لها ، غير مجانسة لسائر الأقفال المعروفة (٦) ، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ ***خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْـــصَارِهِمْ غِـــشَاوَةٌ***

---

(١) سورة الحج ٤٦.

(٢) ينظر: لسان العرب (قلب).

(٣) معاني القرآن، للفرَّاء ٨٠/٣.

(٤) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٨٦.

(٥) سورة محمد ٢٤

(٦) ينظر: روح المعاني ٧٤/٢٦ ، والدر المنثور ٥٠١/٧.

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [1] ، وقوله تعالى: ﴿ ***وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ*** ﴾ [2] . فـ(الخَتْمُ) و(الطَّبْعُ) في اللغة بمعنى واحد ، هو : التَّغطِيَةُ على الشَّيْءِ والاستيثاقُ من أَن لايدخلَهُ شيءٌ، وهذا ماقصد إليه التَّعبير القرآني حين وصف قلوب الكافرين بـ(المقفلة والمختومة والمطبوعة) ، لعدم نفاذ الهداية إليها ، لِعَدَمِ تَفهُّمِها لقول الحق [3] . فالخَتُم والطَّبُع كنايةٌ عن رسوخ الغفلة والضَّلال في قلوب الكفار والمنافقين ، حين وصف الله قلوبَهم بهذه الأوصاف للدلالة على الانغلاق التام في ذهنيتهم ، وما يُبين ذلكَ استعارةُ النَّصِ القرآني (للختم) ، وهو سدُّ الشيء ، حيث جعلت هذه الصفة المادية لأشياء معنوية ، في خلعها على القلب والسمع والبصر [4] ، فجاء (الختم) رمزًا لانسداد الفهم والإدراك في عقول الكافرين.

ويُجَسِّدُ التَّعبيرُ القرآني الكافرينَ والمنافقين وما تؤول إليه أَعمالُهم بحشدٍ من الصور الفنية المتتابعة في مشهد متحرك كما في قوله تعالى: ﴿ ***أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوْا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (*) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ (*) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (*) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ***

---

(1) سورة البقرة ٧ .

(2) سورة التوبة ٨٧.

(3) ينظر: تفسير النَّسفي ٤/ ١٤٩.

(4) ينظر : التفسير الكبير ٢٣،٤٤ ، والإعجاز البياني للقرآن ٤٩٧.

فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (۞) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] إنَّ هذا المشهد قائم على ألفاظ تطوَّرت دلالالتها ، كـ (اشتروا، والضَّلاَلة، والهدى، وصَيِّب، وظلمات، وأَصابِعَهم، وأَضاء)، فجميع هذه الألفاظ قد حصل فيها تطوُّرٌ دلالي، إذ سُحِبَت من معانيها لِتُطلقَ على معانٍ أُخر وفق مايقتضيه السِّياق، كخلع صفة (البيع والشراء) على ظاهرة معنوية تَتَّصِل بالإيمان بالله وبِضِدِّها ، فكان إطلاق الهُدى على الإيمان ، والضلالة على الكفر . وبما أنَّ النَّص القرآني قد وصف سلوك المنافقين في عملية البيع والشراء ، التي تقترن دائمًا بإِشباع الحاجة لدى البائع والمشتري، فالعمل التجاري يَستهدِفُ كسبَ الرِّبح ، وإلاَّ كانت التجارةُ عَبَثًا. لذا عندَما خُيِّلَ للمنافقين والكافرين أَنَّهم قد ربحوا في تجارتهم المنافقة ، والكافرة ، تُبَيَّنَ لهم في ذلك المشهد العظيم ، يومَ القيامةِ ، أَنّهم كانوا مخطئين في تقديرهم ، لأنَّ المطلوب ان يربح الشخص جانب (الهدى) ، في حين أَنَّهم قد اشتروا الضَّلالَة بالهدى ، وهذا هو منتهى الخسارة. فـ (الهدى) رمز للإسلام ، و(الضَّلالةُ) رمز للشرك [2] .

والتَّعبيرُ القرآني يتقدَّمُ بصياغة صور تشبيهية يدلَّلُ من خلالها على مستوى الخسارة التي تصيب هؤلاء المنافقين والكافرين ، إلاَّ أنَّ الغاية منها توظيف العقل

---

(١) سورة البقرة : ١٦-٢٠.

(٢) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم : ١٩٩.

لاستيعاب ماسيؤول إليه أَمرُهُم ، فقال تعالى : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ [1] ، وطالما أنَّ النَّصَّ يتحدَّث عن أَخطر الأمراض النفسية وهو (النفـاق) ، لـذا شبَّه الله المنافقين بشخص استوقد نارًا على أَمل أَن تُضِيءَ له الطَّريق،فلمَّا أَضـاءت ما حولَه ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون .

فالاستدلال العقلي والنهج المنطقي في التصوير والإدراك في القرآن ، كـان يأتي بألفاظ مختارة تُشبِعُ النَّصَّ القرآني بدلالات متعددة ، ففي قولـه تعـالى : ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون**﴾[2].

رَدٌّ على من أَنكرَ خلقَ عيسى من غير أبٍ ، إذ هذا الخلق ليس بأغرب من خلق آدم من غير ذكر وأنثى [3] ، ثم قال: (خلقه من تراب) ، ولم يقل: (مِن طِّين) ، وهو ماء وتراب ، إشارةً إلى أَقَلِّ الصِّنفينِ منزلةً، ليؤكِّدَ ﷻ مدى قدرته وضآلة أصل المخلوق ، فالقادر على خلق الشَّيءِ من العدم لَقادِرٌ على خلق عيسى في بطن أُمِّه [4] .

إنَّ (الوظيفة العقلية) للكلام في القرآن تكمن في عرض الأدلـة المنطقيـة ، بألفاظ دقيقة الاختيار ، وبأساليب فنية جميلة، كما في قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّـاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۞) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الارْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِـنَ**

---

(١) سورة البقرة : ١٥.

(٢) سورة آل عمران ٥٩.

(٣) ينظر: تفسير الطبري ٢٩٥/٣.

(٤) ينظر: معاني القرآن ، للفرّاء ٢١٩/١.

الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] ، فالقرآن الكـــريم عَمَدَ إلى إثارة هذه المعاني في النفس الإنسانية ، مِن جَعلِ الأَرضِ فراشًا والـــسَّماءِ بناءً... وكيفية نزول المطر وإنبات الزرع ، ومردُّ ذلك إلـــى التفكيـــر والاســـتدلال والرجوع إلى حقيقة الأشياء لِلتَّنبيه على وحدانية الله ﷻ [2] ، وما هذه إلاَّ بأَلفاظ قـــد اختيرت لتزيد جماليَّةَ السياق ، وتنسجم مع المعنى .

---

(١) سورة البقرة ٢١-٢٢.

(٢) ينظر: الدر المنثور ٨٥/١ ، وتفسير النَّسفي ٢٣١/٢ .

المبحث الثالث
وظيفته النفسية

اللغة هي الأداة العقلية الأولى التي مكَّنتِ الإنسانَ من تحديد الأشياء ، وتوضيح أفكاره عنها [١] . فهي فعلٌ إنساني محض ، يحيل التجربةَ البشرية إلى عالم مقول ، عالم تحدد معناه العلاقة الحاصلة بين الكلمة والفكرة .

ووظيفة الكلمة في اللغة هي خلق استجابات ، على نحو ماتفعله الأشياء التي تأتي الكلمات بدائل لفظية عنها، والوصول تدريجيًا من خلال هذه الاستجابات إلى صياغة متآلفة تُحَقِّقُ الرُّكونَ (المُستقِرَّ) إلى غائيَّة الحدث اللغوي، وربط ذلك بالمرجعية الإثارية – الإستجابية التي ينبني عليها الحدثُ ذاته، فيأتي المعنى استجابةً ذهنيَّةً ، لا استجابة لفظية ، يسبقها مثير أو منبِّه واقعي [٢] .

إذن ، لابد لنا من التعامل مع الوظيفة اللغوية على أساس انتمائها إلى سياقين ، هما : السِّياق اللفظي والسِّياق الإجتماعي، يأتلفان في إطارٍ واحدٍ ، يتشكَّلُ بهما المعنى. فالعلاقة بين هذين السياقين علاقة تضمينية، بمعنى أنَّ السِّياق الاجتماعي يتضمَّنُ السياقَ اللفظي ، فيكون الأولُ أَصلاً ، فَرْعُهُ سياقُ اللَّفظِ، فلا يخلو سياقٌ لفظيٌّ ما من رجوعه إلى هذا السياق الأَصلي أو الرئيس الذي يجسِّدُ سياق الحدث الكلامي، فيرسم أو يختارُ مقوَّماتِه اللفظيةَ وأبعادَهُ الدّلالية ومِن ثَـمَّ يكون السياق الاجتماعي سياقًا مركَّبًا في ذاته من اللفظ والموقف، فينشأ السياق اللغوي الدّلالي

---

(١) ينظر: مشكلة الحياة ٨٢.

(٢) ينظر: علم الدّلالة السلوكي ٨٢-٨٩.

المركب في ذاته من اللفظ وسياق الموقف الإجتماعي، وهذا مايَضمنُ لِلُّغَةِ وظيفتَها الإجتماعيةَ، وآفاقَها النَّفسيةَ [1] .

فثمَّةُ علاقة بين الاسلوب والمعنى من حيث قنوات التوصيل الدّلالي المهيمن على الإبلاغ ، من غير أن ينقصه شيء من عناصر التأثير والإدهاش . فلا تعدو العملية اللغوية الإقناعَ والتَّأثير ، أو الكشفَ والإبلاغ، ولايتحقَّقُ هذا بغير الوحدات الدّلالية، فتأتي إبلاغيَّةُ اللغةِ وبلاغتُها في آن واحد[2]. وهذا ما أَكَّدَهُ الأوائل من علماء البلاغة والنقد ، فقال أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) في البلاغة "إِنَّها كلُّ ما تُبَلِّغُ به المعنى قلبَ السَّامعِ ، فَتُمَكِّنُهُ في نَفْسِهِ كَتَمَكُّنِهِ في نَفْسِكَ ، مع صورةٍ مقبولةٍ ومَعرضٍ حَسَنٍ " [3] .

وقد توافق فهم عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) للبلاغة ، مع فهم أبي هلال العسكري لها ، إذ يرى أَنَّ وصف الكلام بالبلاغة لامعنى له إلاَّ وصفُه "بِحُسنِ الدّلالةِ وتمامها ، فيما كانت له دلالة ، ثم تبرُّجها في صورة أبهى ، وأزين، وآنق ، وأعجب ، وأحقّ بأن تستولي على هوى النفس، وتنال الحظَّ الأَوفر من ميل القلوب" [4] .

---

(١) ينظر: الأثر الدّلالي لحذف الاسم في القرآن الكريم ١١-١٢ ، والدّلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم ١٠.

(٢) ينظر: المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية ٢١٤.

(٣) كتاب كتاب الصناعتين ٧٢.

(٤) دلائل الإعجاز ٨٧.

وبذا يكونُ الأوائل قد أَشاروا إلى العلاقة بين اللغة وأثرها النفسي ، من خلال حديثهم عن التذوق الفني ، فلطالما أَكَّدُوا مطابقة الكلام لمقتضى الحال [١] ، واختيار الكلمات للمكان المناسب لها في الجملة، وهذا يعني أنَّ معيني الانفعالية الأساسيين هما : المفردات والتنظيم، وعنصر الاختيار هو ما يميز اللغة الانفعالية من غيرها، إذ تظلُّ مراعية لمقتضيات الحدث اللغوي ، من خلال تحوُّلاتها السياقية بحسب تحوُّلات المقام، فتصوغ عباراتها صوغًا جماليًا، فلا يكون المعنى تبعًا لذلك بمعزل عن عناصر السياق كلِّها، فإنَّ إنتاجه يتشكَّل بشكل العملية اللغوية، التي لاتنفكُّ تقوم على ثنائية الدال والمدلول [٢] .

ولو أنعمنا النَظَرَ في البلاغة لوجدناها تتبع مواقع رضا النفس وكيفية التأثير فيها، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني ، في كلامهِ عن المسائل الحِّسيَّةِ ، بشكل غير مباشر فقال : " فلا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لايكون لصاحبتها" [٣] .

فالأثر النفسي للكلام لا يمكن إغفالهُ، وكُلَّما كان أُسلوب الكلام متمكِّنًا من الفصاحة والبلاغة ، كان دخولُه إلى النفس أَسرعَ، وتاثيرُه أَكثرَ . ولو حَلَّلنا قولَ الرسول ﷺ : " إن من البيان لسحرًا وإن من الشعر لحكمة" [٤] ، لوجدنا أنَّ (البيان) هو : الكلام البليغ الذي يسحر النَّفسَ لما يتركه من أثر فيها، فقد كان البيان لأمة محمد ﷺ ديدنهَا الذي يثير شجونَها تارةً ، ويقوِّي عزيمتَها تارةً أُخرى، وغير ذلك

---

(١) ينظر: الإيضاح ٨ ، ومناهج التجديد ١٨٣.

(٢) ينظر: أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث ١٤٢ ، وبنية اللغة الشعرية ٣٣.

(٣) دلائل الإعجاز ٢٥٥.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ٤٩١/١ .

من الأغراض التي كان يطرقها البيان في ذلك العصر، لذا فعندما أراد الله أن يجعل لأمَّةِ العرب معجزة، جعل لهم القرآن الكريم، فولج إلى قلوبهم، ودخل عقولهم، لما فيه من تأثير كبير في النفس الإنسانية، فمفهوم الاعجاز القرآني يتضمن دلالته النفسية؛ لأن المقصود منه هو الأسلوب البيِّن، والإخبار عما سبق، والإخبار عن الغيب والعلاقات الإنسانية عامة، والتناسب في جميع ما تضمنه ظاهرًا وباطنًا، ثم الجزالة وإمكان التعليل، فهو "تعدّي حدود اللغة إلى النفس، لأَنَّ في ذلك انتقالاً بالصورة إلى داخل النفس المعبِّرة" [1] . ومثل هذا كثير في القرآن الكريم، فلو تأملنا كلمة (المَسّ) في القرآن الكريم لوجدناها جاءت بمعنى الملامسة المادية، أي مسك الشيء [2] ، في قوله تعالى: ﴿**فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ [3] ، فالواضح من ظاهر النَّصّ الدّلالة المادية، ذلك أنَّ (المطَّهرون) هم (الملائكة)، وقيل هم المنزهون عن الخطيئة، وقيل هم (السَّفَرة) هم الكتبة [4] . فالمعنى: لاينبغي أَن يمسَّه إلاَّ من هو على الطهارة من الناس، إلاَّ أَنَّ المتأمِّلَ لهذا اللفظ يجد أَنَّ حدود دلالته لاتنتهي عند دلالته المادية فقط، بل إنَّه يتضمَّن دلالةً معنويَّةً تتمثَّلُ في أَنَّ لِلقُرآنِ ظاهرًا وباطنًا [5] ، ولايكاد الشخص يصل إلى باطنه مالم يكن على طهارة عالية، تؤهِّلُهُ لأَن يعيَ مافيه، ليصلَ إلى المعرفة والتَّمَثُّلِ الحَقّ

---

(١) مجاز القرآن وخصائصه الفنية ٩٦.

(٢) ينظر: لسان العرب (مسس).

(٣) سورة الواقعة ٧٨-٧٩.

(٤) ينظر: الدر المنثور ٢٦/٨.

(٥) ينظر: روح المعاني ١٦٠/٢٢.

لأجواء القرآن الكريم ، وهذا التَّمثُّل يعيه المطَّهرون من البشر ، فإنَّه لا يبلغ حقــائق معرفته إلاَّ من طَهَّرَ نفسَه ، وابتعدَ عن الفسادِ قلبُه، ومن ثَمَّ يكون (المَــسُّ) تجاوبًــا روحيًا بين القرآن العزيز والمُطَهَّرين، واستشعاراً لمكامن الكمال والجمال فيه [1] .

ومن لطائف الاستعمالِ القُرآني لكلمةِ (المَسِّ) جعلُها كنايةً عن (الجِمَــاعِ)[2]، إذ يُكني الله ﷻ عن إتيانِ المرأةِ مِن قِبَلِ الرجل بألفاظ رشيقة ، تشير إلــى الدّلالــة المبتغاة، وتحفظ في الوقت نفسه هيبةَ التعبير، وتذهب بِكَراهةِ الأَداء المباشر لمثــل هذا الحدث ، ومنه قوله تعالى: ﴿***يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُــمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِــنْ عِــدَّةٍ تَعْتَــدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً***﴾ [3] ، فلمَّا دلَّ فعلُ النكاح علــى العَقــد ، وتضمَّنَ الإشارةَ إلى الشِّدَّة، فإنَّ فعلَ (المَــسِّ) يوحي بــاللِّين والــسَّلاسَةِ ، وكــأنَّ المُمارسَةَ ، المُعَبَّرَ عنها بقولِه تعالى (تَمَسُّوُهُنَّ) ، ممارسةٌ رشيقةٌ متأنِّيــة، فكأنَّمــا (المَسُّ) هنا مَسًّا روحيًا إشراقيًّا، فضلاً عن كونه مَسًّا مادِّيًّا [4] .

فكثيرًا ماتبتعد اللَّفظةُ عن دلالتها الوضعية إلى معنى مجازي، فتكون دلالتهــا في الموضع الجديد أَعمقَ في النَّفسِ ، لما تعطيه من صورة جديدة في السِّياق، ففــي قوله تعالى : ﴿ ***بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا***

---

(١) ينظر: معاني القرآن ، للفرَّاء ١٩/٤.

(٢) ينظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ٢٥٦.

(٣) سورة الأحزاب ٤٩.

(٤) ينظر: الدّلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم ١١٣.

وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [1] ، وفي قوله تعالى ﴿ ***وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُـــورًا*** ﴾[2] ، جاءت كلمة (بور) ، وهي تعني: الأَرضَ التي لاتــصلح للزراعـــة [3] ، أمَّـــا فـــي الاستعمال القرآني فقد دلَّت على معانٍ يمكن استيحاؤها، كـــ (الهلاك والضَّلال)[4]، و(فساد القلب) [5] ، (وبُطلانِ النِّيَّةِ والعمل) [6] ، ففي الآية الأولى دلت علـــى عـــدم حسن الظن [7] ، وهذا ما أَعطاه سياق الكلام الذي خَصَّ الله به المُنافقينَ من الأعراب المُتخلِّفينَ عن الجهاد، فاستعار الله لهم كلمة (بورًا) للدلالة علـــى انـــشغالهم بالـــدنيا وحُبِّهم لها، وأَنَّ هذا الحُبَّ هو كالزَّرعِ البائر في أَرضٍ بور ، لا يُجنَى منه شيء، لذا قيل (قومًا بورًا) أَي : (هلكى) بلغة عمان ، (فاسدين) بلغة الأزد[8]، أي : وكنتم قوماً فاسدينَ لاخيرَ فيكم ، وهذه الدّلالات جميعها نستوحيها من هذه الكلمة التي وصف الله بها المنافقين الذين تَأَمَّلُوا شيئًا، ثم خاب أَمَلُهم ، كالزُّرَّاع في أرضٍ لاخير فيها فيخيب زرعهم .

---

(1) سورة الفتح ١٢.
(2) سورة الفرقان ١٨.
(3) ينظر: لسان العرب (بور).
(4) ينظر : العين (بور) ٢٨٥/٨ ، ومجاز القرآن ، لأبي عبيدة ٢١٧/٢.
(5) ينظر: المفردات في غريب القرآن ٦٢.
(6) ينظر: معاني القرآن ، للفرَّاء ٦٦/٣.
(7) ينظر : معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ٦١/٤.
(8) ينظر: روح المعاني ٥٠/١٨.

وكذلك وصِف بها الكافرون ، المُنشغِلُونَ بِحُبِّ الدنيا عَن ذِكرِ اللهِ، في قولـــه تعالى : ﴿ **وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُــورًا** ﴾ . فالكفر بِوَارٌ لصاحبه ، لأنَّ فيه هلاكَهُ . ومِمَّا أضفى جماليَّةً على الآيتين المتلازمتي الدّلالة ، الكلمات التي جاءت مع كلمة (بور) ، كـــ(ظَنَّ)، و(زُيِّـــنَ)، و(مَتَّـــع) ، إذ توحي معها بشيء مُتَأمل، إلاَّ أَنَّ اتبَاعَها بكلمة (بور) أَضفى علـــى الـــنَّصِّ معنـــى الانتهاء إلى ضياع الأمل سُدًى. فكان لقوله تعالى : ﴿ **وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً** ﴾ أثر نفسي لن تجدَه في نحو قولك : (وكنتم قومًا هلكى، أو فاسدين).

ومن ذلك كلمة (كنود) في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الانسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُـــودٌ ۞ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۞ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾ [١] ، وردت مرة واحـــدة في القرآن الكريم لتدلَّ على كفر الإنسان وجحوده [٢]، فيقال رجل (كنود) إذا كـــان مانعًا لما عليه من الحق، وقيل هو العاصي أو البخيل [٣].

وسأل نافع بن الأزرق عن قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الانسَانَ لِرَبِّـــهِ لَكَنُـــودٌ** ﴾ ، فقال ابن عباس : ((كنودٌ لِلنِّعَمِ ، وهو الذي يَأكلُ وحدَه ، ويَمنعُ رِفدَه. فلمَّا سأل نافع: وهل تعرفُ العربُ ذلكَ ؟ ، استشهدَ بقول الشاعر :

شـــكرتُ لـــه يـــوم العكـــاظِ نوالـــه ... ولم أك للمعـــروف ثـــم كنـــود

---

(١) سورة العاديات ٦-٨.

(٢) ينظر: لسان العرب (كند).

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن ٤٦٠ ، والتبيان في أقسام القرآن ٥١/١.

والمعاني فيها متقاربة على كل حال ، والأرجح أنَّها ترجع إلـــى (الأرض الكنود) التي تستعصي على الزرع ، فلا تنبت ، فهي عاصية وبخيلة، ثـــم كثـــر استعماله في الكافر بالنعمة ، الذي لايؤدِّي حقَّها، وذلك أَسْوَأُ البخلِ . وقريب مـــن (الجحود) بمعنى : نكران الجميل)) [1] .

فَوَقْعُ كلمة (كنود) في النفس يُضفِي على النَّصِّ معـــاني إضـــافية يمكـــن استشعارُها ، كاللؤم، والاعتداد بالنفس، والتضييق على العيال جـــرَّاء البخـــل، إذ يُعطي اللفظ ، ضمن السِّياق ، وظيفة نفسية، فضلا عن وظيفته الإخبارية، فكلمـــة (كنود) بمعنى الأرض البور ، المستعارة لوصف الإنسان ، أعطت دلالـــة نفـــسية لاتجدها في استعمال غيرها. وممَّا يُزيد من جمالية النص عود الضمير في قولـــه تعالى :﴿***وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ***﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ***وإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ*** ﴾ على الإنسان ، أي : إنَّه شاهد على نفسه بذلك، وإنَّه من أجَل حُبِّ الخير لـــشديد، أَي : بخيل بالمال وضابط له [2].

ومن الألفاظ التي جمعت رشاقة التعبير إلى انسيابية التأثير ، كلمة (إملاق) في قوله تعالى : ﴿ ***وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ*** ﴾ [3].

وفي قوله تعالى : ﴿ ***وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِّنْ إِمْـــلاقٍ نَّحْـــنُ نَـــرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ*** ﴾ [1] ، فـــ (الاملاق) في هاتين الآيتين بمعنى الافتقار ، وقد آثر التعبير

---

(١) الإعجاز البياني ٣٧٦-٣٧٧.

(٢) ينظر : تفسير الثعالبي ٤/ ٤٣٦ ، والإتقان ٣٨١ ، والكشاف ٢٧٨/٤.

(٣) سورة الاسراء ٣١.

القرآني كلمة (إملاق) على (الافتقار) ، في سياق نهي الآباء عن قتل أولادهم ، لأنه يتضمَّن إثارة نفسية ، تتمثل في أنّه يَمَسُّ عاطفة الأبوة فيهم، فيوجِّهُها باتجاه أَولادهم، بهذه اللفظة التي يشيعُ استعمالُها في رضاع الصغير من أولادهم، إذ جاء في معنى (المَلْقِ) : هو إرضاعُ الصَّبِيِّ من قبل أمه [2] ، فالسِّياقُ هو الذي تطلَّب لفظة (إملاق) ، كي تبقى مظنَّةً للإيحاء والتأثير النفسي .

ومن الألفاظ التي يُشعِرُكَ استعمالُها في النَّصِّ بدلالة نفسية ، كلمة (أوّاه) في قوله تعالى : ﴿ ***إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ*** ﴾ [3] ، وفي قوله تعالى : ﴿***إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ*** ﴾ [4] ، وفي كلا الموضعين أعطت دلالة : المُنيب المقبل على طاعة الله تعالى بالدُّعاء، والمتأوّه من ذكر النار [5] ، والخائف من الله والرَّاجع إليه ، وهذه الصفات دالة على رقَّة القلب والرأفة والرحمة، فالسِّياق الذي جاءت فيه اللفظة يقبل هذه الدّلالات كلِّها لأنّها تليق بإبراهيم عليه السلام ، فهو : العابد، الزاهد، الخائف ، الحليم ، الرحيم ، العارف بربِّه تعالى، المتلطِّف بنفسه وقومه ، سعيا نحو النجاة والإيمان [6] .

---

(١) سورة الأنعام ١٥١.
(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣٥٨.
(٣) سورة هود ٧٥.
(٤) سورة التوبة ١١٤.
(٥) ينظر: روح المعاني ١٠٤/١٢ ، والدر المنثور ٤/ ٣٠٥.
(٦) ينظر: الكشاف ٢١٧/٢.

ومن الألفاظ التي ولَّدت وظيفة نفسية في الاستعمال القرآني كلمة (الصَّمد) في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (۞)اللَّهُ الصَّمَدُ** ﴾ [1] فـ(الصَّمَدُ) في اللغة هو : السيد الذي يُصمَدُ إليه في الأمر [2] .

وقد استعملت هذه الكلمة مرَّةً واحدة في القرآن الكريم ، ولعلَّ في استعمالها تناسبًا دلاليًا مع اشارتها إلى التوحيد، ومخالفته للآلهة التي إدَّعَوْهَا ، فضلاً عن أنَّ كلمة (الصَّمد) الدَّالة على القوَّة والصَّلابة تُشعِرُكَ نفسيًّا بقوّة الله ، فهو القادر على القيام بأيِّ شيء، أي : إنَّه يصمد بإزاء أيِّ حاجة طلبت إليه تعالى، ودُعي لتحقيقها، وإنَّه الأول بلا أوَّليَّة ، والآخر بلا حدود لآخريته [3] .

ومن الألفاظ التي أغدق عليها السياق القرآني دلالات عديدة كلمة (الضَّلال)، وهي لغةً مأخوذة مِن (ضَلَّ الشَّيْءُ) : إذا خفي وغاب، و(ضَلَلْتُ الشَّيْءَ): إذا ضَيَّعْتُه، وقيل : هو العدول عن الصِّراط المستقيم، ومن ثَمَّ توسَّعوا في استعماله فاستعمل مع الخطأ أيضًا [4] .

أمَّا في القرآن الكريم فقد وردت بمُشتَّقاتِها كثيراً[5] ، إلاَّ أَنَّ دلالاتها كانت متعدِّدة، كُلٌّ في ضوء السِّياق الذي وردت فيه ، ففي قوله تعالى : ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا**

---

(١) سورة الاخلاص ١-٢.

(٢) ينظر: لسان العرب (صمد) ، والمفردات في غريب القرآن ٢٩٧.

(٣) ينظر : كتاب الزينة في الألفاظ الإسلامية ٤٣/٢ .

(٤) ينظر: لسان العرب (ضلل) ، والمفردات في غريب القرآن ٣٠٩.

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٢٣-٤٢٧.

فَآوَى(✿)وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى ﴾ [1] ، جُعِلَت (ضَالاً) صفةً للرسول ﷺ إلاّ أنّه لم يرد معناها الحقيقي من عدم الرَّشاد ، وإنّما أُرِيد بها دلالة التَّحَيُّر ، فقـــال (ضـــالاً) وأراد : مُتَحَيِّرًا[2] . وجاء اختيار (ضالاً) ، دون (متحيِّرًا) لما توحيه الضَّلاَلَةُ مـــن معنى الحركة والتَّرَقُّب والشعور بالاغتراب بين قوم يَغِطُّون بالجهل والعصيان.

وفي موضع آخر نجد جمالية نفسية أُخرى لكلمة (ضَالاً) في قوله تعالى : ﴿ ***وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لاجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ (✿) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ*** ﴾ [3] . فــ(الضَّلاَلُ) هنا ليس بمعنى عـــدم الاهتداء إلى الشيء، وإنما أُريد به الشغف بحب يوسف (عليـــه الـــسلام)، ويـــشعر استعماله في هذا المقام بالأمل ، فإن يعقوب (عليه السلام) مازال مشدودًا إلى أبنـــه راجيًا عودته، واستبعد الأبناء ذلك فعدّوه (ضلالاً) [4] .

فلكلِّ لفظٍ في القرآن الكريم دلالة نفسية معينة طالما أنَّ الإعجاز القرآني هـــو إعجاز للنفس البشرية أمام اختيار الله سبحانه للكلمات ونظمها في سياقات مختلفـــة، لتكونَ أَقدرَ ، دونَ غيرها ، على التعبير عن المعنى وتصويره وتلوينه في إبداع فَنِّي .

---

(١) سورة الضحى ٦-٧.

(٢) ينظر: الكشاف ٢٦٤/٤ ، والبحر المحيط ٤٦٨/٨.

(٣) سورة يوسف ٩٤-٩٥.

(٤) ينظر:الوجوه والنظائر في القرآن الكريم٣٣٢،والتفسير البياني للقرآن الكريم ٤٠/١.

فمن الصور المؤثرة في النفس البشرية قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ**﴾ (1) ، وقوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً** ﴾ (2) . فلكلمة (طمس) في هذه الآيات ميزة جمالية عالية لما تتركه من أثرٍ نفسي ، إذ تدور دلالتها في السياقين على العذاب والترهيب، ففي الآية الأولى دلت كلمة (طمس) على ذهاب البصر وزوال نظره، وقد دلَّ استعمال (الطمس) هنا على بشاعة المنظر ، فلا يمكن تخيل الوجوه من دون أعين إذ يوحي إليك المعنى بانمحاء معالم العيون، حتى كأن لم يكن لها من قبل في هذا الوجه وجود (3) .

أمّا في الآية الثانية فيوحي استعمال اللفظ بصورة مفزعة للعذاب والترهيب، بطمس وجوه أصحاب الكتب السَّماويَّة الذين ضلُّوا عَمَّا فيها مِن الرَّشاد، فكانوا جديرينَ بأن يمحو الله وجوهَهم (4) .

وفي كلا المعنيين اقتراب من المعنى اللغوي، فـ(انْطَمَسُ) في اللغة بمعنى: امّحى ، ودَرَسَ ، ومِن ثَمَّ أُطلق على ذهاب نور الشَّيء، كـ(طُمُوسِ البَصَرِ) أي :

---

(١) سورة يس ٦٦.

(٢) سورة النساء ٤٧.

(٣) ينظر: معاني القرآن ، للفرَّاء ٣/٣١١ ، ومعاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ٤/٢٩٣.

(٤) ينظر : الدر المنثور ١/٣٢٦ ، والكشاف ٤/٢٠٤ .

ذهاب نوره وضوئه، وكذلك (طمسُ الكواكب) : ذهابُ ضوئها ، ومحقها . فتأويـــل (طَمْسُ الشَّيءِ) : ذهابُه عَن صورتهِ [1] .

فاستعمال كلمة (طمس) في الآيتين رمز وإشارة إلى معنى العذاب والتَّرهيب بطمس صورة الشيء واستبدالها بصورة مفزعة .

---

(١) ينظر: لسان العرب (طمس) .

خاتمة البحث ونتائجه

خاتمة البحث ونتائجه

بعد هذه المسيرة والشيّقة من الدراسة والاستقصاء لألفاظ النّص القرآنـي ، والخوض في غمار كثير من الآيات القرآنيّة المباركة ، وما أشعّته من أنوار لغويّة ودلاليّة وبلاغيّة، وتبيان مفصّل لعملية التطور التي تحدث للّفظ في موضعه والغاية منه، أجدُ من المفيد أن أجمل أهمّ النتائج التي وصل اليها البحث ، وهي :

١- إنّ التطور في اللغة يحدث بسبب عوامل عديدة، تأريخية، ودينية، واجتماعية، وهو وإن كان يشمل اللّغات كلَّها ، إلا أنَّ ما أَثرى اللغةَ العربية، وأغنى تطوُّرَها اللغوي والدّلالي ، هو مجيء الإسلام ، ونزول القرآن. وقد لاحظنا ذلك واضحًا في عُدوله عن الألفاظ النَّابيةِ ، إلى ألفاظٍ عَذبةٍ لائقةٍ بنفوسٍ مؤمنةٍ مهذّبة ، وفي استعماله أيسر الألفاظ على النطق، وأبينها في الدلالة على المعنى، وأحرصها على مطابقة القول لمقتضى الحال، فأصبحت اللّفظة القرآنية كائنًا جديدًا حيًّا متميِّزًا من اللفظة المعجمية، فلقد أَلبسها السِّياقُ القرآني حُلَّةً جديدة ، وأضفى عليها شحنات روحية، مِمَّا جعلها تتجاوز كونَها أصواتِ مادة معجمية، فهي تَرسُمُ ، وتُشَخِّصُ ، وتُجَسِّمُ، فتتسع دلالتُها الإسنادية الضيّقة، لتحملَ دلالات واسعة ضمن نظم الكلام وسياقه وأسلوبه .

٢- إنَّ القرآنَ خاطب النَّفسَ البشرية بأرقى أساليب التعبير، ففي تصويره ماترتاح إليه العين والأذن، وفيه ما يُنَفِّرُ عنه ، من خلال دِقَّةٍ بارعة في تصوير الجميل والقبيح، كما في رسم مشاهد يوم القيامة، ووصف الجنة والنار ؛ لأنَّ الغاية منه هي غايةٌ دينية، فكان أُسلوبه في التَّرغيبِ والتَّرهيب معتمدًا على فنون اللغة ، لأنّه معجزة بيانية، لذا كان أثره

واضحًا في تطور فنون البيان ، كـــــ(المجـــاز، والتـــشبيه، والاســـتعارة، والكناية) ، واتساع مفاهيمها.

٣- وحين بحثنا عن تطوِّر الكلمة في النّص، وتحوّلِها الدَّلالي، وجدنا أنَّ لهـــذا التَّطور ظواهر معينة ، منها تطور (الدَّلالة الصوتية، والدَّلالة الاجتماعية، والدّلالة الايحائية، والدّلالة الهامشية)، وكان لكلٍّ ظاهرة من هذه الظـــواهر في القرآن أَثَرٌ كبير في تأدية المعنى وتعدده.

٤- إنَّ للدّلالةِ الصَّوتية في القرآن أَثَرًا في استدعاء المعنى، أو الايحـــاء بـــه ، فقيمة الصوت تكمن في الإفادة المعنوية ، بما يثيره من تـــصور وإيحـــاء بالمعنى، فالقرآن هو كنز اللغة الأعظم ، لافي مفرداته وحدها ، بـــل فـــي طريقة تركيب هذه المفردات وانسجامها، ولا سيَّما إنسجامها الصَّوتي .

٥- إنَّ الدَّلالة الاجتماعية للألفاظ قد ضُيِّقَ بعضها، واتسع بعضها الآخر، مـــن خلال الاستعمال القرآني لها.

٦- إنَّ اللفظة في النَّصِّ القرآني قد توحي بأكثر من مدلول، وتنطـــوي علـــى جملة من المعاني، فكلَّما كانت إيحائية الكلمة عالية، كانت قيمة تلك الكلمـــة من الناحية الفنية عالية أَيضًا.

٧- إنَّ الألفاظ في النص القرآني قد تَتَفرَّعُ عنها ظلال كثيرة للمعنى، وتَتَّـــسِعُ تأويلاتها في نفوس السَّامعين، فتظهر خصوصية الاستعمال القرآني في أنَّها لاتقود المتلقِّي إلى الغرض مباشرة، وإنما عن طريق التأمُّل والإستنباط.

٨- إنَّ لتطور الألفاظ في النَّصِّ وظائف، فلكلِّ كلمةٍ معنًى، ولكلِّ معنى وظيفة في النَّصِّ الذي يؤلفه نظم خاص من الكلمات، وإنّنا لانبحث عـــن معنـــى الكلمة، بل عن استعمالها، ومايولِّدُه هذا الاستعمال من بُعد إشاري.

٩- إنَّ اللفظة القُرآنية تجاوزت حدودها المعجمية ، بغية التأثير الجمالي الفني، فعمدت إلى تصوير الطبيعة الصامتة والمتحركة، وتقريب ماليس بمألوف، وإثارة الحس والبصيرة.

١٠- إنَّ للألفاظ في النص القرآني (وظيفة عقلية) فاللُّغة أَداة لمخاطبة العقل، ولغة القرآن لغة محاججة للفكر البشري، فَأَحالت عملية خلق الكون والتجربة البشرية إلى عالم مقول تحدِّدُ معناه العلاقة الحاصلة بين الكلمة والفكر، لذا كان اختيار الألفاظ في المحاورات العقلية اختيارًا دقيقًا موفقًا في تأدية المعنى.

١١- من خلال دراسة (الوظيفة النفسية) للألفاظ داخل البناء القرآني المعجز، يبدو أنَّ كثيرًا من الألفاظ تُنقل من دلالتها المادية إلى دلالة معنوية جديدة، فاللغة ليست مجرَّدَ تأليف بين الحروف والكلمات، بل هي نظم على وفق المعاني، يصيب موضعًا في النفس، لذا يُعمد إلى اختيار لفظة ، بدلاً من لفظة أخرى ، لما لها من تأثير نفسي.

وبعد فالأطروحة محاولة لتتبع عملية التطور الدلالي للألفاظ في النص القرآني ، وكشف الجوانب البلاغية وراء ذلك ، بأسلوب توخَّى العمق البلاغي والدّلالي ، فإن وُفِّقْتُ إلى ما رَمَيتُ إليه فبفضل من الله وحده، وان كانت الأخرى فلي من سلامة القصد خير عذير .

وأسأل الله أَن يوفِّقَنِي لخدمة لغة القرآن العظيم، إنَّه نعم المولى ونعم النصير.

مصادر البحث ومراجعه

مصادر البحث ومراجعه

أولاً: المصادر والمراجع.

- القرآن الكريم .
- الإتجاه العقلي في التفسير – دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة – نصر حامد أبو زيد ، دار التنوير للطباعة والنشر – بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٣ .
- الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، مطبعة حجازي – القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٤١.
- أثر القرآن الكريم في اللغة العربية– أحمد حسن الباقوري ، دار المعارف-القاهرة ١٣٥٤هـ.
- أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه – توفيق الزيدي، الدار العربية للكتاب – طرابلس (د.ت).
- الإحكام في أصول الأحكام – علي بن احمد بن حزم (ت ٣٢٨هـ) ، دار الافاق الجديدة – بيروت ١٤٠٠هـ.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم – محمد بن محمد العمادي أبو السعود (ت٩٥١هـ) ، دار احياء التراث العربي – بيروت (د.ت).
- أساس البلاغة – جار الله محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، دار صادر – بيروت ١٩٧٩.

- أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، تحقيق : محمد الفاضلي، المكتبة العصرية – بيروت ٢٠٠٣ .
- أسرار التكرار في القرآن – محمود بن حمزة الكرماني(ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام – القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧٨.
- أصول البيان العربي – رؤية بلاغية معاصرة – محمد حسين علي الصغير، دار الشؤون الثقافية – بغداد ١٩٨٦ .
- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الازرق – عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) دار المعارف – مصر ١٩٧١ .
- إعجاز القرآن – أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني (ت٤٠٣هـ) ، تحقيق: أحمد صقر ، دار المعارف – القاهرة (د.ت).
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي ، راجعه وصححه وضبطه: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة – القاهرة (د.ت).
- الأمالي – أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (ت ٣٥٦هـ) ، مطبعة السعادة – مصر ، الطبعة الثالثة ١٩٥٣ .
- أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) – الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ)، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٧ .

- الأمثال في القرآن الكريم – للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر الذرعي الدمشقي (ت ٧٥١ هـ) ، تحقيق ابراهيم محمد ، دار النشر مكتبة الصحابة – طنطا ، الطبعة الأولى ، مصر ١٤٠٦ هـ .
- الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الخلاف – عبد الله بن السيد البطليوسي (ت ٥٢١ هـ) ، تحقيق : محمد رضوان الداية، دار الفكر – بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت٦٨٥هـ) ، تحقيق : عبد القادر عرفات حسونه، دار الفكر – بيروت ١٩٩٦ .
- الإيضاح في علوم البلاغة – الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي، منشورات دار الكتاب اللبناني – بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٠ .
- البحر المحيط – أبو حيان الأندلسي الغرناطي (ت٧٥٤هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت ١٩٧٨.
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد – محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (ت ٦٧٢ هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ.
- البرهان في علوم القرآن – بدر الدين محمد بن ابي عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية – سوريا ١٩٥٧.

- البرهان في وجوه البيان – اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب (ت ٣٣٥ هـ) ، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني – بغداد، الطبعةالاولى ١٩٦٧.
- بنية اللغة الشعرية – جان كوهين، ترجمة : محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر – المغرب ١٩٨٩.
- بيان إعجاز القرآن – حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) ، ضمن ثلاث رسائل في الاعجاز، تحقيق: محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الأولى (د.ت).
- البيان والتبيين – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي – مصر، الطبعة الثانية ١٩٦٠ .
- تأويل مشكل القرآن – عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، شرحه ونشره : أحمد صقر، دار التراث – القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٣.
- التبيان في أقسام القرآن – ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) ، صححه وعلق عليه: الشيخ طه يوسف شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٢.
- التبيان في تفسير غريب القرآن – شهاب الدين احمد بن محمد المصري (ت٨١٥هـ)، تحقيق: فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة للتراث – طنطا، الطبعة الأولى ١٩٩٢ .

- تذكرة الأريب في تفسير الغريب ، للإمام جمال الدين أ[و الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ، دار النشر ، إحياء الكتب العربية ، (د . ت).
- تطور البحث الدلالي – دراسة في النقد البلاغي واللغوي – محمد حسين علي الصغير، مكتبة العاني – بغداد ١٩٨٨ .
- التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن – عودة خليل أبو عودة ، مكتبة المنار – الأردن، الطبعة الأولى ١٩٨٥.
- التطور اللغوي التأريخي – ابراهيم السامرائي ، دار الرائد للطباعة – بغداد ١٩٦٦.
- التعبير الفني في القرآن الكريم – بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الاولى ١٩٩٤.
- تفسير الجلالين – جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، ملتزم الطبع : عبد الحميد أحمد حنفي – القاهرة (د.ت).
- التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن – حنفي أحمد ، دار المعارف – مصر (د.ت).
- تفسير القرآن الكريم – اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، دار الفكر – بيروت ١٤٠١هـ.
- التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه وتطوّره الى القرن السادس الهجري ، المطبعة الرسمية _ منشورات الجامعة التونسية ١٩٨١.

- تلخيص البيان في مجازات القرآن – الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٥٥ .
- تلخيص الخطابة – أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت ٥٩٥هـ)، تحقيق : عبد الرحمن بدوي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٦٠.
- التلخيص في علوم البلاغة – جلال الدين القزويني (ت٧٣٩هـ) ، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي – بيروت (د.ت).
- تنوير المقياس من تفسير ابن عباس (ت ٦٨هـ) ، لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشافعي صاحب القاموس (رضي الله تعالى عنهما) ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م .
- ثلاث كتب في الاضداد – الاصمعي (ت ٢١٦هـ) ، والسجستاني (ت٢٥٥هـ)، وابن السكيت (ت٢٤٤هـ) ، نشر : اوغست هافنر ١٩١٢.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن– أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري (ت٣١٠هـ)، دار الفكر – بيروت ١٤٠٥هـ.
- جامع البيان في تفسير القرآن – محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، دار المعرفة – بيروت (د.ت).
- الجامع الصغير– محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الاسلامي (د.ت).

- الجامع لأحكام القرآن – محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق : أحمد عبد البردوني، دار الشعب – القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ.
- جماليات المفردة القرآنية في كتب الاعجاز والتفسير – أحمد ياسوف ، دار المكتبي – سوريا، الطبعة الأولى ١٩٩٤.
- الجمان في تشبيهات القرآن – ابن ناقيا البغدادي(ت٤٨٥هـ)، تحقيق : أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة دار الجمهورية – بغداد ١٩٦٨.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع – أحمد الهامشي ، مطبعة الاعتماد – مصر ، الطبعة العاشرة ١٩٤٠ .
- جواهر الحسان في تفسير القرآن – عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت٨٧٥هـ) ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت (د.ت).
- جواهر القرآن ودرره – أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد رشيد رضا ، دار إحياء العلوم – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥.
- الحيوان – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده – مصر، الطبعة الأولى ١٩٣٨.
- خزانة الأدب وغاية الارب – تقي الدين أبو بكر علي المعروف بابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ)، شرح : عصام شعيتو، منشورات دار الهلال – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧ .

- الخصائص – أبو الفتح عثمان بن جنِّي (ت ٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٥٢.
- الدرّ المنثور– جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الفكر – بيروت ١٩٩٣.
- دراسات في علم اللغة – كمال بشر، دار المعارف – مصر ١٩٦٩.
- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنِّي – حسام سعيد النعيمي ، دار الرشيد للطباعة والنشر والتوزيع – بغداد ١٩٨٠.
- دراسة أدبية لنصوص من القرآن – محمد المبارك، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت (د.ت).
- دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني – القاهرة ١٩٨٤.
- دلالة الألفاظ – ابراهيم انيس، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الثانية ١٩٦٣.
- دور الكلمة في اللغة – ستيفن اولمان ، ترجمة : كمال محمد بشر ، مكتبة الشباب – القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٧٢.
- ديوان الخنساء، دار صادر للطباعة والنشر – بيروت ١٩٦٣.
- الرسالة – محمد بن ادريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار التراث – القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٩ .

- الرسالة الشافية – ضمن كتاب (دلائل الإعجاز) – عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني – القاهرة ١٩٨٤.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت (د.ت).
- الزينة في الكلمات الاسلامية العربية – ابو حاتم محمد بن ادريس الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ، دار الكتاب العربي – مصر ، الطبعة الثانية ١٩٥٧.
- سبل الاستنباط من الكتاب والسُّنَّة – دراسة بيانية ناقدة – محمود توفيق ومحمد سعد ، مطبعة الأمانة – مصر ١٤١٣هـ.
- سر الفصاحة – عبدالله بن محمد سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت٤٦٦هـ)، شرح وتصحيح : عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد صبيح وأولاده – الأزهر ١٩٦٩.
- الشفاء – أبو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا (ت٤٢٨هـ) ، تحقيق محمد سليم سالم ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٥٤.
- الصاحبي في فقه اللغة – أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) ، مطبعة بيروت ، ١٩٦٤.
- الصورة الفنية في المثل القرآني – دراسة نقدية وبلاغية – محمد حسين علي الصغير، دار الهادي – بيروت ١٩٩٢.

- الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة العلوي (ت٧٤٩هـ) ، مطبعة المقتطف – مصر ١٩١٤.
- العبادة في الاسلام – يوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ١٩٧٥.
- علم الدلالة – أحمد مختار عمر ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع (د.ت).
- علم الدلالة والمعجم العربي- عبد القادر أبو شريفة وحسين لافي وداوود غطاشة، دار الفكر للنشر والتوزيع – عمان ١٩٨٩.
- علم اللغة الحديث – الأسس الأولى – دي سوسير وعلم اللغة – رولون س . ولز ، ترجمة : يوئيل يوسف عزيز (الموسوعة الصغيرة)، دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٨٦.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – ابن رشيد القيرواني (ت٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة – مصر ، الطبعة الثانية ١٩٥٥.
- العين – الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) ، تحقيق : مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي – بغداد (د.ت).
- فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير – محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ، دار ابن أبي الأرقم للطباعة والنشر – بيروت (د.ت).

- فقه اللغة وخصائص العربية – دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد – محمد المبارك، دار الفكر – بيروت – الطبعة الخامسة ١٩٧٢ .
- فن الشعر – أرسطو طاليس، ترجمة : عبد الرحمن بدوي وشكري عباد، دار الكتاب العربي – القاهرة ١٩٦٧ .
- فنون الأدب – هـ.ب تشارلتن، ترجمة : زكي نجيب محمود ، القاهرة ١٩٤٥ .
- فنون بلاغية (البيان والبديع) – أحمد مطلوب ، دار البحوث العلمية – بغداد ١٩٧٥.
- في البحث الصوتي عند العرب – خليل ابراهيم العطية (الموسوعة الصغيرة)، منشورات دار الجاحظ للنشر – بغداد ١٩٨٣ .
- في ظلال القرآن – سيد قطب – مطبعة إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٦٧.
- القاموس الفقهي : لغة واصطلاحاً – سعدي أبو حبيب ، دار الفكر – دمشق، ١٤٠٢هـ.
- قواعد النقد – لاسل آبركرمبي، ترجمة : محمد عوض محمد ، سلسلة المعارف العامة – القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٥٦.
- الكامل في اللغة والأدب – أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاته، مطبعة نهضة مصر – القاهرة ١٩٥٦.

- الكتاب – أبو عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت١٨٠هـ) ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت ١٩٦٦ .
- كتاب الصناعتين – الكتابة والشعر – أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية – مصر ، الطبعة الأولى ١٩٥٢.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هـ) ، دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت (د.ت).
- لحن العامة والتطور اللغوي – رمضان عبدالتواب، دار المعارف – مصر ، الطبعة الأولى (د.ت).
- لسان العرب – محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري (ت٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى (د.ت).
- اللغة العربية – معناها ومبناها – تمام حسان، الهيأة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .
- المبادىء العامّة لتفسير القرآن الكريم ، محمد حسين الصغير ، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ضياء الدين بن الاثير (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، منشورات دار الرفاعي الرياض، الطبعة الثانية ١٩٨٣.
- المجاز في البلاغة العربية – مهدي صالح السامرائي، دار الدعوة – سوريا، الطبعة الأولى ١٩٧٤.
- مجاز القرآن – أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ت٢١٠هـ) ، علق عليه: محمد فؤاد سزكين ، منشورات محمد سامي أمين الخانجي الكتبي – مصر، الطبعة الأولى ١٩٥٤.
- مجاز القرآن وخصائصه الفنية – محمد حسين علي الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، الطبعة الاولى ١٩٩٤م.
- مجمع البحرين – فخر الدين بن محمد علي بن أحمد الطريحي (ت١٠٨٥هـ) ، تحقيق : أحمد الحسيني ، مطبعة الآداب – النجف الأشرف ١٩٦١.
- المحرَّر الوجيز من كتاب الله العزيز (تفسير ابن عطية) – أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت٤٥١هـ)، تحقيق: الرحالي الفاروقي، وعبد الله بن ابراهيم الأنصاري، والسيد عبد العال السيد ابراهيم ، ومحمد الشافعي صادق العناني، الطبعة الأولى ، القاهرة –١٩٧٧.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل– ابو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي (ت ٧١٠ هـ) ، مطبعة البابي الحلبي- القاهرة (د.ت).

- المستصفى في علم الأصول – أبو حامد محمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٣هـ.
- مشكلة الحياة – زكريا ابراهيم، مكتبة مصر – القاهرة، الطبعة الاولى ١٩٧١.
- معالم التنزيل – أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت٥١٦هـ) ، تحقيق : خالد العك ومروان سوار ، دار المعرفة – بيروت ١٩٨٧.
- معاني الحروف - علي بن عيسى الرّماني (ت ٣٨٦ هـ) ، تحقيق عبد الفتّاح اسماعيل ، دار الشروق ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤.
- معاني القرآن – أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، عالم الكتب– بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠.
- معاني القرآن – علي بن حمزة الكسائي (ت١٨٩هـ)، اعداد وتقديم: عيسى شحاته عيسى، دار قباء للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٩٨.
- معاني القرآن وإعرابه – إبراهيم بن السرّي الزجاج (ت٣١١هـ)، تحقيق عبدالجليل عبدة شلبي، منشورات المكتبة العصرية – بيروت ١٩٧٤.
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي – عن الكتب الستة ، وعن مسند الدارمي ، وموطأ مالك ، ومسند أحمد بن حنبل ، رتبه ونظمه ونشره : د.أ. بي وينسك أستاذ العربية بجامعة لندن ، مكتبة بريل في مدينة ليدن ، سنة ١٩٣٦ .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٩.

- المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية – وليم راي، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز ، دار المأمون للترجمة والنشر – بغداد، الطبعة الأولى ١٩٨٧.
- مفاتيح الغيب – أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن المعروف بالفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، مطبعة البهية – مصر (د.ت).
- مفتاح العلوم – يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق: أكرم عثمان يوسف ، مطبعة الرسالة – بغداد ، الطبعة الأولى ١٩٦٤.
- المفردات في غريب القرآن – أبو القاسم الحسين بن محمد ، المعروف بالراغب الاصبهاني (ت ٥٠٢هـ) ، ضبط : هيثم طعيمي، دار احياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٢.
- المقتضب – أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ) ، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمه ، عالم الكتب- بيروت (د.ت).
- مناهج البحث في اللغة - د . تمام حسّان ، مطبعة القاهرة ١٩٥٥.
- مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ، أمين الخولي ، مطابع طنطا ، مصر ١٩٦١.
- المنار – محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار – مصر، الطبعة الثالثة ١٣٦٧هـ.
- مناهل العرفان في علوم القرآن – محمد عبد العظيم الزرقاني ، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات ، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦.

- من بلاغة القرآن – أحمد أحمد بدوي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، مكتبة نهضة مصر – الفجالة ١٩٥٠.
- الموافقات في أصول الشريعة – ابراهيم بن موسى الشاطبي(ت٧١١هـ)، دار الفكر العربي – بيروت (د.ت).
- موسيقى الشعر - د . إبراهيم أنيس مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٦٥.
- نظرية الادب – رينيه ويليك وأوستن وارين ، ترجمة : محيي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨١.
- النقد الادبي الحديث– محمد غنيمي هلال ، دار العودة – بيروت، ١٩٧٣.
- نقد الشعر – قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية – بيروت (د.ت).
- النقد العربي في ثلاثة محاور متطورة ، الموسوعة الصغيرة ، العدد ٢٢٤، دار الشؤون الثقافية العامّة – بغداد ١٩٨٦.
- النكت في إعجاز القرآن أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني(ت ٣٨٦هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف – مصر (د.ت).
- النهاية في غريب الحديث والأثر – ابن الاثير الجزري (ت٦٠٦هـ) ، تحقيق طاهر أحمد الراوي، ومحمود احمد الطناحي، دار احياء الكتب العربية – مصر ، الطبعة الأولى ١٩٦٣.

- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم – هارون بن موسى (ت ١٧٠هـ) ، تحقيق : حاتم صالح الضامن، دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٨٩.
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز– ابو الحسن علي بن احمد الواحدي (ت٤٦٨هـ) ، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم – دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

ثانيا: الرسائل والاطاريح :

- الأثر الدلالي لحذف الاسم في القرآن الكريم – محمد جعفر، رسالة ماجستير، كلية الآداب – جامعة الكوفة ١٩٩٧.
- أساليب الدعاء في القرآن الكريم (دراسة فنية بلاغية) – محمد محمود عبود زوين ، رسالة ماجستير ، كلية القائد للتربية للبنات – جامعة الكوفة ١٩٩٧ .
- الإستعارة في القرآن الكريم – أحمد فتحي رمضان ، رسالة ماجستير، كلية الآداب – جامعة الموصل ١٩٨٨.
- الألفاظ الاسلامية وتطور دلالاتها إلى نهاية القرن الثالث الهجري – يعرب مجيد مطشر العبيدي، رسالة ماجستير، كلية الآداب – جامعة بغداد ١٩٩٣.
- ألفاظ الهدى والضلال في القرآن الكريم – دراسة دلالية ، فتوح حسين فدعوس الجبوري، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – جامعة بغداد ، ١٩٩٨.
- التراكم الدَّلالي في النَّصِّ القرآني – مجيد طارش عبد ، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للبنات – جامعة بغداد ٢٠٠٠.

- الجناس في القرآن الكريم – أسماء سعود الخطاب ، رسالة ماجستير – كلية الآداب – جامعة الموصل ١٩٩٨.
- الدلالة الصوتية في القرآن الكريم – كريم مزعل محمد اللامي، رسالة ماجستير ، كلية التربية – الجامعة المستنصرية ١٩٩٧.
- الدلالة المركزية والدلالة الهامشية بين اللغويين والبلاغيين – رنا رؤوف طه، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد ٢٠٠٠.
- الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم – محمد جعفر محيسن ، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة القادسية ٢٠٠٢ .
- سورة هود عليه السلام - دراسة لغوية دلالية – عبد الكريم ناصر محمود الخزرجي، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب – جامعة البصرة ٢٠٠٠ .
- الصورة السمعية ودلالتها البلاغية في القرآن الكريم – عباس حميد السامرائي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة بغداد ٢٠٠١.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣٩٥هـ) (دراسة دلالية في ضوء علم اللغة الحديث) – محمد دحام الكبيسي، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – جامعة بغداد ١٩٩٩.
- منهج النسفي في الكشف عن دلالة الالفاظ من خلال كتابه (طلبة الطلبة) عبد الكريم علي عمر المغازي ، رسالة ماجستير، كلية التربية – جامعة الموصل ١٩٩٩.

ثالثا: المجلات والدوريات :

- الجرس والايقاع في تعبير القرآن – كاصد ياسر حسين الزيدي، مجلة آداب الرافدين ، تصدر عن كلية الاداب – جامعة الموصل، العدد ٩ ، ١٩٧٨.
- علم الدلالة عند العرب – عاطف القاضي، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان ١٨و١٩ ، ١٩٨٢.
- موسيقى الفواصل في القرآن الكريم – السيد أبو الفضل ، مجلة الخفجي، مجلة شهرية تصدرها دائرة العلاقات العامة – شركة الزيت العربية المحدودة ، العدد ٧ ، ١٩٨٣.

رابعاً : البحوث غير المنشورة :

- استعمال الاستفهام في معنى التّفخيم والتّهويل في القرآن الكريم ، بحث مخطوط للدكتور قيس اسماعيل الأوسي .
- التناسب في القرآن الكريم ، بحث مخطوط للدكتور قيس اسماعيل الأوسي.

Ministry of Higher Education & Scientific Research
University of Baghdad
College of Education (Ibn Rushid)
Department of Arabic Language

In Ferential perelopment for words in Quranic Text (Rhetorical Study)

A Thesis Sutmitted by
JENAN MANSOR KADHEM ELJEBORY

To the council of College of Education (Ibn Rushid) as apartial full filment for the requirements of a ward Ph. D in Arabic Languages and its Arts

Supervisor
Prof. Dr. QAIS ISMAEL MAHMOOD AL-Ausy

1426 H. **2005 M.**

Abstract

This research titled (In ferential perelopment for words in Quranic text – Rhetorical study is about how to transform from the meaning to another in Quranic tex. We find the word in language has meaning common in Arab speaks but it may change to another meaning allegory .

In Qurranic use the inferentials of some words to new meaning which Arabs has not familiar with such as worship worlds, words that describe scenes of Judgment day, Heaven and Hell, as well as the maters approve present of god and his ability to creat the universe to the final desting of world life .

So it is the desire to study these words through the methods in which it come in to know how they are developed and the matter that give them this development with in the text at inferences and functions that wake Quranic text special and diffirent from Arabs speech in it precise a chieve to the meaning in rhetoric simple way , was the motive to study this subject , there are many studies of Quran in their vorious snbject. Still Quran is riched fountain in which the studies in researches and to take from its high language. Thus when a study a chivied another study comes .

The research came in introduction which and who proceed and its title and exhibit for most important refrences and depened refrences in research and it followed by preface titled inferential development its concepts and branches, affection of who of wholy Quran in development of inferential development, of inferential development .

First chapter is titled (Inferential development for Arabic rhetoric principles in Quran. It is devided in four sections .

- First section Allegory development in Holly Quran.
- Second Section Simili development in Holly Quran .
- Third Section Metaphore development in Holly Quran .
- Forth section Metony development in Holly Quran .

Second Chapter titled phenomena’s of inferential development in Holly Quran .

It is devided in to four sections

- First section sonic inferential development .
- Second section social inferential development .
- Third section Suggestive inferential development .
- Forth section margin inferential development .

Third chapter about inferential development in Quranic text words . It is divided into three sections .

- First, its artificial function .
- Second, its mental function .
- Third , its psychological function .

Then comes the research conclusion and its more important results such us : The great affection of Holly Quran in developing Arabic language , its inferences expansion through development process which occur in Qnran use to words .

As well as the phenomena’s of inferential development gives to Quran words of beautiful meaning consistent in the text. In sonic conference we find that the voice reflect its meaning, in social inferential function it adds or neglect the meaning of a word and aominate new meaning reanired by Islamic religion , suggestive and margins in fenential it reflects new shadows generated by text .

This development of words in these inferences gives the word in its position certain function such us artificial function such us artificial function . It give beautiful scene to reach the meaning . As Quran is convincing religion, the mental function has greatrole in illustrate worshiping and what are needed from people through convineuy and evidents. This is as peach to human being and affecting on it by desire or by scoring and this is the role of psychological function .

Then followed by refrences lisl.